

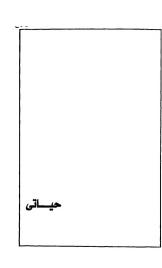
حیاتی

حمد أمسن





وائع السيرة الذاتية









مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣ مكتبة الاسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك (سلسلة رواثع السيرة الداتية) إشراف: د. سهير الصادفة

تصميم الغلاف والإشراف الفني: للغدان : محمود الهندى

الاشراف الطباعي:

المشرف العام: د.شمیسرسرح

رزارة الثقافة وزارة الإعلام الإخراج الفني والتنفيذ: وزارة التربية والتطيم صيرى عيدالواحد

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

الجهات المشاركة:

وزارة التنمية المحلية وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المسرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المرفة عطاءً للأسرة المسرية.

علىسبيلالتقليم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة المصر

د.سميرسرحان

إلاَّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق



مقدمة الطبعة الأولى

لم أسيب شيئاً من تأليف ما تهبيت من إخراج هذا الكتاب، فإن كل ما أخرجت كان غيرى المعروض وأنا العارض أوغيرى الموصوف وأنا الواصف ، وأما هذا الكتاب فأنا العارض والمعروض والواصف والموصوف ، والعين لا ترى نفسها إلا تمرآة ، والشيء إذا زاد قربه صبت رؤيم، والتفس لاترى شخصها إلا من قول عنو أوصديق ، أو بمحاولة للتجرد ثم توزيعها على شخصيتين : فاظرة ومتظورة، وساكة ومحكومة وما ألشق ذلك وأضاد .

ومع هذا فكيف يكون الإنصاف؟ إن القض إما أن تغلو ف تقدير ذاتها فتنسب إليها ما ليس لها ، أو تبالغ في تقدير مصامد عبها ، أو ترر را ماساء من تصرفها ، وإما أن تنشطها حقها ومحملها حب العدالة على تجزين طآبافتسلها ماها ، أو تقال من قيمة أعملها ، أو تبغار " بمنظار أسود لكل ما يأتى منها أما أن تقف من نفسها موقف القاضي المادل ، والحكم الذيه ، فطلب عز حى على القلاصة والمحكاد .

ثم إن النفس أعماقاً كأعماق البحار ، وغموضاً كغموض الليل، فالوعى واللاوعى ، والعقل الباطن والظاهر ، والشعور المبيط والمركب،والباعثالسطحىوالعييق ، والغرض/القريب والبعيد ــكل هذا وأمثاله بجعل تحليلها صعب المثال ، وفهمها أقرب إلى المحال . وقد محدع الإنسان فيكون من السهل اكتشاف الحليمة

والوقوف على حقيقها ، وتبين أمرها ، وتفهم بواعباومرامها أما أن عدع الإنسان نفسه فأمر غارق فى الأعماق مغلف بألف حجاب وحجاب .

من أجل هذاكان قول سقراط : 1 اعرف نفسك بنفسك. تكليفاً شططاً ، وأمراً يفوق الطاقة .

ولكن على المرء أن يبذل جهده فى تعرف الحق ، وتحرى الصدق ، ليبرىء نفسه ويريح ضميره ، ولايكلف الله نفساً

إلا وسعها . على ذلك وضعت هذا الكتاب ، ولم أذكر فيه كل الحق ، ولكنى لم أذكر فيه أيضاً إلا الحق ، فن الحق ما يرذل قوله

ولکنی لم آذکر فیه آیضاً إلا الحق ، فن الحق ما پرذل قوله وتئبوالأذنمن سیاعه ، وإذا کتا لا نستسیخ عری کل الجسم فکیف نستسیغ حری کل الفض ؟ – إلی أحداث تافیة حدثت لما آو لنبری معی ، لا نفع ق ذکرها ، والإطالة فی عرضها.

ثم إن حديث الإنسان عن نفسه ــ عادة ــ بغيض ثقيل ، لأن حبالإنسان نفسه كثيراً ما يدعوه أن يشوب حديث بلديح ولو عن طريق التواضع أو الإيماء أو التلويح ، وفي هذا المديح دلالةعلى التساى والتعالى من القائل ، ومدحاة للإهميرًا إز والتفور من القارىء والسامع ، ولذلك لا يستساغ الحديث عن التفسى إلا بضروب من اللباقة ،وأقانين من اللباقة .

• •

وترددت. أيضاً.. في نشره : ماللناس ووحياتي، ؟لست بالسياسي العظم ، ولا ذي المنصب الخطير ، الذي إذا نشر مذكراته ، أو ترجم لحياته ، أبان عن غوامض لم تعرف ، أو محبّات لم تظهر ، فجلَّى الحق وأكمل التاريخ ، ولا أنا بالمغامر الذى استكشف مجهولا من حقائق العالم ، فحاول وصفه وأضاف ثروة إلى العلم ، أو مجهولًا من العواطف ــكالحب والبطولة أو تحوهما فجلاه ، وزاد بعمله في ثروة الأدب وتاريخ الفن ــ ولا أنا بالزعيم المصلحالمجاهد ، ناضلوحارب، وانتصر والهزم ، وقاوم الكبراء والأمراء ، أو الشعوب والحاهد ، فرضوا عنه أحيانًا ، وغضبوا عليه أحيانًا ، وسعد وشتى ، وعذب وكرم ، فهو يروى أحداثه لتكون عبرة ، وينشر مذكراته لتكون درساً .

لست بشىء من ذلك ولا قريب من ذلك ، فغيم أنشر دحياتى ، ؟ . فحلت محلها ، ونشرت سلطانها ، وتغلغلت حتى في الفن والأدب ؛ كان الشعر في الشرق لا يعيش إلا في قصور الحلفاء والأمراء فعاش فى الناس بعيدا عن القصور ، وكانت أهم موضوعاته المديح وخبر أساليبه المزوق المطرز ، فصارت مواضيعه كل شيء إلا المديح وأسلوبه كل شي ء إلا الإفراط فى الزينة ؛ وكانت الروايات التمثيلية فىالغرب لاتتخلموضوعها إلا من حياة الملوك والأمراء ، ولا تعرج على شيء من حياة الفقراء ، إلا لإضحاك الأغنياء ، ثم دار الزمن دورته ، فصار كل شيء موضوعاً للرواية ، كوخ الفقير وقصر الأمىر ، وعيشة المترف الناعم وعيشة المحهد البائس ، والفلاحة في الحقل والأمرة في القصر ــوقد كان المؤرخ إنما يؤرخ للخلفاء وأعالم ، ومبانيهم وحروبهم وإقطاعهم ، ومن اتصل بهم ، وما صدر عمهم من فعل ، وما روی لم من قول ، ولاشیء غىر ذلك ؛ ئم صار المؤ رخ يؤرخ للشعب كما يؤرخ للسلطان، ويؤرخ الفقر كما يؤرخ الغني ، ويؤرخ الزراعة كما يؤرخ الإمارة فحياة المغمورين هامة كحياة المشهورين . فلماذا ــ إذن ــ لا أوْرخ 3 حياتى ، لعلها تصور جانباً من

ولكن سرعان ما أجيب بأن عصر الأرستقراطية كاد يزول من غير رجعة ، وينقضي من غيرعودة ، وأزهر تالدممقراطية اليوم قارئاً ، وتعين غداً مؤرخاً ، فقد عنيت أن أصف ماحولى موثراً في نفسى ، ونفسى متأثرة بما حولى .

نبتت عندی فکرة تاریخ حیاتی ، منذ أول عهد شبایی ، فقد رأيتني أدون مذكرات يومية عن رحلاتي . وعن حياتي في الأسرة أيام زواجي ، ووجلتني أسجل في المفكرات السنوية أهم أحداث السنة ، وما يسوء منها وما يسر ، ولكن لم يكن كل ذلك عملا منظماً متواصلا ، بل كان محلث في فرات متقطعة ـــ ثم نمت الفكرة وشغلت بالى فى العام الماضى ، فكنت أعصر ذاكرتى لأستقطر منها ما اختزنته منذ أيام طفولتي إلى شيخوختي ، وكلما ذكرت حادثة دونتها في إمجاز ومن غير ترتيب ... فلما فرغت من ذلك ضممته إلى مذكراتي اليومية ، ثم عمدت _ في الأشهر القريبة _ إلى ترتيبه وكتابته من جديد على النحو الذي يراه القارىء ، من غير تصنع ولا تأنق . والله هو الموفق .

أحمد أمين

الجيزة ٢٩ مارس سنة ١٩٥٠

مقدمة الطبعة الثانية

كنت أخرجت مذا الكتاب —كا تلت فى الطبعة الأولى — وأنا خالف متردد ، للأسباب التىذكرتها ، وأحدالله إذ تقبله الفارئون قبولا حسناً ، ومدحوا فيه ما يدل عليه من صراحة وصدق فى الحير والشر ، والنميم واليؤس .

وقد نفلت الطبعة الأولى ومضى على نفاذها نحو سنة . ثم طلب مى أن أهيد طبعته ، فأجزت ، وأهلت قراءته من جديد ، فزدت عليه زيادات فى أمور كنت نسيتها . وحصلت فى السنتين الأخيرتين حوادث ألحقتها بالكتاب ؛ حى يساير دحياتى ، حياتى . واقة المسئول أن يضع بالطبعة الثانية ، ما نفع بالأولى .

1404/14/18

ما أنا إلا تتيجة حتمية لكل ما مر على وعلى آبائى من أحداث ، فالمادة لا تتعدم وكذلك المائى ، قد يموت الطير وتموت الحشرات والهوام ، ولكنها تتحلل فى تراب الأرض فتغذى النبات والأشجار ، وقد يتحول النبات والأشجار إلى فحم ، ويتحول الفحم إلى نار ، وتتحول النار إلى خاز ، ولكن لا ثمىء من ذلك يتعدم ، حى أشعة الشمس التي تكون الغابات وتنمى الأشجار تُسخرن فى الغلام ، فإذا سلطت علها النار تحولت إلى ضوء وحوارة وعادت سرتها الأولى .

وكذلك الشأن في المواطف والمشاعر والأكداروالأخيلة ، تبى أبداً ، وتعمل عملها أبداً ، فكل ما يلقاه الإنسان من يوم ولادته ، بل من يوم أن كان علقة ، بل من يوم أن كان في دم آبائه ، وكل ما يلقاه أثناء حيانه ، يستقر في قرارة نفسه ، ويسكن في أعماق حسه ، سواء في ذلك ما وهي وما لم يع ، وما ذكر وما نسى ، وما لله وما آلم ، فنيحة الكلب يسمعها ، وشملة النار يراها، وزجرة الأب أو الأم يتلقاها ، وأحداث السرور ، والألم تصافي عليه —كل ذلك يتراكم ويتجمع ، وغضلط و يمترج ويضاط ، ثم يكونهالما المزيج وهذا الفناها أساساً لكل ما يصدر عن الإنسان من أعمال نبيلة وخسيسة ... وكل ذلك أيضاً هو السبب في أنيصىر الرجل عظما أوحقىراً ، قيها أو تافهاً ــ فكل ما لقينا من أحداث في الحياة ، وكلخرتنا وتجاربنا ، وكل ما تلقته حواسنا أو دار فى خلدنا هو العامل الأكبر في تكوين شخصيتنا ــ فإن رأيت مكتئباً بالحياة ساخطاً علما مترماً ما ، أو مبهجاً بالحياة راضياً عما متفتحاً قلبه لها ، أو رأيت شجاعاً مغامراً كبير القلب واسع النفس ، أو جباناً ذليلا خاملا وضيعاً ضيق النفس ، أو نحو ذلك ، فامحث عن سُلسلة حياته من يوم أن تكوّن في ظهور آبائه ــ بل قد تحدث الحادثة لا يأبه الإنسان بها وتمر أمام عينيه مر البرق ، أويسمع الكلمة العابرة لا يقف عندها طويلا ، أو يقرأ حملة في كتاب قراءة خاطفة ، فتسكن هذه كلها فى نفسه وتختبىء فى عالمه اللاشعورى ، ثم تتحرك في لحظة من اللحظات لسبب من الأسباب فتكون باعثاً على عمل كبىر أو مصدراً لعمل خطير . وكل إنسان - إلى حدكبىر – نتيجة لحميع ما ورثه عن آبائه ، وما اكتسبه من بيئته التي أحاطت به .

ولو ورث أى إنسان ما ورثتُ ، وعاش فى بيئة كالتى عشت لكان إياى أوما يقرب منى جدًّا .

نت لکان ایای اوما یقرب می جدا . لقد عمل فی تکوینی الی حد کبیر ما ورثت عن آبائی ، والحياة الاقتصادية التي كانت تسود بيتنا ، والدين الذي يسيطر علينا ، والفنة التي تتكلم بها ، وأدبنا الشعبي الذي كان بروى لمنا ونوع التربية الذي كان مرسوماً فيذهن أبوى ولو لم يستطيعا التعبير عنه ورسم حلو دمونحوذلك ؛ فأنا لم أصنع نفسي ولكن صنعها الله عن طريق ما سنه من قوانين الورائة والبيئة .

صنعها الله عن طريق ما سنه من قوانين الورائر والبيئة .
عجيب هذا العالم ، إن نظرت إليه من زارية رائمه كلا
متناساً ، يتجانس في تكوين فراته ، وفي بناء أجرائه ، وفي
خضومه لقوانين واحدة ؛ وإن نظرت إليه من زاوية أخرى
رأيت كل جرئية منه تشرد عن غيرها بميزاتخاصة با
لا يشركها فيا غيرها ، حتى شجرة الوردة نقسها تكاد تتميز
كل ورقة فياعن شيلانها ، فن التاحية الأولى نسطيع أن
تقول : ما أشيه الإنسان بالإنسان ، ومن الناحية الثانية تقول :
ما أوسع الشرق بين الإنسان والإنسان .

وعلى هذه النظرة الثانية فأنا عالم وحدى ، كما أن كل إنسان عالم وحده ، تقع الاحداث على أعصابي ، فأنفعل لها انفعالا خاصاً بى ، وأقربها تقريماً عنتلف - قليلا أوكديراً -عن تقويم كل علموق أنمر غيرى ، فالحادثة الواحدة يبكى منها إنسان ، ويضحلمها أنفر ، ولا يبكى ولا يضحك مها ثالث ، كأوائرا المود الواحد، يوقع علمها كل فنان توقيعاً منفرداً متمرزاً لا يساوية فيه أى فنان آخر. فأنا أروى من الأحداث ما تأثرت به نفسى ، وأحكها كما رأت عيى ، وأترجمها مقدار ما انفعلها شعورى وفكرى(١).

(٢

نظر مرة إلى رأسى أستاذ جامعى فى علم الحغرافيا وحدق فيه ثم قال : هل أنت مصرى صميم ؟ قلت : فيا أعتقد ، ولم هذا السؤاك ؟ قال إن رأسك —كما يدل عليه علم السلالات — رأس كردى .

ولست أعلم من أين أتننى هذه الكردية ، فأسرة أبي من بلدة وسُمُخر اط ، من أعمال البحرة ، أسرة فلاحة مصرية، ومع هذا فديرية البحرة على الحصوص مأوى المهاجرين من الأقطار الأخرى . فقد يكون جدى الأعلى كما يقول الأستاذ كردياً أو سورياً أو حجازياً أو غبر ذلك. ولكن على العموم كان المهاجرون،من آبائی ديمقر اطيين من أفر اد الشعب لايؤيه سهم ولا بتاريخهم . ولكن لعل مما يؤيدكلام الاستاذ أنى أشعر بأنى غريب في أخلاق وفي وسطى وهذه الأسرة كانت كسائر الفلاحين تعيش على الزرع ، وحدثني أنى أنهم كانوا بملكون فى بلدهم نحو اثنى عشر فداناً ، ولكن توالى عليهم ظلم السخرة» وظلم تحصيل الضرائب فهجروها .

⁽١) كتبت فى حلوان فى شتادسنة ١٩٥٠ .

وكانت السخرة أشكالا وألوانآ ، فسخرة للمصالحالعامة كالمحافظة على جسور النيل أيام الفيضان ؛ فعمدة البلدة يسخُّه الفلاحن ليحافظوا على الحسور حيى لا يطغى النيل فيغرق البلد فَإِذَا تَخْلَفَ أُحد ممن عَينَ لِهٰذِهِ الحراسة عَذْبِ وضربٍ ، وهو يعمل هذا العمل من غبر أجر ؛ وسخرة للمصالح الحاصة فالغنى الكبير والعمدة ونحوهما لهم الحق أن يحشدوا من شاموا من الفلاحين المساكين ليعملوا في أرضهم الآيام والليالىمن غير أجر ـــ ولما أبطل رياض باشا السخرة والضرب بالكرباج فى عهدالخديو توفيق نقم عليه الوجوه والأعيان صنعه ، وعَدُّوا ذلك من عيوبه ، وقالوا إنه أفسد علينا الفلاحين ، وهكذا كان في كل ناحية من نواحي القطر عدد قليل من الوجوه والأعيان هم السادة ، وسواد الناس لهم عبيد ، بل.هولاء الوجوه والأعيان سادة على القلاحن وعبيد للحكام .

وأما الضرائب فلم تكن منظمة ولا عادلة ، فأحياناً يستطيع أن يهرب الغنى الكبير من دفعها أو يدفع القليل مما يجب عليه منها ويتخلص من الباق بالرشوة أو الفترب ليل الحكام . ثم يطالب الفقراء المساكين بأكثر مما يحتملون ، فإن لم يدفعواييمت مهاتمهم الهزيلة ، وأثاث يبوتهم المقيرة ، ثم ضربوا بالكرباج وطنبوا علماياً ألها ـ فكان كثير منم إذا أحس أنه سيقع في مثل هذا المأزق حل أثاث منزله على جائمه ، وخوج هو وأسرته هائمين على وجوهمهم فى ظلمةالليل ، وتركوا أراضهم، ونزلوا على بعض أقرباتهم أو على البدو فى الحيام أو حيثًا انفق –هلت ذلك أمرة على باشا بالدو فعلته أمرتى وأمر كنيرة من الناس

فى ليلة من الميال خرج أن الصغر وعمى الكبر من سمخراط عملان معهما القابل من الراد والأثاث ، تاركين الأطبان حلا مباحاً لمن يستولى علمها ، ويدفع ضرائها ونزلا فى حى المنشية (بقسم الحليفة) ولا قريب ولا مأوى .

وقسم الحليفة كنسم بولاق أكثر أحياء القاهرة عدداً وأقلها مالا وأسوأها حالا ، يسكنها العهال والصناع والباعة الحوالون وكثير من الطبقة الوسطى وقليل من العليا ، ولم تمسهما المدنية الحديثة إلا مساخفيقا ، فن شاء أن يدرس حياة سكان القاهرة وكا كانوا في العصور الوسطى ظيدرسهما في هذين الحين وخاصة أيام ولادق.

ومكانا ألاعيب القدل عظم صراف البلدة أخرج أنى من سمخراط وأسكت الفاهرة حيث ولدت وتعلمت ، ولولا ذلك النشأت فلاحاً مع الفلاحين أورع وأقلع ، ولكن تتوالد الأحداث والدائم عجياً ، فقد ينتج أعظم شر كاينج أعظم شر كاينج أعظم شر من أعظم شر على يتم هذا التوالد ويظهر على مسرح الكون .

سكن الشريدان في بيت صغير في حارة متواضعة (١)فيحي المنشية ، وعاشا على القليل مما أدخرا ، ولايد أن يكونا قدلقيا كثيراً من البوئس والعنت في أيامهما الأولى ، ولكن سرعان ما شق الأخ الكبر طريقه فى الحياة فكان صانعاً كسوياً . وكان أكبر الظنُّ أن يَأْخَذُ أخاه الأصغر معه؛ وهو أبي ۽ ليكون صانعاً مجانبه ، يعينه على الكسب أول أمره ، ولكن نز عةطبية غلبت عليه فوجهه نحو التعلم واحتمل نفقته ؛ فهو يحفظ القرآن ، ويلتحق بالأزهر ، ويخجل من أخيه أن يرهقه بالإنفاق عليه فلا يطالبه إلا بالضرورى ، وإذا احتاج إلىكتاب يُقِرأ في الأزهر خطه بيمينه ، وقد أحسن خطه فكان خطأ جيلا قل أن يكون له نظر بن طلاب الأزهر وعلمائه ، يكتبه في أناقة ويشتري له ورقاً متيناً صقيلا ، ويسطره عسطرة هي عبارة عن ورقة سميكة قد شد علما خيط في مكان السطور وثبتت علمها بالصمغ ، فإذا وضعت الورقة التي يراد الكتابة علمها وضغطت بانت الحيط ، فكتب الكاتب علما خطأً منتظماً . وقد خلف أبي كتباً كثيرة من هذا القبيل ، فقد كان كلما عبر على كتاب مخطوط جيد نقله بخطه ، ، ولا أدرى أين وجد الزمن الذي قام فيه عمثل هذا العمل . وأكبر الظن أن (1) اسمها حارة العيادية ، مع أنى لم أجد لأسرة عياد هذه أثراً

الذى أعانه على ذلك أنه لم يتمود لعباً قط ، ولا جلس على مقهى قط ، وإنما كانت حياته جناً فى جد ، مما أرهقه وأتلف صحته . فلما توفى حمت هذه الكتب فى صناديق وأهديها إلى مكتبة الأزهر باسمه . وكان أكثر هاكتب نحر وفقه شافعى .

ويتقدم أبى فى الدراسة فيحث عن عمل يكسب منه بجانب دراسته ليكو نامصححاً بالمطبقة الأمعرية بيولاقاً جياناً، ومدرساً فى مدرسة حكومية (٧) أحياناً . وكانت الدراسة فى الأزهر صحبة مملة طويلة لا مجتازها إلا من منح صبراً طويلا ، واحتمل حيثاً تقيلا ، يطلب هذه الدراسة كدرون ولا يتمها إلا القلبلون فيكونون كالماء يبتدىء مبراً كيراً ، وعر أخبراً فى قناة . أو لا ينجع . وهكذا نجح أبى فى دراسته بصدره وقوة أحياله ، واستطاع أن مجمل حبه ويرد الحبيل لأخيه .

وأما أسرة أبى فأصلها على ما روى لى من وتلاء من أعال المنوفية ، ولا أفرى أهجرتها كما هجرتها أسرة أبى فراراً من الظالم أو لشىء آخر ، وكل ما أعلمه أن أخوالى سكتوا فى حى فى وسط القاهرة قريب من باب الحلق ، وكانوا يشتغلون فى تجارة (المطارة) ، وكانوا ناجحين فى تجارتهم ، وكانوا

⁽١) تسبى = المدرمة الخطرية ۽

مع - مهنتهم التجارية - يحفظون القرآن ، ويحسنونقراءته، ويلترمون شمائر الدين ، وكان أحد أخوالى سمحاكريماً ، كثير الإجسان الفقراء ، وقد منع بسطة فى الرزق ، وسمة فى الفسى ، واما خالى الآخر ، فكان كراً شجوعاً مضيقاً عليه فى رزقه ، ولست أدرى: أكانت صاحة الأول سبياً فى سمة رزقه ، أم سعة رزقة سبياً فى صاحت . ؟ كما أنى لست أدرى اكانت كزازة الثانى سبياً فى ضبيق رزقه ، أم كان ضبيق رزقه ، م

(٣)

كانت أول مدرسة تعلمت فيها أمم دروسي في الحياةييني، وقد بني أفي ستقلا في الحارة اللي ستقلا في الحارة التي يسكنها هو وأخوه منذ هجرسها ، يتكونهن دورين غير الأرضى ، في اللور الأرضى منظرة للضيوف وكل دور به ثلاث غرف وتوابعها .

وطابع البيت كان البساطة والنظافة ، فأناث أكثر الحجر حصير فرشت عليه سجادة ، وإذا كانت حجرة نوم رأيت فى ركن من أركانها حشية ولحافاً وعندة ، تطوى فى الصباح وتبسط فى المساء ، فلم نكن نستخدم الأسرة ، وأدوات المطبخ فى غاية السلاجة ، ومكلاً ؛ ولو أردنا أن نقتل لكفتنا عربة كبيرة لتقل الأثاث ؛ أما أكثر ما فى البيت وأتمته وما يشغل أكبر حز فيه فالكتب – المنظرة مملوءة دواليب صفغت فيها الكتب ، وحجرة أنى مملومة بالكتب ، وحجرة فى الدور الأول ملت كذلك بالكتب .

وكان أبى مولماً بالكتب في عنلت العلوم ، في الفقه ...
والتفسر والحديث واللغة والثاريخ والأدب والتحو والصر و
والبلاغة ، وإذا كان الكتاب مطبوعاً طبعين : طبعة أمدية
وطبعة أهلية لم يرتج حتى يقتفيه طبعة أمرية ، وقد مكنه عمله
مصححاً في المطبقة الأمرية أن يقتى كثيراً بما طبع فها
وكانت هذه المكتبة أكبر متعة في حين استطحاللاستفادة مها،
وقد احتفظت غيرها وانخذته نواة لمكتبى التي أعشر مها
وأمضى الساعات فها كل يوم إلى الآن .

و سعي مستعلم من بو بهم بين امن . ف محبرة في هذا البيت ولدت ، وكانت ولادتي في الساعة الخامسة صباحاً من أول اكتوبر سنة ١٨٦٩ وكأن هذا التاريخ كان إرهامهاً بأني سأكون مدرساً ، فأول اكتوبر عادة بنه افتتاح الدرامة . وشاء الله أن أكون كذلك . فكنت مدرساً في مدرسة إيتدائية ، ثم في مدرسة ثانوية ، ثم في عالية وكنت مدرساً لبنين وينات ، ومشايخ وأفنية ، وكنت وابع ولد ولد ، ولم يكن في عب كرة الأولاد ضوراً منه بالمشولية ، ولما في من الحزن العبيق في وفاة أختى أبشم وفاة . فقد كان لى أخت في الثانية عشرة من عمرها شاء أبي ألا تستمر في البيت من غير عمل فأرسلها إلى معلمة تتعلم عندها الخياطة والتفصيل والتطريز ، وقامت يوماً تعد القهوة لضيوف المعلمة فهبت النار فها واشتعل شعرها وجسمها وحاولت أن تطنئ نفسها أول الأمر فلم تنجح فصرخت ، ولكن لم يدركوها إلا وهي شعلة نار ، ثم فارقت الحياة بعد ساعات ، وکان ذلك وأنا حَمْلٌ فى بطن أمى ، فتغذيت دماً حزيناً ورضعت بعد ولادتى لبناً حزيناً ، واستقبلت عند ولادتى استقبالا حزيناً ، فهل كان لذلك أثر فيما غلب على من الحزن في حياتى فلا أفرح كما يفرح الناس ، ولاأبتهج بالحياة كما يبهجون ؟ علم ذلك عند الله والراسخين في العلم .

وكان من محاسن أسرتنا استقلالنا فى المعيشة وفى البيت ، فلا تحاة ولا أقارب إلا أن يزوروا لماماً .

وكان بيتنا عكوماً بالسلطة الأبوية ، فالأب وحده مالك زمام أمرره ، لا تخرج الأم إلا بإذنه ، ولا بينيب الأولادعن البيت بعد النروب خوفاً من شربه ، ومالية الأسرة كلها فى يده يصرف منهاكل يوم ما يشاء كما يشاء ، وهو اللسى يتحكم حتى غها نأكل وما لا نأكل ، يشمر شعوراً قوباً بواجبه نحو تعلم أولاده ، فهو يعلمهم.ينشمه ويشرف على تعليمهم.فى مدارسهم ، سواء فى ذلك أبناؤه وبناته ، ويتعب فى ذلك نفسه تعباً لاحد له ، حتى لقد يكون مريضاً فلا يأبه بمرضه ، ويتكىء على نفسه ليلتى علينا درسه . أما إينامنا وإدخال السرور والهيجة علينا وحديثه اللطيف معنا فلا يلثمت إليه ، ولا يرى إنه واجب عليه . يرحمنا ولكنه يحتى رحته ويظهر قسوته ، وتتجل هذه الرحمة فى المرض يصيب أحدنا ، وفى الفيلة إذا عرضت لأحد منا . يعيش فى شبه عزلة فى دوره العالم ، يأكل وحده ويتجد وحده ، وقال يلقانا إلاليقر لتا . أما أحاديثا وفكاهتنا ولعبنا فم أمنا .

وقد كان لنا جدة _ هى أم أمنا _ طبية القلب شديدة التدين ؛ يضىء وجههها نوراً ، تزورنا من حين لآخر ، وتبيت عندنا فنضر بلقائها وحسن حديثها ، وكانت تعرف من القصص الشعبية — الريفية منها والحضرية — الشيء الكتدر المدى لا يفرغ ، فتحان حولها ونسمع حكاياتها ولا تزال كلك حتى يغلبنا النزم ، وهى قصص مفرحة أحياناً مرعبة أحياناً ، منها ما يدور حول سلطة القدر وغلبة لحظ ، ومنها ما يدور حول المغلب ونها حرك المفاريت وشيطتها ، والملوك والعظه وضم أمام القدر الذ ، وتتخلل ملمه القصص الأمثال الشعبة المطيفة والحيل التي يتركز فها مغزىالقصة . وأحياناكان أنحى الكبر يقرأ لنا في ألف ليلة وليلة ، فإذا أتى لمل حمل ماجسة مبتكة تلعم فها وخجل واضطرب وحاول أن يخطاها ، وأحياناً يزل لسانه فيقردها فيضحك بعض من حضر ، وتحجل أمى وجلق فهرب أشى من هذا الموقف المربك ، وتقعف القرامة .

ولكن كان بيتنا ــ على إلحملة ــ جداً لا هزل فيه ، متحفظاً ليس فيه ضحك كثير ولأمرح كثير ، وذلك من جيد أبي وعزلته وشلنته .

ولم تكن المدنية قد غزت البيوت ، وخاصة بيوت الطبقة الوسطى أمثالنا ، فلا ماء بجرى في البيوت وإنما هو سقاء محمل القربةعلىظهره ويقذفماءها فى زير البيت تملأ منه القلل وتغسل منه المواعن وكلما فرغت قربة أحضر قربة . والسقاء دائم المناداة على الماء في الحارة ، وحسابه لكل بيت عسر ، إذ هو يأخذ ثمن مائه كل أسبوع ، فتارة يتبع طريقة أن مخط خطاً على الباب كلما أحضر قربة ، ولكن بعضالشياطن يغالطون فيمسحون خطأ أو خطن ، ولذلك لحأ السقاء إلى طريقة: الخرز ۽ فيمطي البيت عشرين خرزة ، وكلما أحضر قربةأخذ خرزة ، فإذا نفذت كلها حاسب أهل البيت علمها . وأخبراً ... وأنا فتى ... رأيت الحارةتحفر والأنابيب تمد

والمواسير والحفيات تركب فى البيوت وإذا الماء فى متناولنا وتحت أمرنا ، وإذا صوت السقاء عننى من الحارة وبرمجنا الله من الحطوط تخط أو الحرز يوزع .

وطبيعى فى مثل هذه الحال ألا يكون فى البيت كهرباء فكنا نستضىء بالمصابيع تضاء بالبترول ، ولم أستضى بالكهرباء حى فارقت حينا إلى حى آخر أقرب إلى الأرستفراطية .

وطعامنا يطهي على الخشب ثم تقدمنا فطهينا على رجيع الشحر فسم الكوك) ثم تقدمنا أخير أ فطهينا على (وابوربر بمس) وكل أعمال البيت تقوم سما أنى ، فلا خادم ولا خادمة ولكن يعيما على ذلك أبناؤها فيا يقضون من الحارج، وكعرى يناتها فى الداخل .

وكان أبى مدرساً فى الأزهر ومدرساً فى مسجد الإمام الشافعى وإمام مسجد . ويتفاضى من كل ذلك نحو الني عشر جنها ذهباً ، فلم نكن تعرف أخيات الورق ، وأذكر – وأنا فى المدرسة الإعتازية – أن ظهرت عملة الورق فخافها الناس ولم يوشنوا بها وتندرت الحرائد المزلية عليها ، وكانت لائقع فى يدرسوا إلى الصيارف فى يد الناس – وخاصة الشيوخ – حتى يسرسوا إلى الصيارف فيضروها ذهباً . وكانت الائتا عشر جنها تكفينا وتزيد عن حاجتا ويستطيم أنى أن يدخر منها العلواريء ، إذكانت تقدرتها

الشرائية تساوى الأربعين جنهاً والخمسين اليوم ، فعشر بيضات بقرش ، ورطل اللحم بثلاثة قروش أو أربعة ورطل السمن كذلك وهكذا ، ومن ناحية أخرى كانت مطالب الحياة محدودة ومعيشتنا بسيطة ؛ فأنى من بيته إلى عمله إلى مسجدة ثم إلى بيته ، لا يدخن ولا مجلس على مقهى، وملابسنا حميمًا نظيفة بسيطة ، ومأكلنا معتدل ليس بضرورى فيه تعدد أصنافه ، ولا أكل اللحم كل يوم ، ولم نر فيمن حولنا عيشة خيراً من معيشتنا نشقى بالطموح إلى أن نعيش مثلها ،ولا سيبا ولا تمثيل ، ولكن من حن لآخر تنصب خيمة على باب حارتنا يلعب فيهاد قره جوز ۽ أدخل إليها بنصف قرش ويكون ذلك مرة في السنة أو مرتين .

ويضر البيت الشعور الديني ، فأنى يودى الصلوات أدقائها ويكثر من قراءة القرآن صباحاً وصاء ، ويصحو مع الفجر ليصلى ويبتل ، ويكثر من قراءة الفسر والحديث ، ويكثر من ذكر الموت ويقلل من قيمة الدنيا وزخرفها ، ويحكى حكايات الصالحين وأعملم وجادتهم ، ويودى أولاده تربية ها أقرباءه ، وعج وحج أمي معه ... ثم هو يربي أولاده تربية دينية فيوقظهم في الفجر ليصلوا ويراقهم في أوقات الصلاة الأخرى ويسائلهم مني وصلوا وأين صلوا . وأي كانت تصلى الحين بعد الحين — وكلنا بحضل برمضان ويصومه —
وعلى الحملة فأنت إذا فتحت باب بيتنا شمعت منه واتحةالدين
ساطعة زاكية ، ولست أنسى يوماً أقيمت في خفلة عرص في
حارتنا ، وقدمت فيه المشروبات الروحية ليعض الحاضرين
فقروهد أنهى المراهين بجلس على مائلة فها شراب ، فيلغ ذلك
أن فا زال يضربه حتى أغمى عليه — وكان معى يوماً تعلمة
غنسة قروش فحاولت أن أصرفها من باتع سجائر فضاهدني
أنمى المكير فأخذ يسألني وصفق معى تحقيق و وكيل النيابة ،
مع المهم ، خوفاً من أناكون أشرى سجائر لأدخها إذ ليس
حاد في البيت عدلت فنسه أن يشرب سجائر لأدخها إذ ليس

احد في البيت عشد نفسه أن يشرب سيجارة.
وبعد ، فا أكثر ما فعل الزمان ، فقد عشت حتى رأيت
سلطة الآباء تهار، وتحل علها سلطة الأمهات والأبناموالينات
وأصبح البيت برالماناً صغيراً ، ولكنه برالان غير منظم ولا عادل
فلا ترسط فيه الأصلية ، ولكن
يتبادل فيه الاستبداء ، ولا تتسكم فيه الأعلية ، ولكن
يتبادل فيه الاستبداء ، فأسياناً تستبد الأم ، وأحياناً تستبد
البنت أو الابن وقال يستبدالاب ، وكانت ميزانية البيت في يد
صيراف واحد فتلاعت منها أيدى صرافن ، وكثرت مطالب
صيراف واحد فتلاعت منها أيدى صرافن ، وكثرت مطالب
ويبازان بين فينها ، فتصاحت وتحاربت وتخاضمت ،
وكان ضحيها معادة البيت ومعاومه وطمأنيته.

وغزت المدنية الملاية البيت فنور كهربائى وراديو وتليفون وأدوات نلتسخين ، وأدوات للتبريد ، وأشكال وألوان من الأثاث . ولكن هل زادت سعادة البيت بزيادتها ؟

وسفرت المرأة وكانت ألى وأغوافي محجبات - لايرين الناس ولا يراهن الناس إلا من وراء حجاب - وهكذا من أمور الانقلاب الحطير ، ولو بعث جدى من سمخراط ورأى ماكان عليه أهل زمنه وما نحن عليه اليوم لحن جنونه ، ولكن خفف من وقمها علينا أنها تأتى تدريجاً ، ونألفها تدريجاً ، ويفتئر صجبنا مها وإعجابنا بها على مر الزمان ، ويتحول شيئاً فشيئاً من باب الغريب إلى باب المالوف .

(€

كان هذا البيت أهم مدرسة تكونت فها عناصر جسمي وخلق وروحي ، فإذا تغرت باض أو الدبول وبالقوة أو الضعف ، فسائل عارضة على الأصل — لقد كانت أمى قصرة النظر فورثت عها قصر النظر ، ولقيت من عنائه في حياتي الذيء الكثير ، فإذا تقدمت للمنحول في دار العلوم حرمت من ذلك لقصر نظرى ، وإذا تقدمت للمنحول في مدرسة القضاء فكذاك إلا أن تحدث معجزة ، وإذاأريد تتييني في وظيفة سقطت في امتحان النظر ، وإذاأريد التمثيل للاسترواح ــ فلا أذهب . وهكذا وهكذا من أحداث سيئة لا تحصى صادفتني في حياتي إلى أن اضطررت منذ شبابي إلى لبس نظارة ، وكنت من سنة إلى أخرى أغير النظارة بأخرى أسمك منها ، حتى صارت فى آخر الأمر نظارة سميكة ، واعتادت عيني هذه النظارة . وكانت لها كذلك سيئات . فإذا كسرت أو نسيتها في البيت ، صرت كأني أعمى. وقد رأيتني فيها بعد أحتاج إلى نظارتن ، نظارة للقراءة ، وتظارة للسر والعمل . ولا تسأل عن متاعب ذلك . ومع قصر النظر هذا ، كان النظر القصير نعمة كبيرة إذا قارنت بينه وبن العمى . فكل الأشياء الحوهرية من رؤية أشخاص وروية مناظر حميلة ، كانيكني قصر نظرى في إدراكها . ورمماكان هذا عاملا من عوامل حبى العزلة حتى لا أقع فى مثل هذه الأغلاط ، ولكن أحمد الله أن كان نظرىعلى قصره سليا ، فقد احتماني على كثرة قراءتى ومداومة النظر فى الكتب حتى جاوزت الستىن .

أخرى ، وتحدث أخداث كثيرة نحيلة وغير محبلة نتيجة لقصر نظرى ، فقد لا أسلم على أحد مجلس بعبداً عنى فيظن بى الكبر ، وقد أكون على موحد فى مقهى فادخل ولا أرى من وعدتهم إلا أن يرونى ، وقد أمر فى الشارع على من أنا فى حاجة إليه ، فلا أراه . وقد أحب أن أذهب إلى السنيا أو وكونت أهم ممزات شخصيتي . فإن رأيت في إفراطاً في أ جانب الحد وتفريطاً معيباً في جانب المرح ، أو رأيت صراً على العمل وجلداً في تحمل المشقات ، واستجابة لعوامل|لحزن أكثر من الاستجابة لعوامل السرور ، فاعلم أن ذلك كلهصدى لتعالم البيت ومبادئه . وإن رأيت ديناً يسكن في أعماق قلى ، وإعاناً بالله لانزلزله الفلسفة ولا تُشكك فيه مطالعاتي في كتب الملَّحدين ، أو رأيتني أكثر من ذكر الموت وأخافه ، ولا أتطلع إلى ما يعده الناس مجداً ولا أحاول شهرة ، وأذكر في أسعد الأوقات وأسجها أنكل ذلك ظل زائلوعرض عارض أو رأيت بساطتي في العيش وعدم احتفائي عأكل أو مشرب

ثم إن كل خصائص البيت الى ذكرتها انعكست في طبيعتي

أو ملبس ، ويساطني في حديثي والقائي ، وبساطني فيأسلوني وعدم تعمدى الزينة والزخرف فيه ، وكراهيتي الشديدة لكل تكلف وتصنع في أساليب الحياة ، فرجعه إلى تعالم أبي

لقد قرأت الكثير مما يخالف هذه التعاليم ، وصاحبت أهل المرح وسمعت آراء الإلحاد ، وأنصت إلى من ينصحني

وماشاهدته في بيتي .

بالابتهاج بالحياة ، وتعاقبت أمام نظرى أنواع الحياة المختلفة والمظاهر المتباينة ونحو ذلك ، ولكن تسرب بعض هذه الأشياء إلى عقلي الواعي فكان على السطح لا في الصمم ، أما شعورى العميق وما له الأثر الكبر في الحياة من اللاوعي فنشؤه البيت كانت الصفحة بيضاء نقية تستقبل مايقع علمها وتدخره في خزائها ، ثم تكون له السيطرة الكبرى على الحياة معما ما الت

نم إلى لأعرف من نشأوا فى بيت كبيتى تفعره النزعة الدينية كالزعة التى غمرت بيقى ، ومع هذا ثاروا على هذه النزعة فى مستقبل حياسم ، وانتقلوا من التقيض إلى النقيض ، ولم يعبأوا بالسلطة الدينية التى فرضت عليم فى صغرهم ، فإلخا كان موقفهم غير موقنى واتجاههم غير اتجاهى ؟ هل كان ذلك لأن الدين يقيم المزاج إلى حدكير ، أو لأن شخصية ألى كانتقوية غرست فى مالم يستطع الزمان اقتلاعه، أو أن عوامل البيئة زادت هذه النزعة الدينية تمواً ، فلما جامت العاصفة جامت متأخرة ؟ لعله شىء من ذلك أو لعله كل ذلك أو لعله شىء غير ذلك .

وهكذا الشأن فى كثير من شؤون الحياة ، يرى رجلين نشأ فى بوئس من العيش وقلة من المال ، ثم يسط لها فى العيش وتدفق عليما المال ، فنعلم أحدهما من يوئسه الأول حرصاً على المال وفرط تقوم له ، على حين أن الآخر انتقم من يوئسه بنجيمه ، ومن غل الزمان الأول عليه يإسرافه . لقد رأينا طرفة بن العبد وأبا النتاهية ، كلاهما تتلت أمام

• •

عينيه حقيقة الموت ، فاستنتج منها طرفة وجوب انتهاب اللذائذ وقال :

ألا أبهذا الزاجري أحضر الوغي

وأن أشهد اللذاتِ هل أنت ُعلدي

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

فدعني أبادرها بما ملكت يدى

واستنج منها أبو العتاهية احتقار اللذائذ ونهوين شأبها والصد عنها فقال :

صحبت للدى لعب قد لها حجب ومالى لأأحجب ألمهو ويلعب من نفسسه عموت ومنزله عمرب وعلى المجاوزة المجاوزة الأولى الحياة ويتركها للدية التي تعيش فيها ، والحو الذي يعاكسها أو ينسها ، حتى تعيش عيشها المقدورة لها وفقاً لنظام الكون وقرانيته .

(4)

هصرت ذاکرتی لا ذکر آقدم أحداث طفولتی فلکرت منها ثلاثة _ أولما أتی وأنا فی نحو الرابعة من عمری خرجت من حارتی فوجلت بناء وله باب مفتوح فلخلته ، کان هلما البناء و جباًسة ، وأیت فیها حبیاً ، ثورکیر علقت عل عقه خشبة و وبطت هذه الحشیة فی اسطوانة من الحدید کیبرة ، فإذا الثور دار دارت الحديدة ــ وقد وضع تحت الحجر حجر أبيض إذا دارت عليه طحته فكان جيساً . أبيض إذا دارت عليه طحته فكان جيساً .

أعجبني هذا المنظر ، والناس ــ وخاصة الأطفال ــتعجم الحركة أكثر مما يعجبهم السكون ، فلعبة القطار إذا كانجرى « بزنبلك » خبر من لعبة القطار الساكن ، والإعلان المتحرك فى المحال التجارية خير من الإعلان الثابت ، وعلى هذاالأساس النفسي كانت الصور المتحركة للأطفال في السيبا وهكذا ، حِيل هذا المنظر : ثور يتحرك ويدور فتتحرك معه الاسطوانة الحديدية ، وحجر جامد يتحول إلى دقيق ناعم ــ وشغلت به عن نفسى فجلست أمامه وقضيت الساعتين أو أكثر في الاستمتاع به ؛ في هذه الأثناء محثت عني أمَّى في البيت فلم تجدنى ، فنادت أحى وأختى فبحثا عنى فى الحارة فلم بجدانى، فجن جنونها ، وكان يشاع فى أوساطنا أن هناك قوماً تخطفون الأولاد ويسفرونهم إلى البلاد النائية للعمل ، وأن هناك آخرين شريرين يسمىكل مهم ﴿ سِمَّاوَى ﴿ يَخْطَفُونَ الْأُولَادُ وَيَلْحُونُهُمْ أو يضعونهم في ماعون كبير يغليمهم علىالنار وهكذا ، فخافت أمى أن يكون قد حدث لي شيء من هذا .

وکان فی کل حمیه مناد ، بستأجر لینادی علی الأولاد الثاثهین ، فیقول بأهلی صوته : « یامن رأی ولداً صفته کذا یلبس جلباباً أحمر أو أصفر ، وعلی رأسه طاقیة أو عاری الرأس ، وفي رجله نعل أو حالى القدمن فن وجده فله الحلاوة ، وينتقل في الشوارع والحارات الحاورةينادي هذا التداه ثم مختمه كل مرة بقوله وياصدوي ، والعدوى هذا شيخ من أولياء أفة الصالحين موكل برد الثاثه إلى أهله .

وأذكر – بله المناسبة – حادثة طريفة : أن المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى ألف كتاباً ساه و أين الإنسان ؟ » قرآه المرحوم و فتحى باشا زغلول » فلم يعجبه ، فأخذ القلم وكتب تحت وأين الإنسان » ياصوى .

على كل حال كان المنادى بنادى على وأنا فى الجباسة حى جاء رجل وطردنى ، وشتمنى وشتمته ، فعدت إلى البيت ، فهرننى أبى وقالت : أين كنت ؟ قلت فى الحباسة ، وحكيت القصة وما رأيت وما قاله لى الرجل وما رددت عليه ، بلغة مكسرة ولسان ألثغ . فكانت القصة تستخرج الضحك من كل من سمعها ، وكتراً ما طلب منى أن أعيد روايتها ولهذا ثبت فى ذا كرتى .

وحدث مرة أن أغلنى والدى إلى المسجد بجوار بيتنا ليصلى ولم يكن بالمسجد غمرتا ، فخلع والدى جبته وجوريه وشمر أكمامه وذهب إلى «الميشأة وليتوضا ، والميضأة حوض ماء نحو ثلاثة فن ثلاثة علاً بالماء من حن لآخر ، وفي العادة تملأ من بئر بجانبه ركبت علمها بكرة ، وعلق فمها حبل في طرفيه دلوان ، ينزل أحدهما فارغاً ويصعد الآخر ملآن . ومن أراد أن يتوضأ من الميضأة حمع الماء بىنكفيه وغسل وجهه ويديه الخ . ثم يعود الماء إلى الميضَّأة بعد العسل كما أخذ، وكانت هذه البضأةمصدر بلاء كبير ، فقد يتوضأ المريض بمرض معد كالرمد وتحوه فيتلوث الماء ويعدى الصحيح ، هذا إلى قذارته ، فالمتوضىء يغسل وجهه بعد أن غسل من قبله رجليه ولكن الاعتقاد الديني يغطى كل هذه العبوب والأخطار ، فلما دخل القاهرة نظام جرى الماء في الأنابيب والحنفيات لم تعد حاجة إلى المضأة ، وأصبحت الحنفيات أنظف وأصح ، ولكن إلف الناس للقديم جعلهم محزنون لفراق الميضأة ، ولذلك كان مما أخذ على الشيخ محمد عبده وعيب عليه أن أبطل ميضأة الأزهر وأحل محلها الحنفيات ، وهكذا يألف الناس القديم الضار ويكرهون الحديد النافع ويدخلون في الدين ماليس من الدين .

توضأ أبى وذهب يصل ، وبقيت أنظر إلى البئر وإلى الميضأة وأتجول بينهما ، فتزحلقت قدى وغرقت فى الميضأة، وغمر الماء رأسى ولولا أن أبى كان قريباً مى وسمع الحركة وأسرع إلى الميضأة وانتشانى ماكنت من ذلك الحن فى الأحياء ومكلما نجوت من هذا الحادث على هذا الوجه ، وكان يمكن أن تخصر حياتى كلها وتقف عند هذا الحد لو تأخرت فى الماء دقيقة ولم يلتفت أبى إلى هذه الرجة ـــ وكم من أرواح نجت عمل هذا وأرواح ضاعت ممثل هذا أيضاً ــــ وعلى كل ففلسفة الحوادثوفلسفة القدر غامضة عجيبة

وبعد ذلك حدثت لى حادثة ثالثة ، فقد مر محارتنا قبيل الغروب سائل يستجدى بالفن ؛ فمعه دُف يوقع عليه توقيعاً لطيفاً وينشد مع التوقيع قصائد فى مدح النبى صلى الله عليهوسلم وهو ينوع النغات حسب القصائد، ويناغم بنن القصيدة والضرب على الدف . أعجبي هذا وطربت له فتبعته ،وحرج من حارتنا إلى حارة أخرى فكنت معه حتى أتم دورته ، وإذا نحن بعد العشاء وأنى ينتظرنى لتأخرى ، فلما دخلت البيت أخذ يضربني من غىر سؤال ولا جواب ــ ولوكان أبي فناناً لقبَّلني لأنه كان يكتشف في أذناً موسيقية وعاطفة قرية ، ولكنه لم ينظر فى الموضوع إلا أنى تأخرت عن حضور البيت بعد غروب الشمس .

(7)

وكانت المدرسة الثانية هيو-حارتى ۽ فقد لعبت مع أبنائها وتعلمت منهم مبادىء السلوك ، وتبادلت معهم عواطف-الحب والكره ، والعطف والانتقام ، والألفاظ الرقيقة وألفاظ السباب ـــ وانطبعت منها في ذهني أول صورة للحياة المصرية الصميمة في سلوكها وأخلاقها وعقائدها وخرافاتها وأوهامها ومآتمها وأفراحهاوزواجها وطلاقها إلى غىر ذلك ... وكانت حارتنا مثالا للأسر فى القرون الوسطى قبلَ أن تغزوها المدنية عاديتها ومعانبها ــ فقد ولدت عقب الاحتلال الانجلـزى بنحو أربع سنوات ، ولم يكن الفرنج قد بثوا مدنيتهم إلا في أوساط قليلةً من الشــعب ، هي أوساط بعض من محتك بهم من الأرستقراطين وأشباههم . أما الشعب نفسه ــ وخاصة الأحياء الوطنية ــكُنِّينا فلم يأخذ محظ وافر منها ، فحارتنا ليس فنها من يتكلم كلمة أجنبية ، بل ليس فيها من يلبس البذلة والطربوش إلا عدداً قليلا جداً من الموظفين ، وليس في بيوتها أثر من وسائل الترف التي أنتجها المدنية الحديثة ، وليس فها من يقرأ كتاباً حديثاً مترحماً أو مكتوباً بالأسلوب الحديث ، ومن يقرأ مهم فإنما يقرأ القرآن والحديث والقصص القدعة كألف ليلة وعنترة ، أو الكتب الأدبيةالخفيفة ، ككليلة ودمنة والمستطرف فی کل فن مستظرف .

ولم تكن قد صادت النرعة الأوروبية التي لا تقدر الحوار فيسكن الرجل منهم مجوار صاحبه السنن ولا يعرف من هو بل قد يسكن معدفيبيت واحد أو في شقة بجانب شقتمولايكلف نفسه مؤونة التعرف به والسؤال من حاله ، إنما كانت تسود النزعة العربية التي تعد الحار ذا شأن كبر في الحياة ، فكان أهل حارتنا كلهم جير انايعرف كل مهم شؤون الآخرين وأساهم وأعملم ، ويعود بعضهم بعضاً عند المرض ، ويعزونهم في الماتم ويشا ركونهم في الأفراح ، ويقرضونهم عند الحاجة ويتراورون في الملاظر ، فكل بيت من طبقة الأوساط كان فيه حجرة بالدور الأرضى أعدت الاستقبال الزائرين تسمى د المنظرة ، ويتعلقونها بالضاد ويتبادل في هذه و المناظر أهل الحارة الزيارات والسعر .

كانت حارتنا تشمل نحو ثلاثين بيئاً ، ينفق علمها في الليل باب ضخم كبير في وسطه باب صغير وراءه بواب ، وهذا الباب يقية من المهد القدم ، عميها من اللصوص ومن ثورات الرعاع وهياج الحدود ، فإذا حدث ثميء من ذاك أغلق الباب وحرسه البواب ، فلما اسيتمر الأمن وسادت الطمأنينة استمر فتح الباب واستنمى عن البواب .

وتمثل هذه البيوت طبقات الشعب ، فكان من هذهالثلاثين بيئاً ببت واحد مزالطبقة العليا ، ونحو عشرة من الطبقة الوسطى ونحو عشرين من الطبقة الدنيا .

فالغی من الطبقة العلیا کان شیخاً معمماً ، یدل مظهره علی آنه من أصل ترکمی ، وجهه أبیض مشرب محمرة ، طویل عریض وقور ، ذو لحیة بیضاء ، مهیب الطلمة ، له عربة

هُو نائب المحكمة العليا الشرعية وسيد الحارة ، إذا حضر من عمله تأدب أهلها ، فلا يرفع نساء الطبقة الدنيا أصواتهن ، وإذا جلس في فناء بيته تأدب الداخل والخارج ، وإذا تجرأت امرأة على رفع صوتها أتى خادمه الأسود فأحضرها أمامالشيخ وزجرها زَجَرة لم تعد لمثلها ، وعلى ألسنتنا نحن الأطفال : الشيخ جاء ، الشيخ خرج ، وبيته الواسع الكبر لا يشمل إلا سيدة تركية ، وخدماً من الحوارىالسود اللاتى كن مملوكات وعبيداً سوداً ــ فقد كان في القاهرة أسواق وبيوت لبيع الحوارى البيض والسود ، يذهب من أراد الشراء فيقلب العبد أو الحارية ويكشف عن جسدها لىرى إن كان هناك عيب ، ثم يساوم في ثمن من أعجبه فيشتريه ويكون ملكاً له . وظلهذا الحال إلى عهد إسهاعيل ، فتلخلتاللنول الأوروبية ووضعت معاهدة لإلغاء الرقيق وأعنق كل مالك رقيقه ، ومع ذلك بقى كثير من العبيد والحوارى فى بيوت أسيادهم للخلمة ونحوها وكان يشاع فيا بيننا أن الشيخ بملك ذهباً كثيراً ، وأنه يضعه ف خزائن حديدية ، وأنه يضع كل جملة من الجنبهات ف صرة، وأن له يوماً فى السنة يفرغ فيه هذا الذهب فى طسوت مملوءة بالماء ثم يفسله بالماء والصابون ثم يعده ويعيده ، وكان نخيلا مع أنه لم يرزق بولد ، فلم يسمع عنه أنه ساعد أحداً من أهل

بجوادين ، يدقان بأرجلهما فتدقمعها قلوب أهل الحارة ،

الحارة بشيء . ولما جاوز السبعن ماتت زوجيده فتروج بشابة لعبت عاله وغير ماله ، وكثيراً ما يجدم في منظرته أبي وبعض أهل العلم يتطارسون المسائل الفقهية . وفي يوم المحمل أو الاحتفال بالمولد النبوى يلبس الشيخ وفرجية ، مقصبة ملحبة ويركب بغلة ويلمب ما إلى مكان الاحتفال ، وعلى الحملة فكان المستبداً في حارتنا كاستبناد أبي فيبيتنا ، واستبنادا لحكام في مصالح الحكومة .

أما الطبقة الوسطى ، فكانت تتألف،مزموظفين فىالدواوين هذا كاتب في ديوان الأوقاف ، وهذاكاتب في الدفترخانة ، وهذا يعيش من غلة أملاكه وهكذا ، دخل كل مهم ف الشهر ما بين سبعة جنهات واثني عشر ، يعيشونعيشة وسطاً لا ترف فيها ولا يؤسُّ ، ويعلمون أولادهم في الكتاتيب ثم المدارس ، وكان أكبر الأثر من هذه البيوت في نفسي لبيتين بحوار بيتنا : بيت موظف في ديوان الأوقاف ديِّن لطيف . مرح، فقد اتخذ منظرته مجمعاً لأصدقائهمنأهل الحارة وغيرهم يسمرون فيها ليلا ، فأحياناً بحضر مقرثاً حِيل الصوت يُقرأُ القرآن ، وأحياناً يقصون القصص الفكاهية يتعالى معها ضحكهم ، وأحياناً يتبادلون النوادر والنكت ، وكنت أتمكن أحياناً من سياع أحاديثهم فتكون متعة للنفس .

والآخر كان كاتباً صَغْيراً في ديوان الأوقاف أيضاً ، ولكنه

بوى الدف والفرب عليه وعبده ، ويواقت مع زملاته نخطً
يدعى للأفراح والليال الملاح ، هذا يضرب على العود ،
هذا على القانون وهذا يغى ، فكان من حين إلى حين يدعو
زملاء إلى إقامة خفاق بيته ، وكثيراً ما يكون ذلك، فيقضون
ليلى لطيقة فى أدوار موسيقية وغناء ، وكنت أغلبى جانفسي
يوم لم يكن داديو ولا فونوغراف — وكان رئيس البت —
وهو والله هذا المذى صالحًا ظريقاً لا تفوته صلاة ، وكان
صاحب البيت الثانى وهو الذى المذى سكراً لا يكاد يفيق
مع أن أباه كان إمام مسجد الحلى .

وبيوت الطبقة الدنيا يسكنها بَنَّاء أو مبيِّض أو خياط أو طباخ أو صاحب مقهى صفىر أو بائع جوَّال على عربة يدفعها بيديه ، وهؤلاء كثيرو الأولّاد بؤساء ولا يشعرون ببؤسهم ، يعيشون أغلب أيامهم على الطعمية والفول المدمس والبيسار والسمك يشترى مقلياً من الدكان ، وقليلا ما يستطيعون أن يطبخوا ، كما أن أولادهم لايعلَّمون في كتَّاب ولا مدرسة ، وإنما يتركون ليكتروا فيعملوا عمل آبائهم . نساؤهم قد مجلسن سافرات على باب البيت ، وكثيراً ما تقوم بينهن الخصومات فيتبادلن السباب أشكالا وألواناً ، ويستعملن في سبامهن كل أنواع البلاغة من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية ، ويتناول فيه الآباء والأمهات والأعراض والتعيير بالفقر

وبالفجور ونظائع الأمور ، ويطول ذلك ويقصر تبعًالظروف وقد يتحول السباب إلى ضرب ، ويتحول تضارب النساء إلى تضارب الرجال ـــ ولولا الشيخ فى حارتنا لكان من ذلك الشىء الكثير .

ولكن مع اختلاف هذه الطبقات فقدكنا ـــ نحن الأطفال
ــــدعقراطين ، لا نقيم كبر وزن لنني ولا فقر ولا تعلم
وجهل ، فكنا نلعب سواسية ، وتتخاطب بلغة واحدة ليس
فيها تكدر ولا ضمة ، وكان أحب أصدقائي إلى ابن كاتب في
الدفترخانة وابن صاحب مقيى وابن فقيه كفيف يقرأ في
البوت كل يوم صباحاً .

وكان من أحجب الشخصيات في حارتنا و الشيخ أحدالشاء و وجل بنغن طويل أسود ، يلبس جلبا با أييض و عامة ، وينابط دائما كتاباً لف في متديل أحر ، له صوت أجش ، وظيفته التي يتعيش مها أنه بعد صلاة الشاء يلهب إلى مقهى قريب من الحارة و رمصعد فوق كر من عال مجلس عليه ويتحلق حوله الناس ، ثم يفك المديل وغرج الكتاب وهوقصة عترة أو و الزير سالم بأو الظاهر بيد برويقر أفيه بصوته العالى ، متحمسا في موضع التحسين متخاذات في مؤسمة التخاذل ، مغنيا عايم من من الشعر فإذا كان في القمة بطاون تمس فرين لبطل وتحسف فرين لآخر ، وقد يرشوه أحد الشريقين ليقت في نهاية الجلسة فرين لآخر ، وقد يرشوه أحد الشريقين ليقت في نهاية الجلسة على موقف رائع لبطله ــ وله أجر على ذلك من صاحبالقهى لأنه يكون سبباً لازدحام مقهاه بالزائرين .

ولكن أعجب من هذا: الشيخ أحمد الصبان ، لقد كان يبيع الفحم في دكان على باب الحارة ، وكانت حالته لابأس مها ، ثم دهمه الزمن الذي لا يرحم ، فعمى وكسدت تجارته ولم بجدله مرتزقاً ، وهجر بيته الكبر وسكن حجرة أرضية هو وزوجته يأكلان من الصدقة ، فما هو إلا أن سكنت جسمه العفاريت ، وصار يغيب عن الوجودحيناً ، ثم يتغير صوتهالعادى ويتكلم بصوت جديد محمر به عن المغيبات ، وإذا هو يصبر الشيخ أحمد الصبان ، بعد أن كان عم أحمد ؛ وإذا هو يشهر في الحارة بأنه يعلم الغيب وعخر بالمستقبل ، وفاقدرته بواسطة التعازيم والأحجبة أن محببُ الزوجة إلى زوجها والزوج إلى زوجته ، وأن غير بالولد المفقود والمال المسروق ؛ ثم ينتقل الحبر من حارتنا إلى ما جاورها وإلى ما وراء ذلك . فكان الناس يأتونه من مكان سحيق ليشهدوا عجائب الشيخ أحمد الصبان . واتسم رزقه وصلح حاله ، وانتقل من حجرته الضيقة إلى مسكن فسيح ، وانقسم فيه أهل الحارة تسمين : قليل منهم يقول إنه نصاب وكثيرون يقولون وسبحانه ما أعظم شأنه ، يضع سره في أضعفٌ خلقه ؟) ..

كانت نسبة المواليد في الحارة نسبة عكسية مع الطبقات ،

فاقتر الطبقات أكثرها عدداً ؟ تلد سيدة سنة أو تمانية أوعشرة والبيت النبى الوحيد ليس به ولد – وكماكثر عدد المواليد كمر عدد الوفيات ، فالحالة الصحية أسوأ ما يكون ، لا عناية بمرض المريض فيمالح كل زائر وزائرة – كل يصف دوامين عند العطار جربه فنجح ، والمريض تحت رحمة القدر . وقد يصاب أحد بالحمى فنزوره كل من أراد ، وبسلم عليه ومجلس يعانب طويلا ، وعدته طويلا ، فتكون العلوى أمراً سهلا ميسوراً ، ولذلك كان كثراً ما يتخطف الموت أصدقائى من

لاتعجين من هالك كيف ثوى بل فاعجين من سالم كيف بحا

ومنظر آخر عجيب شاهدته فى صباى ثم انقرض ، ذلك أن فتيان حينا من يشتلون فى الحرف والصنائع قد يتخاصمون مع فتيان أمنائم من الحى الآخر ، كان يتخاشم مى المشية مع حى الحسيلة ، فيتواعدواطى الالتقاء فى جبل المقطم فى يوم معين ، ويجتمدون إذ ذلك فيتمسورالى مسكرين ، مسكر المنشية ومسكر الحسيلة ، وتقوم الحرب بينهما ، وأدوات الحرب الطوب والحجارة الصغيرة والعمى الغليظة . وتشعد المركة وتسفر عن جرحى ، وأحياناً عن قطى . وشاهدت هذا المنظر يوماً فرعبت منه حتى إذا أمسى المساء وقف التتال وتواعدوا على يوم آخر .

وطووا صدورهم على الاتضام والاُحد بالثار ، وتمتد المصيرة ورامالمسكوين ، فيتريس أهل المنشية ازقة عريس من أهل المسينية ويفايتونهم في أشد أوقات فرسهم ، ويهالون علهم ضرباً ، ويقليون الفرح خشا ، ومكلاً دوالك .

وعلى رأس كل مجموعة من الحارات سوق ، فهاكل ما تحتاجه البيوت ، وهو بمثل الوحدة الاقتصادية للأمة . ومجانب السوق كل مرافق الحياة الاجتماعية : مكتب لتعلم الأطفال ، ومسجد لصلاة أهل الحي ، وحمام للرجالأياماً ، وللنساء أياماً، ومقهى يقضون فيه أوقات فراغهم ،ويتناولون فيه كيوفهم ، من قهوةوشاى وتثباك ونحو ذلك ، وفي الحي مقاه متعددة ، منها ما يناسب الطبقة الدنيا ، ومنها ما يناسب الطبقة الوسطى وهكذا . فقل أنمحتاج أهل الحي إلى شيء أبعد من حبهم ، ومن أجل هذا كُانت دنياى في صباى هي حارثى وما حُولها : وأطول رحلة أرحلها خارج حيًّنا كانت يوم تذهب أمى وتأخذنى معها إلى الغورية أو حي الموسكي لشراء الأقمشة ، أو تأخذني إلى بيت خالى قريباً من باب ٔ الحلق ، وهذه كل دنياى .

كانت الحارة وما حولها مدرسة لى ، تعلمت منها اللغة

العامية القاهرية الصميمة ، من ألفاظها وأساليها وأمثالها وزجلها وكان جينا – كما قلت – علل الحياة القاهرية الحالصة ، فشلها مثل مراكز اللغة الفصيحة التي كان يرحل إلها علماء اللغة لعلقياتيس . وسفلي هوازن ، وتعلمت منها كل العادات والتقاليد البلدية ، ورأيت كيف تقام الأفراح عند الطيقة الدنيا وكيف يفرحون وعرحون وكيف يعنون وما يعنون ، و ورأيت القروق في كل ذلك بين عادات الطيقة الدنيا والوسطى طبقة .

ومرة شاهدت حفلة زار لسيدة تدعى أنه ركمها عفريت سودانى فاجتمع السيدات عندها والأطفال وحضرت شيخة الزار وهى المسماة بالكدية وأعوانها من السيدات والرجال بطبولهم وطبولهن ويدأوا فى ضرب على الطيل علىنغمة وياسلام سلم ، فأم يتحرك أحد لأن الأعصاب، تكن خدت بعد ثم طلب إلى الكودية أن تضرب نغمة سودانية على نغمة؛ صلوات الله عليه وسلم، فبدأ بعض الحاضرات يترنح ويفقر وبعضهن يرقصن رقصاً بديعاً على الأسلوب الحديث في الرقص فهن بهززن رموسهن ويدلنن شعورهن مرةويرفعن رموسهن ليدلين شعورهن مرة أخرى وادعى بعضهن وقد يكون صيحا أأنهن فقدن الوعى وأن حركاتهن تأتى عن غبر شعور وأطلقالبخور فى بيت صاحبة الزار بما هذا الأعصاب وحرك التفوس ثم ذيح خروف وأفراخ وغست بعض ثباب السيدة فى الدم ووضعت علمها وفى كل ذلك كانت تغنى الكدية وأتباعها بأغان ذات كابات أعجبة ثم أتبينها ومع الحاولات الكثيرة فى أنى ألقر كما يفقرن لم تتحرك أعصافي ولم تهز نفسى ، وكان منظراً تميز يحيلا وادعت فيه سيدة الزار يعد ذلك أنها قد هدأت أعصابا وشفيت من مرضها ، والظاهر أن مرضها كان مرض وهم زال بالزار الذى هو عمل الوهم . وهكذا شاهدت فى الحارة الزار والأفراح والأتم واستغلت من كل ما سمعت

ثم رأيت الماملات الاقتصادية بن أهل الحارة وأهل السوق ، والشمائر الدينية تقام في المسجد ، والحامات يستحم فيها الرجال والنساء ، كل ذلك كان دروساً عملية ويجارب قيمة لا يسهان بها ، فإذا أنا قارنت بين نفسى في تجاري هذه التي استغذاها من حارق ، وأولادى في مثل سنى التي أتحدث عها وقد ديوا تربية أخرى ، فلا جيران يعرفون ، ولا بأهل حارة يتصلون ، ولا مثل مذه الملاقات التي ذكر بايشاهلون أوركت الفرق الكبير بين تربيتناوتربيهم ، وكثرة تجارينا وقلة تجارينا وقلة بحراجم ، ومعجم لفتنا ومعجم لفتها ، ومعجم فتنا ومعجم لفتها ، ومعرفتنا بصميم شعبنا

أما المدرسة الثالثة فكانت الكتاب ، وقد كان في ذلك العصر كتاتيب ومدارس ابتدائية وثانوية قليلة ، راقية بعض الرقى ، ولكن هذه الكتاتيب الراقية كانت بعيدة عن بيتي ، فاختار لی أبی أقرب كتاب ، يكاد يكون على باب حارثی ، هو حجرة متصلة بالمسجد^(١) ونجانها دورة مياهه ، وأثاث هذه الحجرة حصىر كبير بال ، قد انسلت منه بعض عيدانه، وزير فيه ماء يكاد يسود من الوسخ ، عليه غطاء من الحشب ، قد ثبت في الغطاء حبل طويل ربط فيه كوز ليستني منهالشارب ويتناولالكوز ليشرب منه النظيف والقلر والمريضوالصحيح وصندوق صفىر من صناديق الجاز وضعت فيه ألواح ، بعضها صفيح قد صدىء وبعضها خشب قد زال طلاؤه ، كتب عليها بعض آيات القرآن بالحبر الأسود فلا تكاد ترى، وشيخ قد لبس العامة وقباء من غبر جبة وبيده عصا طويلة ، ومسهار كبعر في الحائط علقت فيه \$ الفَكَفة ۽ وهي عصا غليظة تزيد قليلا عن المتر ، ثقب فها ثقبان ثبت فهما حبل ، فإذا أراد سيدنا ضرب ولد أدخلت رجلاه في هذا الحبل ولويت علمهما الحشية ، فلا تستطيع القدمان حركة ، ونزل علمهما

يضرب به أقصى ولد في الحجره ، وهذا كل أثات الكتاب _ نذهب إليه صباحاً ، ونجلس على هذا الحصر متربعين متلاصقين ، ويأخذ كل منا لوحه من الصندوق ، وكان لوحى جديداً ، إذ كنت مبتدئاً ، وكان لسيدنا عريف يساعده فى كتابة الألواح للأطفال ويقوم مقامه إذا غابكما يساعده فى مدَّ رجل الطفل في الفلقة عند الحاجة . ويقرأكل تلميذ في لوحه حسب تعلمه ، هذا يقرأ ألف باء وهذا سوة الفاتحة وهذا سورة تبارك وهكذا . فإذا فرغنا من قراءة الدرس الحديد استمع لنا الماضي وهو ما حفظناه من القرآن فيالدروس فَإِذَا جَاءُ وَقَتَ الغَدَاءَ أَخَذَ سَيْدُنَا مَنَ كُلُّ وَلَدْ قَرْشًا أَوْ نَصَفَ قرش أو مليما حسب مقدرته ، وبعث سيدنا العريف فأحضر له ماجورين أخضرين : في أحدهما فول نابت ومرقة وفي الآخر مخلل ومرقة ، والتف التلاميذ حولهما بعد أن أحضروا خبزهم الذى جاءوا به من بيوتهم ، وأخذت أيديهم تغوص باللقمة في مرقة الفول أحياناً وفي مرقة المخلل أحياناً ، ولا بأس أن يكون في الأولاد مريض وصيح وقلو ونظيف وملوث وغىر ملوث ، فعلى الله الاتكال والبركة تمنع من العدوى . وإذا قرأنا وجبأن نهتر وأن نصيح ، فن لم يهتر أو لم يصح لم يشعر إلا والعصا تنزل عليه فيصرخ ويصيح بالقراءة والبكاء معًا ،

سيدنا بالعصا . ثم عود من الحريد طويل يستطيع سيدنا أن

ونبقي على هذه الحال إلى قرب العصر فتخرج إلى بيوتنا ؛ ومن حين لآخر بمر أبو الطفل على سيدنا فيسأله عن ابنه ويطلب منه أن: ينفَض له الفروة ؛ ، وهذا اصطلاح بين الآباء وفقهاء الكتاب أن يشتدوا على الطفل ويضربوه ، فلا تعجب بعد ذلك إذا وجدتأرواحاً ميتة ونفوساً كسيرة ، ومن أجل هذاكانأكره شىء علينا الكتاب واسم الكتاب وسيدنا ؛ بل أذكر مرة أنى كنت ڧالبيت آكل مع أى وإخوتى، فاأشعر إلا وقد انتفضت من غير وعي ، لتوهمي أن عصا سيدنا نزلت على ۚ لأنى لم أهتر ، وكان أكره ما أكره يومالسبت صباحاً عند الذهاب إلى الكتاب ، وأحب ما أحب يوم الحميس ظهراً لأنه سيلحقه يوم الحمعة وفيه لاكتـّاب .

وخممت في هذا الكتاب ألف باء على طريقة عقيمة جداً ، فأول درس كان ألف (ألف لام فاء) وهو درس حفظتمولم أفهمه إلا وأنا في سن العشرين ، إذ كان معنى ذلك أن كلمة الألف مركبة من ألف ولام وفاء ، من أجل.ذلك كرهت هذا الكتاب وهذا التعليم وسيدنا ، وتنقلت في أربعة كتاتيب من هذا القبيل كلها على هذه الصورة ، لا تختلف إلا في أن الحجرة واسعة أو ضيقة ، وأن سيدنا لين أو شديد ، وأنهأعي العينين أو مفتوح العينين ، أما أسلوب التعليم فواحد في الحميع . وذهبت إلى الكتاب الثانى وكان سيدنا فيه رجلا غريبالأطوار

يعقل حيناً وبمن حيناً ، ويشتد ويلين ، ويفصحك ويبكى ، وإذا سار في الشارع جرى فضحك من جبريه الصغار ، لا أذكر ماذا فعلت ننادى ولدين قويين وأدخلار جلى في الفلقة وأسلك بعصا من جويد النخل وأخد جهى جا على قدى بكل قوته حى شقى قدى شقاً طويلا وتضجر اللم مها ، ثم أسلمني لمذين الولدين عملاني إلى يتى ، وكان هذا آخر العهد لهذا الكتاب .

على كل حال لبثت فى هذه الكتابيب الأربعة نحو خمس سنوات حفظت فيها القرآن وتعلمت القراءة والكتابة ، وكان لى من حجرة ألى فى الببت يوم المحمة وفى أوقات الفراغ كتاب تنحر ، سيدنا فيه هو ألى، أخفظت فيه جديداً وأسم ضه تدعاً.

فأين ذلك بما نحن نيه الآن ، لأطفال في مثل طبقي، إبهم يذهبون إلى رياض الأطفال فتعلمهم سيدات مهذبات أو آنسات ظريفات ، يعلمن على أحدث طراز من البداجوجيا ، ويتدرجن جم من اللعب إلى القراءة ، ويتحايلن على تشويق الطفل إلى الألف والباء ، ويسرقن التعليم عن طريق الصور أو القصص أو نحو ذلك ، ، ويقلن ماكنا فيه من عيش جاف إلى حلوى ، وأكثر أوقات الهار مرح ولعب ، ودوس كأنها لعب ، وأثاشيد ظريفة وموسيق لطيفة ، وطبيب يزور المدرسة كل يوم ، ومريض لا يحضر إلى المدرسة إلا بعد أن يأتى بشهادة أنه صحيح ، والعلم يعطى كما يعطى كوب من المشربات ، ويسكويت ولين وشاى بلمالفول النابت والحملل ، وضرب على « البيان » بلمل الفعرب على الأبدان ، ونحص ذلك من ضروب التعم . ولكن على كل حال أخشى أن نكون أفرطنا أياس في الحشونة وأفرطنا أيام أبنائي في التعومة ، والحياة لميست جداً عضاً ولا هزلا عضاً ولا نعها صرفاً ولا شقامصرفاً

ولم یکن بی سلوی فی هما الدور من الحیاة إلا لعبی فی الحارة مع زملائی بعض الوقت ، فتلعب البلی ، وکرة الید وتنسابق فی الحری ونحو ذلك ، ثم أحادیث جدتی فی البیت وقراءةأخی علیناً بعض کتب القصیص ، ثم لا شیء غیر ذلك .

(A)

كل شيء حولى كان كغيلا أن عيت اللوق ويبلد الحس ويقضى على الشعور بالحال ؛ فحارتنا – إذا تجاوزت بيت الشيخ – مُشربة ؛ لابحسها الماء إلا إذا نزل المطر أحالها بركاً ، وإلا ما يضله السكان – من حن لمل آخير – إذ يفتحون شبابيكهم ويقلفون مبا بما تجمع من ماء غسل الثياب أو غسل الصحون ، ، وأحياناً لا تتحرى السيدة ما تفعل قيارل هذا على حدد المسحون ، ، وأحياناً لا تتحرى السيدة ما تفعل قيارل هذا

الماء القلو على يعض المارة فيكون النزاع ويكون السباب . وشوارعنا قلرة لا يعني فها بكنس ولا رش ، وإذا كنست أو رشت فالمارة خليقون أنَّ يفسدواكل شيء في لحظة، فورق یرمی حیثًا اتفق ، وقشور ومصاصات قصب وروث سائم ونجو ذلك ، فإذا الشوارع بعد ساعة مزبلة عامة ؛ وبيتنا لميكن يعني بتربية اللوق أية عناية ، فليس فيه لوحة حيلة ولاصورة فنية ، ولا أثاث منسق حيل ، ولا زهرية ولا أزهار ، وكل ما أذكره من هذا القبيل أن أي كان يشتري في موسم النرجس بعضاً من أزهاره ويضعه في كوب من الماء علىالشباك ، ويشمه من حن لآخر ، ولست أدرى لماذا أعجب بالنرجس وحده موسمه قصىر، وليس أحمل الزهور ، ؟ ولماذا لم يُعجب بالورد والياسمين وهما أحمل وأرخص وموسمهما أطول ؟ وربما أن السبب في ميله إلى النرجس دون غيره ليس للوق ولا حب للجال ، ولكن أظن أنه قرأ حديثاً عدح النرجس بأنه عنع من العرسام ، والعرسام هو لوثة من الحنون ، فظل الحديث يعمل في نفسه ، ولذلك كان يشتريه .

ولكن ماذا تعمل هذه اللفتة القصيرة بجانب ما يضر نا من قميح ، فى الحارة والشارع والكتانيب وما فها من منظر الحصير ومنظر سيدنا ومنظر الزير والمواجر ؟ لقد كانت كل هذه تكفى لإمانة الشعور بكل حال ، والفعور بالحال أكدرنممة ، وتربية اللـوق خبر ما يقدم إلى الناشىء حى من ناحية تقويم أخلاقه .

على كل حال ، أحمد لأبى أن أخرجنى من هذه الكتانيب الكرجة ، وأدخلنى مدوسة ابتدائية من مدرسة وأم عباس ، أو كما تسمى أو كما تسمى المدرسة وأو كما تسمى اليوم مدرسة بثبا قادن . كانت مدرسة توذجية ، بنيت على أشغر طراز وأحملة : أبهاء فسيحة فرشت أرضها بالمرصر ، وحليت سقولها بالقوش للذهبة ، وفي أعلى المدرسة من الحارج إطار كتبت عليه آيات قرآنية كتها أشهر الحااطن بأحسن خطاء وموهت باللهب ؛ فكان هذا الحال الحديد عراء لذلك القبط القديد عراء لذلك الخيال الحديد عراء لذلك

وليست بدلة بدل الحلباب ، وليستُ طربوشاً بدل الطاقية وأحسست علواً فى قدرى ، ورفعة فى منزلتى ، وخالطت تلاميد من الطبقة الوسطى أو العليا لا نسبة بينهم فى نظافهم وحمال شكلهم وبين أبناء الكتاليب وأبناء الحارة .

كانت المدرسة يصرف علمها من أوقاف رصدتها علمها والدة عباس الأول ؛ فتلاميذها بالحان ، ولها بعض التقاليد الحاصة بها فيُسجعه بعض الثلاميذ مرتين فى السنة ، ويلهجون إلى قصر الوالدة لتوزع علهم بالمثان ، بذلة الشتاء وبذلك العميث ثم غرجون إلى الشارع علابسهم الجديدة إعلاناً لما تسدى الوافقة من خبر ، وفى المواسم يذهبون إلى ملغن الوافقة ، ويقرمون على روحها الفائحة ، وما تيسر من الدعوات، ثم يوزع عليم الفطر والحلوى . وشهبت فى هذه المدرسة ثلاثة تطورات للتعلم ، ولعلها

كانت هى تطورات التعليم فى مصر . فقد كانت المدرسة لتعليم القرآن وشىء من الحساب واللغة العربية والتركية ، ثم انكمش هذا اللوع من التعليم فأصبح فصلا واحداً بعد أن كان يعم المدرسة كلها وسسى قسم الحكاظ . وأششت بمانيه فصول على

الشربة كالما ومسمى قسم الحفاظ. والثاريخ والحساب مع اللغة النظط الحفيد، عمل فيها المخترافية والثاريخ والحساب مع اللغة الفرسية ، وقد محمد علما الفرسية ، وقد محمد المفاط وصهدت بالملارسة قبل خروجي ما منظراً جديداً ، فقد وأبيم فصولاً للمحمد الطالبة المساحف في اللغة الشرسية ليشتعوا بهم فصولاً لتعلم اللغة الإنجلزية ، ثم اكتسحت اللغة الإنجلزية الإنجلزية ،

اللغة الفرنسية . دخلت أولا قسم الحفاظ وبعد سنة تحولت إلى قسم اللغة القرنسية فى السنة الثانية .

وقد وضع لى أبي برناجاً مرهفاً لا أدرى كيف احتملته . ن به تنظ في الله حالم المدرى ثم أتر أحر ما من الله آن

كان يوقظنى فى الفجر فأصلى معه ، ثم أقرأ جزءاً من القرآن وأحفظ متناً من المتون الأزهرية كالفية ابن مالك فى النحو ، حى إذا طلعت الشمس أفطرت وليست ملابسى وذهبت إلى المدرسة أحضر دروسها إلى الظهر . وفي فسحة الظهر أتغدى في المدرسة على عجل وأذهب إلى كتاب بمسجد شيخونقريب من المدرسة . وقد اتفق أبي مع فقيه الكتابأن يسمع مني جزءًا من القرآن حيى إذا ما أتمته سمعت جرس المدرسة فذهبت إلى الفصل . ثم أحضر حصص المدرسةبعد الظهر ، فإذا دق الحرس النهائى خرجت إلى البيت وخلعت ملابسي المدرسية ولبست جلباباً وذهبت إلى المسجد الذي أبي إمامه(١) فكثت معه من قبيل المغرب حتى يصلى العشاء أستمع لدرسه الذي يلقيه في المسجد بين المغرب والعشاء ، ثم أعود معه إلى البيت ، وفى أثناء الطريق محفظني بيتاً من الشعر أو بيتين ثم يسألني إعرابه فأعربه ، ويصحح لى خطئي ، كل ذلك ونحن سائران في الطريق ، ثم أتعشى وأنام .

وإذا كان على واجب من المدرسة أتممته على عجل قبل أن أذهب إلى ألى فى المسجد ، وليس لى من الراحة إلا عصريوم الحميس ويوم الحممة . على أنى كثيراً ما أحرم أيضاً من صبح يوم الحممة لعمل واجبى المدرسى ، أو القراءة مع أفي . وهو برنامج غريب متناقض الاتجاه ، سبيه أن ألى كان

أو يوجهني الوجهة المدنية فيطمى في المدوسة الابتدائية والنانوية وكنت أدرك حبرته من كرة استشارته لمن يتوسم فيه حسن الرأى ، وهم لا يتقلونه من حبرته ، فنهم من يشير مها ، ومنهم من يشير بذاك ، فأسسك العصا من وسطها ، فكان يُعد في للأزهر عفظ القرآن والمتون ، ويعد في المدارس المدنية يدراسى في المدرسة ، وهذا أسوأ حل ، ولكن جزاهانة خبراً على تعبه المفنى في التفكير في مستقبلي ، وغفر الله له ما أرهفي يه في دراسي .

كان هذا الفهنط الشديد مثاراً النورق أحياناً ، فر ماكنت أهرب من فقيه المكتب ظهراً ، أو من الدهاب إلى أبى عصراً ، أو أدعى المرض وليس بى مرض ، ولكن إذا اكتلف هذا كان جؤاء الفرب الشديد . فتخدد ثورق ، ولقد جربت أمي حظها ، فكانت تتدخل فى الأمر حين يضربي ، ولكنها أمي حظها ، فكانت تتدخل فى الأمر حين يضربي ، ولكنها فقد يتحولان إليها ، فكان إذا حدث هذا فيا بعد اكتفت بالصراخ والعويل من بعيد .

استمررت فى هذه المدرسة ، وكنت متفوقاً فى اللغة العربية يفضل ما آخذه من الدروس على والدى ، وفوق المتوسط فى الحساب ، وضعيفاً فى اللغة القرنسية ، لأن أبى لم يترك لى الزمن الكافى لمذاكرتها . تعلمت من المدرسة دروسها ، وتعلمت من التجارب أكثر من دروسها ، فلعبي مع التلاميذ ، ومبادلتي إياهم العواطف، وروَّبَى إياهم يتصرفون في الأمور تصرفاً غَتلفاً حسب مزاجهم وعقليتهم ، يغضبون أو محلمون ، ويثورون أو مهدمون ، ويظلمون أو يعدلون ــ كل هذه كانت دروساً في الحياة أكبر من دروس العلم ، بل المدرسون أتفسهم كانوا معرضاً لطيفاً ، فيه الحال والقبح ، والرعونة والسكينة ، وما شئت من ألوان الحياة ــكان مدرس اللغة الفرنسية بطيء الحركة ، ثقيل اللسان ، معوجه ، جاحظ العينين أحمرهما من أثر الخار ، لا يكترث لدرسه ، ولا لتلاميذه ، سواء عنده ذاكروا أو لم يذاكروا ، تقدموا أو لم يتقدموا . ومدرس الحساب كفء في مادته ، مهتم بطلبته ، يبذل أقصى جهده في درسه ، ولكنه غريب الأطوار ، سيج أحياناً ويشتد غضبه فيضرب ، وقد يشتد ضربه فيكسر أُو بجرح ، ويكون في منتهى اللطف والظرف أحياناً ، فيستغرقُ في الضحك لأتفه سبب ، وقد محدثنا عن دخائل بيته ، وأسرار نفسه مما لم تجر العادة بذكره . ومدرس اللغة العربية من الصنف الذي نسميه ه ابن بلد ۽ بحوّل کل شيء إلى نکتة ، ونکتة رائعة حميلة مؤدبة ، لا يؤذى ، ولا يضرب ، ولكته ينتتم أحياناً من التلميذ بالسخرية والنكتة اللاذعة ؛ ومدرس الدين رجل

سوری ، یلبس لباس الشامین ، جبة وقباء ، وطربوش تركى ، معمم عمة سورية ، طويل عريض بدين ، ثقيل الروح ، يستثقله المدرسون والطلبة على السواء ، وبعض المدرسين محرضوننا على معاكسته ، فكنا نبذل جهدنا في حصته لاستخراج أفانين العبث به . ونفرح لدرسه لأنه مثار السخرية والضحك . ومدرس الحط رجّل تركى ، حميل الوجه ، بهيج الطلعة ، له لحية بيضاء ، تستخرج من ناظرها الإكبار والإجلال ، يلبس اللباس التركي الشرق ، ويتكلم العربية بلهجة تركية ، هادئ الطبع ، بطيء الحركة خافت ٰ الصوت لا يضرب ولا يؤذى ولا يسب ، وهو مع ذلك محترم ، لا تسمع في حصته صوتاً . وناظر المبرسة رجل طيب ولكن لا يَفقه شيئاً من أساليب التربية ، ضبط مرة تلميذاً يسرق كراساً فأخذه وعلق في رقبته لوحة من الورق المقوى ، كتب علما مخط الثلث الكبر و هذا لص ، حتى إذا وقف الطلبة في وطابور، العصر أمسكَّه الناظر بيده ، ومر به على التلاميذ ليوَّدبه والحق أنه لم يوَّدبه ولكن قتله ، فلم أر هذا التلميذ يعود إلى المدرسة بعد . وأغلب الظن أنه انقطع عن المدارس بتاتاً .

وهكذا كانت المدرسة بتلاميذها ومدرسها وناظرها تمثل رواية مملوءة بالحياة والحركة والمناظر تكون أحياناً مأساة ء وأحياناً ملهاة . كنت فى هذه السن متديناً شديد التدين ، وكان بالمدرمة مسجد صغير أعد إعداداً حسناً ، فكنت أصلى فيه الصلوات لأوقائها . وكنت أقوم الليل وأسجد وأحب الله وأشخاه ، وتتحدر الدعوم من عينى أحياتاً فى ابهالانى ، وأسجد فأطيل السجيد والدعاء ، وأحفظ أدعية من الإبهالات والتوسلات، ومن شدة فكرى فى الله رأيته فى منامى مرة ، على شكل نور يغمر المرفة وغاطبى قائلا : اطلب ما أداك به على قدرتى فطابت أن يعمل من قطعة حديد سكيناً ، ومن قطعة خشب شباكاً ، قطعل . فأمت بقدرته وحكيت النام الأهل ، فقرحوا به فرحاً عظها ، وزادوا فى عينى .

واستمررت في دراستى في المدرسة ، فانقلت من السنة الثانية إلى الثانية ، وأبي لا بها أمن الثانية إلى الثانية ، وأبي لا بها أمن الشكر أيتركني آكل دراستى ، أم غرجنى من الملوسة وينخلني الأزهر ، ويسألني فأجبيه : وأحب أن أبني في الملوسة ، ويسأل من يعرفه من موظني المحكومة فيوصونه بيقائي في الملوسة ، ويسأل من يعرفه من مشايخ الأزهر ، ويتردد ويتردد ، ثم يستخبر الله وغرجني من الملوسة إلى الأزهر .

(9

ها أنا ذا في سن الرابعة عشرة تقريباً ، يلبسني أبي القباء

والحبة والعمة والمركوب بدل البذلة والطربوش والحزمة ، ویکون منظری غریباً علی من رآنی فی الحارة أو الشارع ، فقد عهدوا أن العامةلا بلبسها إلا الشاب الكبر أو الشيخ الوقور ، أما الصغير مثلي فإنما يلبس طربوشاً أو طاقية ، وللبلك كانوا كثيراً ما يتضاحكون على إذا رأونى بالعمة ، وكثيراً ما أرى الْأُولاد في الشارع يتغامزون على فأحس ضيقاً أو خبجلا أو أتلمس الحارات الخالية من الناس لأمرّ بها : والمصيبة الكبرى كانت حين يراني من كان معي في المدرسة ، فقد كان يظن أنى مسخت مسخاً ، وتبديت بعد الحضارة ، وكأن الذي يربط بيني وبينهم هو وحدة لبسي ولبسهم ، لا طفولتي وطفولتهم ، ولا زمالتي وزمالتهم ، فنفروا مي مع حنيني إلىهم ، وسرعان ما انقطعت الصلة بيني وبينهم ، فانقبض صدرى لأنى فقدت أصاقائى القدامى ولم أستعض عهم أصدقاء جدداً ، فكنت كالفرع قطع من شجرته أو الشاة عزلت عن قطيعها ، أو الغريب في بلد غبر بلدته . وتضرعت إلى أني أن يعيدنى إلى مدرستى فلم يسمع ، وأن يعفى منالعمة فلم يُقبل ، ومما آلمنيأني أحسست العامة تقيدني فلا أستطيع أَنْ أُجرى كما بجرى الأطفال ولا أمرح كما بمرحالفتيان ، فشخت قبل الأُوان ، والطفل إذا تشايخ كالشيخ إذا تصابى . كلا المنظرين ثقيل بغيض ، كمن يضحك فى مأتم أو يبكى فی عرس . ولم يكن أمامى إلا أن أحسل على مضض .

هذا أبي يأخذنى معه صباح يوم فأسير فى شوارع لا عهدلى سها ، وأمشى فأطيل المشى ، لاكما كان العهد يوم كنت فى المدرسة ، إذ كانت بالقرب من بيتنا . وأخبراً أصل إلى يناء كبىر ، فيقول لى أبى هذا هو الأزهر ، ولا أدرى كيف كان وقع هذه الكلمة على نفسى ، فالأزهر شيء غامض لا أعلم كنهه ولا نظامه ولا منهجه ولا مستقبله ؛ أقدم عليه في هبية وغموض ، وأسمع عند البابصوتاً غريباً ، دوياً كلوى النحل يضرب السمع ولا تستوضح له لفظاً ، فتأخذنى الرهبة مما أسمع ، وأرىأنى مخلع نعليه عند البابويطومهما وبمسكهما بيده فأعمل مثل عمله ، وأسر بجانبه قليلا في ممشى قصىر ، أدخل منه على إيوان كبير ، لا ترى العين آخره ، فرش كله بالحصر وامتلت أعملته صفوفاً ، كل عمود وضع مجانبه كرسي عال مجنَّح قد شدًّ إلى العمود بسلسلة من حديد ، وجلس علی کل کرسی شیخ معمم کأنی ، بیده ملازم صفراء من كتاب ، وأمامه حلقة مفرغة أحياناً وغير مفرغة أحياناً ، يلبس أكثر هم قباء أبيض أو جلباباً أبيض عُليه عباءة سوداء ، وأمامه أو مجانبه مركوبة ، وعسك بيده ملزمة من كتاب كما يمسك الشبيخ ، والشيخ يقرأ أو يفسر والطلبة ينصنون

أو مجادلون ، وبن العمود والعمود بعض الطلبة مجتمعون فيأكلون أو يداكرون . تخطيت هذه الحموع في غرابة ، ونظرت إليها في دهشة ، وأحياناً أرى في بعضّ الأركان كُنّاً بأككتابى القدَّم ، فأفهم أن الأزهر امتداد للكُتَّاب لاامتداد للمدوسة ، ثم نخرج من هذا الإيوان إلى فناء الأزهر أو صحنه كما يسمونه ، فأراه سياوياً غبر مسقوف ، ومبلطآ غير مفروش ، وهنا وهناك فرشت ملاءة بيضاءأو عباءة سوداءصفف علمها خنز ريني وعرض في الشمس ليجف ، وسألت ألى فقال إنه بعض زاد المجاورين أحضروه معهم من ريفهم أو أرسله إليهم آباؤهم ، فهم يشمسونه ثم مختزنونه في بيوتهم . هذا هو كل الأزهر كما رأيته لأول مرة .

وفهت من هذا أني سأكون أحد هولاء المتحلقين ، وسلم الى هذا الشيخ كا يسمون ، وأسمع إلى هذا الشيخ كا يسمون ، وآكان كا يأكون ، وقارت بن حصر الأزهر ومقاعد المدرسة ، ومدرس الخزو وفقاء المدرسة ، وفقاء الأزهر حيث يشمس الحمز وفقاء المدرسة حيث نلعب وتمرح ، فكانت مقارنة حزية وأتحلت إلى رواق من أروقة الأزهر ، وتقامنا ليل شيخ أشد منا طلب المارت في واستحنى في القرآن فأحسنت الإجابة نقيد في طاياً ،

وخرجنا من باب آخر علمت بعد أنه يسمى 3 باب الزينن، كما أن الباب الذي دخلت منه يسمى باب الصعايدة ،وسمى ياب المزينين لأن على رأسه حوانيت حلاقين لمحاورى الأزهر وشيوخهم ، ورأيت على هذا الباب طائفة من الطلبة ــ من مثل الذين رأيتهم يتحلقون حول الشيخ - وعلى يدهم أرغفة من الحيز يعرضونها للبيع ، فسألت أبي عن هذا . فقال : إن

طلبة الأزهر إذا تقلموا في العلم أعطى لكل طالب أرغفة ثلاثة أو أربعة أو أكثر كل يوم ، وقد يزيد هذا عنحاجتهم فيبيعونه كله أو بعضه ليشتروا بما حصلوا من النمن إداماً لهم ، وكل عالم من علماء الأزهر له كل يوم عشرة أرغفة أو أكثر ، وإذا تقدمنْتَ فىالعلم كان لك مثل هذا ، ولكتك لاتبيعه ولا تقف

وعلت إلى بيبي والهم بملأ قلبي ، ولكن الزمن بلسم الهموم ، فقد أخذ يقطع صلتى بالمدرسة وبأصدقائى فها ، وينسيني ذكرياتي الماضية ، ويشغل قلبي بالحياة الحاضرة ، ويولف بيني وبين البيئة الحديدة .

مثل هذا الموقف إن شاء الله .

يعد أن يقيد الطالب في دفتر الأزهر يترك وشأنه ، فهو بختار العلوم التي يدرسها ، والكتب التي يقرومها ،والمدرسين اَلَذِينَ يَنْوَسُومُهَا ، فَإِذَا لَمْ يُرْزَقَ بَمُرَشَّدَ يُرَشِّدُهُ غَرْقَ فَ هَذَا البحر الذي لا صاحل له ، وليس يعرف أحد أغاب أم حضر م۲ (حیاتی)

تقدم في العلم أم تأخر ، وليس يُستحن آخر العام فيا درس، ولا يسأله أحد ماذا صنع ، فإن احتاج الطالب في شأن من الشين أن يأخذ شهادة بأنه حضر الكتب القلائية على المشايخ يشاء وبالكتب اللي يشاء ، ثم يمر عليم فيوقعون عليها في سهولة ويسر ، ولو كانت هله أول نظرة من الملدسين في سهولة ويسر ، ولو كانت هله أول نظرة من الملدسين للطالب ، ولو كانت سنة لا تنفق وهذه الكتب العريصة التي يستخرج الشهادة بسياحها ، فأى ضرر في ذلك وبارك الله فيمن نفع ا

وضع لى أبي برنامجاً أن أحضر درساً في الفقه الحنفي صباحاً و إنما اختار فقه الحنفية لأنه هو الفقه الذي يُعد القضاء ، إذ يشترط فى القاضى الشرعى أن يكون على مذهب الإمام أبى حنيفة ـــ وأن أجرَّد القرآن على شيخ ضحَّى ، وأن أحضر . درساً في النحو ظهراً ، وأن أحضر درساً في العلوم التي كانت تسمى العلوم العصرية ــ وهي الحغرافيا والحساب ــ عصراً ، وبنا ينتمي اليوم ، ولم تكنّ أوقات الدروس كما عهدها في المدرسة توقت بساعات الهار ، إنما توقت بالصلوات فدرس النحو عقب صلاة الظهر ، ودرس الحغرافيا والحساب عقب صلاة العصر ، ودرس التفسر والحديث عقب صلاة الفجر ، ودرس الفقه عند طلوع الشمس ؛ وهناك دروس

إضافية كالتى كان يلقيها الشيخ محمد عبده فى البلاغة أوالتغسىر عقب صلاة المغرب . على كل حال بدأت أسر على هذا المهج ، أصحو عند أذان الفجر مهماكان الشتاء قارماً ، وأصلى مع أنى ، وألبس ملابسي ، وأخرج من بيني في الظلام.، وَالدُّنِيا نَائُمَة وَالْأُصُواتِ هَادَئَة ، إِلَّا صُوتَ الدَّيْكُ يُؤُّذُن ، أو صوت الكلب ينبح ، وأسر طويلا من بيني إلى الأزهر ، فلم يكن ترام ولا سيارات عامة ، ولوكانت ما أسعفتني في هذا الوقت المبكر ، والمسافة بين بيتنا والأزهر نحو نصف ساعة على الأقل ، وأحسن ماكان فىالطريق باعة الفطور ، فإن كان اليوم فقراً اكتفيت بطبق من و البليلة ، مجلس باتعها على قارعة الطريق وأمامه طست كبير ملي بالذرة المغلية الناضجة ،ووضع على نار هادئة حتى يبني ساخناً، ومجانبه ماعون كبير ملى سكراً ناعماً ، أشترى منه بربع قرش فيملأ لى طبقاً من الطست ويرش عليه من السكر، فَآكلهُ وأنا واقف وأمسح في بالمنديلوأحمدالله وأستمر فى السير ، وإن كاناليومغنياًعطفت على ذكان الفطير فأطلب من الباثم فطيراً يقرش، فيقطع قطعة من العجين مكورة، ويدحورها في لمح البصر، ويضعها في صمن ويأخلبيده قليلامن السمن يرشه علماء ويُدخل الصحن فىالقرن،وبعد دقيقتنأو ثلاث يخرجها ناضجة ناضرة ويضع عليها السكر ءوتقدم إلى ۖ على مائدة متو اضعة لا بالنظيفة و لا بالقذرة ، فأ كلها في للمَّوجم ،

فإذا فرغت شهاتقلمت إلى الأمام عطوة أوخطوتين داخل الدكان فأرى مقطقاً صغيراً ملع" بالنخالة ، فأفرك يدى جا وآخذ مها مأدهك في وأحمد الله أكثر مما حدثته على البليلة . وين كافيرها وسطاً لابالغني ولابالنقير حطفت على رجل بالقرب من الآذري ، أييض الرجه في حرة ، ضغيم الحسم يلبس جلباً أزرق ، وعلى رأسه عمة حراء وأمامه تقصيال مستدير ، عليه صينية كيرة من البسرسة ، قد أفرغ من وصطها مربع ثم مل" ممناً ، فأصطبه نصف قرش ويعليني مربعاً من البسوسة بعد أن يقطر خليه شيئاً من السمن ، ويؤاذا أراد أن يكرشي اختفار لى تطله في وصطها لوزة مقشورة .

وأصل للى مسجد بالقرب من الأزهر قبل طلوع الشمس، أنتظر الشيخ حتى عضر ، وكانت المساجد حول الأزهر تلتى فها الدروس كالأزهر ، وتمتارها العالم الذين بحبون الهدوء والاستقلال

جاه الشيخ وجلس على كرسيه وجلسنا أمامه ، وكانشيخاً وقوراً أنيقاً فى ملبسه ، يشع الصلاح من وجهه ، حميل الوجه ذا لحية سوداء ، وكان قاضياً شرعياً ، اسمه الشيخ صلاح ، وبدأ يقرأ ألدرس بعد أن يسمل وحملل ودعا بقوله : واللهم لاسهل الإماجعاته سهلا ، وأنسارذا شقت جملت الصعب سهلا ، وكان الكتاب الذى فى يده وفى يدنا شرح العالمان على

الكنز ، وموضوع الدرس الوضوء - قرأ المن والشرحفهمهما ولكنه سبح بعد ذلك فى تعليقات واعتراضات على العبارة وإجابات علىالاعتراضات لم أقهم منها شيئاً .وبعد أنأحضرت كل ذهني ووجهت إليه كل الثباهي لم أفهم أيضاً ، فشر دذهني وأخلت أفكر وأستعيد في ذكرى المدرسة التي كنت فها ودروسي الي كنت أفهمها وأتفوق فها ، وأصدقائي اللينكنت أزاملهم فى القصل ، وهولاء الطلبة الذين أماى وليس لى مهم صلة ، وأسبح وأسبح في الخيال ، ثم يعود ذهني إلى ما يلقيه الشيخ ، فأجده في نفس الحملة وفي نفس الاعتراضات والإجابات ، ويسأل بعض الطُّلبة أسئلة فلا أفهم ما يسألون ، وبجيب الشيخ فلا أفهم مامجيب. واستمر الحال على هذاالمنوال ساعتين أو أكثر من غير أن ينتقل الشيخ من هذه الحملة ، وسررت عندما قال الشيخ ۽ والله أعلم ۽ ايداناً بأن الدرس قد انتهى ، وقمت وقام الطلبة محتاطون بالشيخ ، ويقبلون يدهفلم أسلم ولم أقبل ، وخرجت من هذا المسجد إلى الأزهر نفسه، وقد اعتاد الطلبة بعد درس الفقه أن يفطروا ، وينقلبإذ ذاك إيوان الأزهر وصمنه وأروقته إلى موائد منتثرة ، حلقت حيلها حلقات من ثلاثة طلبة أو أكثر ، وعمادهم في فطورهم الفول المدمس أو النابت والطعمية والسلطة، يضعونها كلها على حصير الأزهرِ ، ويتهافتون على أكلها ، فإذا فرغوا تركو ا بقايا

وكنت في كثير من الأوقات أفضل أن أفطر بقطعة من الحين وقطعة من الحلاوة الطحينية ــ ثم أذهب إلى حائط منحوائط الأزهر أجد مجانبه شيخاً طويلا ضعيف النظر مصفر الوجه ذا لحية بيضاء ، اتفق ألى معه على أن يقرثني القرآن مجوداً ، فأقرأ ما تيسر من القرآن على ترتبيه فى المصحف وهو ينتقد ما أقرأ وينهني إلى محارج الحروف ، ومقياس الغنة والمدة ، ويأمرنى بإعادة ما قرأت ، وفي كل مرة يصلح لي أخطائي حتى يستقيم لسانى حسب أصول القراءة ، ولا أكاد أنهي من قراءة جزء صغير من القرآن حيى يعرق جبيني من شاة ما ألاقى ، وحولى طلبة ينتظرون دورهم ، منهم من يقرأ بالسبع ومنهم من يقرأ بالأربع عشرة . ثم أنفلت من هذاالشيخ لأعد درس النحو وكانت العادة في الأزهر أن يعد الطالب درسه قبل أن يلتى أستاذه، فيقرؤه فىالكتاب ويتفهمه ويعرف ما فهم ومائم يفهم وما وضح وما غمض ليتحرى موضع الغموض حن يفسر الأستاذ ، وأصلى الظهر ، وأذهبإلى مكاتى من درس التحو ، وكان موقئي في درس التحو أسوأ من موقعي في درس الفقه ، مع أن درس الفقه جديد على ودرس النحو ليس مجديد ، فقد درسته في المدرسة ودرسته مع أبى ، ولكن الشيخ كان متلخةًا كثير الكلام طلق اللسان

أكلهم من فتاتأو ورق ، حتى يأتى عدمة المسجد فيكنسوها،

كثير الاعتراضات كثير الإجابات ؛ فلم أفهم مما قال شيئاً وكَان رحمه الله شيخًا غريبًا ، طلق اللسان ، كثير الاستطراد، كثير الفخر ينفسه . فساعته التي يضعها في جبيه ، لم يصنع منها إلا ساعتان إحداهما التي في جيبه ، والآخرى مع إمر اطور أَلَمَانِيا ، وفي بيته آلاف من الكتب ، بعضها مجلد بالألماس. وله ساعات طويلة يقضها سرآ مع الخديوى عباس يتحدثان فيها عن أهم شؤون الدولة . وهكذا . ومع ذلك كان خفيف الروح حسن الحديث. ومع أنه طلق العبارة متدفق الكلام، فقد يقول كلاماً مزخرف الظاهر ، فقىر الباطن ، وخلص الدرس فاسترحت من هذا العناء قليلا ، وذهبت بعد ذلك إلى مسجد المؤيد ، حيث تلتي دروس الحغرافيا والحساب . ففهمت ما يقولون وشاركت في الأسئلة ، وفهمت الأجوبة، إذ كان مدرسو هذه المواد العصرية منتدبين من المدارس

وزاد الأمر سوماً أن ليس بينى وبين الطلبة صلة ، ولابينى وبين الأساتلة رابطة ، ولا أثلق منهم سوالا إن كنت فهمت أولم أقهم ، ولا أكلف واجباً أعمله فى بينى. وكان هلما يوماً نموذجهاً جرت الأيام بعده على نمطه ، لم أتقدم فى الفهم ولم أسقعغ الأصلوب . وفكرت طويلا فى عودتى إلى المدرسة فلم أستعلع ، وفى طريقة الهرب فلم أوفق 4 ولاحت مني مرة نظرة إلى فتين أنيقين في مثل سني ، يابسان ملابس أنيقة ، وتدل مظاهرهما وأناقتهما على النعمة ،فعملت الحيلة للتعرف سهما ، فإذا هما فتيان قاهريان من أبناء العلماء كأنى ، ولكنهما مدللان في بيوتهما ، وفي معاملة أبوتهما لها ، وكنت أتلهف على صداقة فصادةهما ، وأشتاق إلى ملء زمني فلازميما ، وعلمت أثناء حديثهما أن لكل منهما خزانته ، وهي جزء من دولاب في رواق من أروقة الأزهر ، يضم كل منهما فها فروة نظيفة بجلس عليها فى الدرس حيى لا تتسخ ثيابه ، ﴿ وَمَزًّا ﴾ أصفر يلبسه في رجليه إذا سار في الأزهر حتى محافظ على نظافة جوربه ، ففعلت فعلهما وتأنقت تأنقهماً ، ولكن كان ذلك من وراء أبى لأنه لاعب الأناقة ولا البرجة ، بل ضربي مرة لأنى تأنقت في الحزام الذي أشد به وسطى وتركت له ذيلا ، كما يفعل المتأنقون ووضعت ساعة في جيبي عن يميني . وكان أثناء ضربه لي يقول : هل أتت ابن السيوق و والسيوق هذا كان غنياً مشهوراً ، وكان شاهبندر التجار ، فتركت من يومها أناقي ، ولم أعد أريه أنى ابن السيوفي .

ورأينهما يشكوان نما أشكو فلا يفهمان كما أنى لا أفهم ولا يستفيدان كما أنى لا أستفيد ، واقترح أحدهما أن 'بهرب من بعض الدوس ، ونلتمس مكاناً فى الأزهر بعيداً بعض إلهي ء عن الأنظار ، نلعب فيه القرار ، فليمنا الدعوة ، إذكان في هذا اللعب مسلاة عن ثقل الدوس ، وراحة من عناه الشيخ والكتاب ، فكنا نصرف الساعات تقامر ، وأخسر أخياناً فأبيع بعض ما معى من متاح ، وأنى لا يعلم شيئاً من ذلك ، وأساتلنق لا يعلمون من أنا حتى يعلموا إن كنت حضرت أو غبت ، وأذهب إلى بيتى مدعياً أنى قضيت الوقت كله في غبت ، وأذهب إلى بيتى مدعياً أنى قضيت الوقت كله في أن هذه الحال تؤدى إلى سوء إلمال ، فتركت صحبتهما والتفت إلى دوميى .

(•)

رزقت صحبة طالب آخر فى الأوهر من ٩شينالكوم ، ولا أذكر كيف تعرفت به ، وكان يكعرنى نحسس سنن أو ست . وكان رحمه اقد بديناً مستدير الوجه طيب اقلب مرحاً فى أدب ، تزوج وترك زوجه وابته فى بلده وحضر لمل الأزهر يطلب العلم ، وخلف أهله لأبيه ينفق علمهم كما ينفق عليه ، مع قلة دخله وضعف حاله .

كان هذا الطالب قد مر بالمرحلة الأولى الشاقة التي أمر مها ومرن على الطريقة الأزهرية ولفلقها وفيقها . وكان مستنبر اللحن لم يعبأ بما يقوله شيوخ الأزهر في من اسم صاحبي وهو الراء ، فجاء الشيخ بعد أن استلم الخطاب وقال : جافق خطاب من شيخ الله و مرّ ، أو مر ولم يفهم ، ثم أخد يشرح ما غمض طينا في أدب ووضوح . وكان دائماً يلخص لنا ماورد إليه من خطابات هامة .وأذكر أنه أناه خطاب مهدد بالقابل لأنه كافر ملحد ، وبعد أن قص علينا القصة قال : واغنيت أن يكون جلا صحيحاً فيوم يشجع المصرى ويقتلني ، أكون فخوراً ، ، ثم أنشد قول القاتل :

إلى أنه كان من حين إلى حين يستطرد فى شرح حال المسلمين واعوجاجهم وطريقة علاجهم .

كنا نجلس قبل الدوس نحضرها فيوضع لى صاحبي يعض ما غمض من الرموز والعبارات ، فأستطيع أن أتابع الشيوخ فيا يقولون إلى حدما .

ومرة جاء صاحي هذا وفي يده جريدة و المؤيد، وأطلعي على إحلان عاجة و الحديثة الحيرية الإسلامية » إلى مدرسن للغة العربية عدارسها ، وكيفية تقدم الطلبات وموحد الامتحان ، وأن من وقع عليه الاحتيار عين مدرساً الشيخ عمد عبده من رمى بالزندة والإلحاد ، فكان عضر دومه فى تفسير القرآن ويسمع منه كتاب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وكثيراً ما ألح طل أن أحضر دورسالدين معه قالى ، استصفاراً لفقل مع طلم دورس ، وإذ كانت يضطرنى أن أبي فى الأزمر إلى ما بعد المشاء ،إذ كانت دروس الشيخ تبتدى. بعد صلاة المغرب وتستعر إلى أذات المشاء ، وأخيراً تقلب عل "وشوقى إلى دومه عاكان بقل الهشاء ، وأخيراً من المناراً جايلا ، وفهمت منه ما لم أفهم من شيوشى الأرهرين ، وندمت على ما فانى من التلمذة عليه ،

واعترمت أن أتابع دروسه ، ولكن كان هذان الدرسان هما آخر دروسه رحمه الله .
وكانت دروسه مملوءة بالفكاهات الظريفة . فرة مثلا وكانت دروسه مملوءة بالفكاهات الظريفة . فرة مثلا دخلت في الدرس فتاة صغيرة تريد أن تسرّ إلى أبيا كلاما فقال الشيخ : إن هذه هي المرأة الحديدة . إذ كان قامم أمين ، ألف كتاباً ساه و المرأة الحديدة ، ومرة حضرت درسالشيخ ولم أفهم بعض العبارات ، وسألت صاحبي عبا ظلم يفهمنها واعترنا أن تحفي الحطاب عرف من اسمى وهو اللم وحرف واعترنا أن تحفي الحطاب عرف من اسمى وهو اللم وحرف فى إحدى مدارس الحمعية بثلاثة جنهات فىالشهر ـــ وأغرانى يتقديم الطلب فتقدمت ومحضور الامتحان فامتحنت .

وكانت لحنة الامتحان مؤلفة من ثلاثة من كبار رجال التعليم في وزارة المعارف .

نودى على اسمى فتقدت مضطرباً متخوفاً ، وكان هذا أول امتحان من هذا القبيل شهدته ، فأعطى لى كتاب وأدب الدنيا والدين ، فتحت منه صفحة حيثًا اتفق فقرات فها وهم يسألونني : لم رفعت هذه ونصيت هذه وجرّت هذه ... ثم طلب إلى "أن أقف أمام السيورة ، وكان اسمها في أيامنا والتخذة ، وأملى على هذا البيت :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالأخبسار من لم تُرَود وطلب إلى أن أفسره ففسرته ، وأعطأت في تفسير تُرَود فقلت إن معناه وتعطى الكثيره ، ثم طلب إلى أن أعربه فأعربته ، وأن أخاطب بالبيت مفرداً ومثنى وحماً ، مذكراً ومؤتناً ففصلت ، وبلك انتى الامتحان ، ثم أعلنت الثيبة فكنت الثالث ، وهم عتاجون إلى أربعة ، ودعينا غين الأربعة لما بلة الرئيس المشرف على التعلم في الحمية الخيرية الإسلامية وهو حسن باشا عاصم ، وطعت فيا بعد أنه ربيل من عظاء

مصر اشهر بمتانة الحلق والحزم والتشدد في الحق والنزامالعدل مهما كانت الظروف ، كان رئيساً للقلم العرفي في السراى أيام الحديو عباس فأراد الحديو أن يستبدل أطيانا عملكها بأطيان للوقف ، فوقف هو والشيخ محمد عبده في ذلك ، إذكانا عضوين في مجلس الأوقاف الأعلى ، وقالا إن في هذا الاستبدال غبنا على الأوقاف ، فأخرجه الحديو من وظيفته ، فتبرع حسن باشا عاصم بالإشراف على التعليم في الحمعية الْحَسَّرَيَّة ، يقضى في ذلك أكثر أوقاته ، فعرق التعلم ويُشتَّرك فى وضع المناهج ويطبق العدل في شدة ، حتى لقد حدث مرة أن تمرع أحد أعيان المحلة الكبرى بأرض لبناء مدرسة الحمعية ونفقات بنائها ووقف علمها من أملاكه ، ثم أراد أن يدخل ابنه فى المدرسة ، وكانت سنه تزيد شهراً عن السن المقررة ، فأنى عاصم باشا قبوله قائلا : لقد تىرع هذا الرجل للجمعية فوجب شكره ، ولكته أراد بعد أن نخرق قوانينا فوجب صدًّه ؛ وأصر على إبائه على الرغم من إلحاح رجالات الحمعية مثل الشيخ محمد عبده وحسنَ باشا عبد الرازق في قبوله ، فلما ألحوا عليه قدم استقالته فاضطروا للنزول على أيه. وهكذا كان يسير على هذا النمط فيما يعهد إليه من أعمال ، وهو نمط من الناس غريب فىالشرق المماوء بالمحاملات وقبول الرجاء مهما خالف العدل وخالف القانون . وكان من حسن حظى أن رأيته بعد ذلك عضواً في مجلس إدارة مدرسة القضاء ، وعلمت أنه بشر العدل في المدرسة ، وعلمه يقية الأعضاء . وقد الأعضاء .

وقفنا فى قبة الغورى نتظره فطلع علينا رجل مهيب بملأ القلب أكثر مما بملأ العين ، له وجه أسمر وسحنة صمييّية أسيوطية وعينان نفاذتان ، وجسم صغير وواجهنا وأرسل إلينا نظرات فاحصة ، وسأل كلاً منا أسئلة فى المعلومات العامة ، ثم استبعد الرابع لقصره وقامته وأعلننا أن الأول

روسان من المستعد الرابع لقصره وقاءته وأطنتا أن الأول سيمن في مدوسة القاهرة ، والثاني في الإسكندرية والثالث اللدى هو أنا في طنطا . لم يكن أني يعلم شيئاً من ذلك فلم أخبرته تحمر واضطرب،

وماكان الأمر محتاج إلى حبرة واضطراب ، فالأمر مهل

ورفض الوظيفة واجب ، ولكن علوه أن مستقبل الطالب في الأزهر مظلم ، وأخيراً قبل سنها . لوسمع شاب اليوم وسنه سنة عشر عاماكسنى أنه سيسافر لمل سنغافورة أو طوكيو أو الملايا ما حل المم الذى حملت من

معنى من من من وقبير و الهربي ما شما الدى عمل من أم الدى عمل من ولا أميل سفرى لما طنطا ، فلم أركب القطار في عمرى . ولا وأيت الأهمرام ، ودنياى هي ما بين بيتى والأزهر.

و پیشت معامی و هو حیثیة و علمة و لحاف و سجادة حزمت متامی و هو حیثیة و عملة و لحاف و سجادة وملابسی و یعض کتی ، و و دعت آهلی و بکیت طویلا ثم سافرت ، ونزلت في محطة طنطا حائراً مرتبكاً لا أدري ماذا أصنع ، ولم أدر أن في الدنيا فنادق ينزل فها الغرباء . وبعد طول الشكر اهتديت إلى أن آخذ عربة وأضع فها مناعي وأقول السائق و إلى مدرسة الحمية الخبرية الإسلامية بطنطا » ــ ووقفت العربة على باب المدرسة ، فنزلت وتركت مناعي عند البواب ودخلت على الناظر فسلمت عليه وعرفته ينفسي ، ثم طلبت منه أن يعطيني حجرة خالية بالمدرسة لأنام فها حتى أجد مسكناً فاستبلهني وفعل .

ويطفر ذهني الآن ــ عندروايي هذا الحادث ـــ إلى ابني يوم كان في مثل سني هذه ، فأراه يرحل مع طلبة الحامة إلى أوروبا فنرور اليونان ورومانيا والمحما وبولونيا ، ويرى معالمها ويعرف الكثير من شئونها مع فرح واغتباط ، فأعجب لسرعة تطور الحيل الجديد في الزمن القمسر.

ثم عملت عن مسكن فى طنطا أسكنه فاهديت أخراً إلى غرفة فى بيستافى حى تبين لى بعد أنه لايرضى عنه الكرام ، وكنت إذا نزلت من الفرقة أخوض فى نساء بجلسن أمام البيت فى قسة وتبلل ، وحوت كيف آكل وكيف أشرب وكيف أثنى وتتى .

وذهبت إلى المدرسة وتسلمت جدول دروسي من الناظر، ودخل وأنا عنده ولى أمر تلميذ يطلب إلحاق ابته بالمدرسة ، فطلب الناظر مى أن أكتب له طلباً ، وناولى ورقة وقلماً فتحرت ماذا أكتب ، فلا عهد لى يشىء من ذلك ، وأخيراً توكلت على الله وبدأت أكتب فلأكتب أولا الدبياجة ، ولم أكن سمت الفرق بين عرتلو ورفعتلو وسمادتلو، وكنسأطن أنها كلبات مترادفات ، فاستخرت الله وقلت و سمادتلو افغدم ، ولا أدرى ماذاكتبت بعد ، وقلمها إلى الناظر فنظر إلى كلمة وسمادتلو، ودهش ، ثم نظر إلى وقال وسمادتلو ، سمادتلو ، وأنا لا أزال و أفغدى ، ولست يبك ولا باشا ، فخيات من نقمى وأحسبت من وقتلد أنه محترنى .

مدجلت من همي واحبب من وصد المحمود ...

سامت حالتي في بيني ، وسامت حالتي في مدرسي ،
وسامت حالتي في وحدتي ، فطلبت الثقل إلى القاهرة ولم بمض
على شهر ، فجاء الرد بأن الحديث ليس للمبا مانع إذا رضي
على مدرس بالحمية يظن أنه يرضي أنه بيادلتي ، فلحبت
على مدرس بالحمية يظن أنه يرضي أنه بيادلتي ، فلحبت
أتنازل له كل شهر عن نصف مرتبي فابتم والى فاستقلت
ورجعت إلى مكانى في الأزهر سالماً ، وكنانى فخراً أنى ركبت
القطار وشاهلت بلذة اسمها طنطا وعرفت الفرق بين عزائل
وسعادتلو.

لم أستسع أبداً طريقة الأرهر في الحواشي والتخارير وكثرة الاهتراضات والإجابات ، وإنماكانت فالنشقالكبرى من أزهر آخر أنشأه لى أني في غرفة من غرف بيتنا ، فني مساعات الأزهر _ وما أكثرها _كان أبي هو الملاس الأزهرى في هذه الفرقة وكنت الطالب الوحيد.

والحق أن أبي كان يمتاز على كثير من شيوخ الأزهر بأشياء كثيرة ــ كان وأضح العبارة قادراً على الإنهام من أخصر الطرق ، وكان يرى في الحواشي والتقارير مضيعة للوقت ، ولعله استفاد ذلك من تدريسه ببعض المدارس الأمرية واتصاله بأساتلها ؛ فقد درّس بعض الوقت في مدرسة بالقلعة تسمى و المدرسة الحُطّرية، ، وانتدب للتدريس لبعض الوجهاء مثل قاسم باشا ناظر الحهادية ، ودرس اللغة الغربية لسفىر أمريكا في مصر ، وهكذا ، مما أكسبه ذوقاً في التعليم وقدرة على التفهيم ، وله مزية أخرى وهى كثرة مطالعاته فى كتب الأدب والتاريخ واللغة ،واهمامه مجمعها ، ولم يكن ذلك معروفاً عندكثىر من الأزهريين .

فرتب لى دروساً فى النحو ، واخار كى من كتبه طبعات ليس عليها حواش حتى لاينشئت ذهى فيها – قرأ لى شرح الأجروسية للشيخ خالد ، ثم كتاب قطر الندى ، وكتاب شلور اللمب لابن هشام ، ثم شرح ابن عقيل على الألفية ، وكلها كتب تمتاز بوضوح العبارة وسهولة الأسلوب .فكنت أتقبل دروسه في هذه الكتب في لذة وشغف وتهم . وإلى جانب ذلك قرأ لى كتاب فقه اللغة للثعالي ، وشرح لى بع*ض* مقامات الحريرى في الأدب . وليست دراسة اللغة والأدب مما يعني به الأزهر ، ولكن عني جا أبي . ثم حبب إلى القراءة في مكتبته ، فكنت أقرأ في تاريخ ابن الأثير ، ووفيات الأعيان وفاكهة الخلفاء ، وكليلة ودمنة ونحو ذلك . وقرأ لى فى البلاغة شرح السعد على تلخيص المقتاح فلم أستسغه كثيراً ، وقرأ لى كتاباً في المنطق وكتاباً في التوحيد ، فكان هذا كله في الحقيقة أساس ثقافتي ، وترك لي دروس الفقه والحرافيا والحساب أحضرها في الأزهر .

نجمت في هذا نجاحاً كبراً ، وأحسس الفنوق على زملائي في الأزهر ، حتى طلب إلى بعضهم أن أقرأ لهم شرح ابن عقبل في مسجد المؤيد في بعضي أوقات الفراغ فقملت ، وصادقت بعضى الإخوان ممن لهم خوق أدني ، فكتا نجتم في أحد المساجد نحفظ غيارات من مقامات بديم الرمانورسائله ، وأمال القال ، وأمال الميداني . ودلتا أحدهم على كتاب ظهر الشيخ إراهم اليازجي اسمه ونجمة الرائد ، يذكر فيه أحسن ما قالته العرب في الموضوع الراحد ، فأحسن ما قبل في الشجاعة والحن ، والكرم والبخل ، والحلم والغضب الخ . فاشريناه وأخذنا أنفسنا بالحفظ منه . وظللت مع ذلك غير مرتاح لبقائى فى الأزهر ، ورأيت بعض زملائى يقدمون طلباً للدخول في مدرسة دار العلوم ، فقدمت مثلهم ، ورأيت الأمر سهلا على ؛ فهم متحنون في حفظ القرآن وأنا أحفظه ، ومتحنون في حفظ الألفية وفهمها وأنا أحفظها وأقهمها . وحلمت إذ ذاك بمدرسةنظامية واضحة الحدود واضحة المعلم ،مفهومة الغاية ، يدخل فها الطالب فيقضى أربع سنوات يتعلم فها على خبر الأساتذة ، ثم غرج مدرساً في المدارس الأمعرية . ولكن قبل الامتحان لابد من الكشف الطبي وأنا قصر النظر ، هذه هي العقدة . ذهبت إلى أكبر طبيب إنجلنزى فكشف على عيني ، وكتب لى أضخم نظارة قانونية تناسب نظرى ، ومع ذلك تقدمت للامتحان فسقطت ، وحز فى نفسى أن أرى زملائي ينجحون ولا أنجح ، ويدخلون المدرسة ولا أدخل ، ثم عدت إلى الأزهر.

(11)

عاد الشيطان فوسوس إلى ثانية ، فقد اطلعت فى إحدى الحراك على إعلان من وزارة المعارف تطلب فيه مدرسين الغة العربية ، يدرسون فى مدارسها بأربعة جنهات شهرياً ، فتقدمت للامتحان ، وامتحنت تحريرياً وشفوياً وتجحت ...

فى الثامنة عشرة من عمرى ، وتعودت ركوب القطار بذهابى إلى طنطا ، ومع ذلك لذعني السفر ، وصرف أبي مجهوداً جباراً في تعييني في مصر بدل الإسكندرية فلم يوفق فسافرت ورأيت البحر لأول مرة فسحرنى وصِرتُ آنس به ، وأجلس إليه ، وأتأمل في أمواجه ، فأنسى لوعة غربتي ، وحببت إلى القراءة في المكان الحالي على شاطئه . هناك قرأت بعض كتب الغزالى فشعرت بنزعة صوفية ، وحفظت كثيراً من نهج البلاغة إعجاباً بقوة أسلوبه ، وقرأت كتاب أشهر مشاهير الإسلام لرفيق بك العظم فتحمست لأبطال الإسلام وأعجبت منه بتحليل شخصياتهم ، وفلسفة الحوادث في أيامهم . واستأجرت حجرة في بيت بالقرب من مسجد البوصىرى أودعتها فراشي وملابسي وكتبي ودراهمي ، فعدت يوماً من المدرسة فوجدتها قاعاً صفصفاً ، خالية كيوم استأجرتها ، فاتفقت مع مدرس في مدرسة أخرى أن نستأجر معاً شقة من غرفتين في بيت عليه بواب ، وكان صاحبي هذاكهلا، نحيف الجسم أصفر الوجه ، ملتحياً ، منديناً في تزمت ، يتوضأ

وكان نصيبى هلمه المرة مدرسة تابعة لأوقاف أهلية وخاضمة لتفتيش وزارة المعارف، هي مدرسة راتب باشابالإسكندرية . ولم يكن اسم الإسكندرية مرعباً كطانطا ، فقد كبرت وصرت فيطيل الوضوء ؛ ويصلى فيطيل الصلاة : ويقفى أوقاتاً طويلة فى قراءة الأوراد وحضور الأذكار ، يصطحب دائماً كتاب وشذا السَّرْف ؛ فى فن الصرف، يقرأ فيه فى حجرته، ويتأبطه عند خروجه ، وظل على هذه الحال السنتين اللتين أنستها معه ، لاهو يتم الكتاب ولا هو يتركه ، مع أنه كتاب صغير يقرأ فى يومين أو ثلاثة .

ولكن أعظم ما كسبته فى الإسكندرية ، تعرفى بشخصية قوية ، كان لها أثر كبىر فى نفسى –كتب إليه قريب لى يوصيه بي خبراً ــكان أُستاذاً للغة العربية في مِدرسة رأس التين الثانوية (١٦) ، تخرج في دار العلوم ، وكنت في الثامنة عشرة وكان في نحو الثانية والأربعين ، وكان طويل القامة ، معتدل الحسم ، حميل الوجه ، ذا لحية سوداء ، نظيفاً في ملبسه ، أنيقاً في شكله من غير تكلف . اتصلت به فأعجبني من أول نظرة ، واتخذنى أخا صغراً واتخذته أخاً كبيراً ، وكان متديناً نم بل كان صوفيا ، يعتنق طريقة النقشبندية ، وهي طريقة ليس لها شعائر ، ولا تقاليد ظاهرة للناس . فالتقشينك إذا ذكر الله ، ذكرِه بقلبه لايلسانه ، وأول دروسها رسماسم الله بنور على القلب ، ورفع اللسان إلى الحلق حتى لايتحرك ،

⁽١) هو المرحوم الشيخ فيد ألحكيم بن محمد ;

ولم أعرف تصوفه إلا بعد مدة طويلة من معاشرته ، وكان ـــ مع تصوفه هذا ـــ واسع الأفق حُرّ الفكر، لايدين بشيء من الخرافات والأوهام ، ويؤيد الشيخ محمد عبده في دعوته إلى الإصلاح ، وكان في مدرسته محبوباً عترماً ، مجله زملاؤه وروْساوْه وتلاميذه ، أنَّ النفس ، عزوفاً عن الصغائر ، يعتمد في دروسه مع تلاميذه على الحب لاعلى الإرهاب ، ويترك لمم الحرية في الحديث والنقد إلى درجة تشبه الفوضي، ولم يكن في درسه مدرس لغة عربية فحسب ، بل مدرس تفكىر ونقد المجتمع ، وما شئت من شئون الحياة ، حتى كان تلاميله يسمونه الشيخ الإنكليزى ، لترفعه وحريته وصدق قوله وسعة فكره . صحبته ، فكان مكملاً لتقصى ، موسعاً لنفسى ، مفتحاً

محمد ، دهان محملا لتنصي ، موسما لتعمى ، مضحا لأنقي ، كنت أجهل الدنيا حول فعرفتها ، وكنت لاأعرف إلا الكتاب ، فعلمي الدنيا التي ليست في كتاب . وكان أبي وشيرخي يعاملونني على أن وجل ، فعلم أخراغي ، وآنس وحلق — كنا تلتى في كثير من الأيام وكان ملا الصلى أو يوم الجمعة أنظره في على قريب من يبتى ، بعد العمر، أو يوم الجمعة أنظره في على قريب من يبتى ، وكان هذا الطرأ إلى أخريها ، هو على "م. أحد الشرائيل ، يصنع شراب الليمون كأصون ما يصنع ، ويعنى ينظافته عاملكن ، ويعنى ينظافته والإتقان ، وحانوته

صغير ، لايتسع لأكثر من خسة عشر ، فإذا كثروا جلسوا أمامه ؛ وهو مُع ذلك يدِّعي الأدب والشعر ، ويتصيد من بجلس عنده من الأدباء ليسمعهم شعره ، وإذا حار في قافية انتظر من يتوسم فيه الشعر فيسأله إكمال القافية ، ويقرأ في الحرائد كل يوم ما فنها من شعر ، فإذا لم يفهم بيتاً انتظر العصر حتى يأتَىٰ بعض زبائنه الأدباء فيسألم ويناقشهم ف معناه ، وهو ذو ذوق حساس ، إذا استثقل أحداً لم تمكنه من الحلوس في حانوته ، وأقصى ما يستطيع أن ممكنه من · شرب أيمونه ، ولذلك كان محله مجمعاً للظرُّفاء والأدباء ، فإذا مرَّ على َّ صديق الأستاذ أخذنى وذهبنا إلى مقهى فخم ، إما في محطة الرمل ، أوكازينو المكس ، أو نحو ذلك من الأماكن الممتازة حيث الموسيقي أحياناً وجودة الهواء ومنظر البحر أحياناً.وقد يكون معنا رجل أو اثنان من بعض أصدقائه، والأستاذ ــ فىالطريق ، أو فى المقهى ، أو حيث كان معنا ـــ عدثنا حديثاً طريفاً ممتعاً ، ينقد المجتمع نقد خبير ، ويتحدث فى شئونه الزراعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ،وهو ف كل ذلك كثير التجارب واسع الاطلاع طلق اللسان ــ إذ زرته في بيته حدَّثني عن شيوخه في دار العلَّوم ، كالشيخ-سين المرصني ، والشيخ حسن العلويل ، والشيخ حمزة فتح آله وأَمثالُم ، وأبان مزاياهم وعيوبهم فى دقة ؛ أو حدثنى عن الكتبالى ظهرت-ديئاً وعن القيَّم منها ، وما ليس له قيمة،

أو قرأنا فى كتاب كدلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وأحياناً . كان يصحبنا صديق له لطيف ، موظف فى حمرك الإسكندرية ، همه فى الحياة النكت اللطيفة ، والنوادر المتملحة ، مع خفة فى الروح نادرة ، المؤانا حضر لم ينقطم ضحكنا ولا إعجابنا ، ولا أهرى من أين كان يأتى كل يوم بالحديد من هذه الطرائف ، ويسميا طرائف اليرم ، وهو عن ذلك خميت منه السجب فى معايب القاهرين وعاسن عن ذلك خميت منه السجب فى معايب القاهرين وعاسن الإسكندرين ، وكان هذا شيئا جديداً على أم راه ملله ، أو مثله ، لمل له الفضل فى تقديرى للنكة ، وإحجابي با . .

و وعلى الحملة فلئن كان أبي هو المعلم الأول فقد كان هذا الأستاذ هو المعلم الثانى ، انتقلت بفضله نقلة جديدةوشعرت أنى كنت خامداً فأيقظني ، وأعمى فأبصرني ، وعبداً للتقاليد فحررنی ، وضیق النفس فوسعی ، وظلت صداقتنا سنین ، ينتقل من الإسكندرية إلى القاهرة فتتجدد صداقتنا وتزيد ، ويشاء القدر أن بجمعنا بعدُ مدرّسَـن معاً في مدرسة القضاء فتقوى الصداقة وتتأكد ، وأستفيد على مر الأيام من علمه وتجاربه وحسن حديثه ، وتجيء الحركة الوطنية فأتحمس لها تحمس الشباب ، وينظر إلها نظر الشيوخ وأقوِّمهابشعورى؛ ويقومها بعقله ، فينقد زعماء الحركة الوطنية وأكره النقد ، ويسهم وأكره العيب ، وتدفعي الحاسة الوطنية إلى نقد أستاذ آخر لى نقداً فيه هيء من الدنت ، فيلمع ذلك صديق الأستاذ ويغضبك ، ويكره من تلديد أن يزل لسانه علل مازل أساق في أستاذى ، فيخاصبنى ويقاطعنى ، وأسترضيه فلا يرضى ، ثم أمين في الاسترضاء ، فيداً في الرضاء ، ولكن يسرع . إليه القضاء ، فيموت وفي عيني دمعة ، وفي قلبي حسرة . رحمه الله . رحمه الله . نسود إلى الإسكندية ، فقد درست في مدرسة راتب باشا اللغة المربية السنة الرابعة الإبتائية ، وكان ما لمغرأ . كبراً إذ من يدرس السنة الرابعة ينظر إليه على أنه أرق مدرس لهادة ، وأحست كمالي في تدريس القراعد ، حتى كان من

غرورى أنى أخطىء الكتب الملابسة التى قرربها وزارة الممارف ، أما فى دروس الإنشاء قام أكن بارعاً ، بل كان بعض التلامية يكتبون خبراً ما أكتب ، لأنى لم أتمرن على الكتابة ، وكنت إذا كتبت شيئاً ملت إلى السجع وإن لم أأثرمه لنظية ما حفظته من مقامات بديع الزمان ورسائله . ورأيت من الملاسين بالمدرسة وناظرها ما لاعهد لى به ، فكانه وراية عربية الأطوار ، مفككة الفصول ،

ورأيت من المنوسن بالمدرسة وناظرها ما لاعهد لى به ، فكانم كانوا عظون رواية غريبة الأطوار ، مفككة الفصول ، مهم من عثل دور الماكر ذى الناب الأورق الذى يقابلك فييتسم لك ، ويوهمك أنه صديقك ، وهو ينس الشالنسائس

عند ناظر المدرسة ، ومنهم من عثل الحبيث المنطوى على

نفسه ، الحاقد على الدنيا وعلى كل شيء فيها ، ويقابل ما محدث حوله دائماً بضحكة ساخرة ، ومنهم السكىر المعربد اللى يستونى على مال المدرسة فيصرفه فى سكره وعربدته ، ثم يضبط ويطرد ، ومنهم فراش المدرسة العبد الأسود الذى

أما علاقتي مع التلاميذ فكانت علاقة صداقة ، أحيم ويحبونني ، وزاد من صداقتنا أننا متقاربو السن ، فلم يكن تلاميذ السنة الرابعة صغاراً كما هم اليوم ، إنما كان أكثر الفصل الذي أدرس له بين الحامسة عشرة والعشرين ، فكنت أتحدث إليهم فى الشئون العامة نما لايتصل بقواعد النحو والصرف ، وأقص علم قصصاً أدبية ، وأتحدث إليهم في بعض ما تحدث به إلى صديقي الأستاذ ، وأشعر محنى إليم إذا غبت عنهم . إجازة أو مرض .و عنون إلى كذلك ، وكانت عاطفتي الدينية مشبوبة قوية بفضلٌ نشأتي في بيتي ، ثم استمرت بصحبتي عن عرفتهم في الإسكندرية ، فكنت أوَّدى الصلوات لأوقاتها ، فإذا كنت في مقهى انتقلت من

تحمر عيناه وتقلفان بالشرر من كثرة ١٠ يتعاطى من والبوظة؛ وكنت أمثيّل من هذه الأدوار دور المغفل الساذج الذي لم يعرف الدنيا ولم نختىر الناس .

بن من أجالسهم إلى أقرب مسجد ، فإن كنت في حي إفرنجي

أرسودانى ، وطلبت منه أن بحضر لى حصير صلاته لاصلى علما- القرب من الباب ، فإذا لم أجد استنظفت أى مكان مستر وخلعت جبى وفرشها وصليت عليها ، ثم تفضيها وليسها ، ويوم الحمدة ، قيماً بالبوصرى ، ويوماً بمسجد ألى الساس ، ويوماً بمسجد سيدى بشر ، ويوماً بسجد سيدى بشر ، وهكذا ... وفي حجرتى أقرأ كل يوم ما تيسر من القرآن .

أما عاطفتي الوطنية فلم تكن قوية إلى ذلك العهد ، لأنى ولدت عقب الاحتلال بنحو أربع سنين ، وقد استولى على المصريين إذ ذاك نوع من الحوف واليأس ، وأحاط الإنجليز مظاهرهم بالعظمة والقوة ، وكان حيَّنا فىالمنشية مَرَاداً للجنود والضباط الإنجلنز الذين يسكنون القلعة بجوارنا ؛ وكنت كثيراً ما أراهم بالحاكتة الحمراء أو السراويل الزرقاءفارعب مهم وأعدل عن طريقهم ، وقلما كان يتحدث أبي في السياسة وشئونها ، فإذا تحدث ففلسفته فمها كفلسفة كثير من الشعب ، أن هذا قضاء الله وانتقام من عبيده ، فيظلم المصرين بعضهم بعضاً ، وظلم حكامهم لهم ويعصيان الله في أوامره وتواميه ، سلط الله عليم الإنجليز يسومونهم سوء العذاب ، ولا ممكن أن ترفع عنا هذه الغاشية حتى يستقيم المصريون ويعدلوا ويلتزموا أوامر الدين ، أما نقد الحكام فى تصرفهم ، أو نقد الإنجليز فى حكمهم ، فسكوت عنه لحذه الفلسفة . وأذكر أنى مرة سألته ــ وقد كرت قليلاــ عند سماعى لهذه الفلسفة : هل هولاه الإنجليز مطيعون الله حتى ينصرهم علينا وتمكن لهم فى بلادنا ؟ فزجر فى ولم يجب، فلما انصلت فى الإسكندوية بصديقى الأسناذ الذى أثر فق كثيراً ، وكانت له فى السياسة فلسفة أشرى ، كشاسفة الشينز

كيراً ، وكاترت له في السياسة ظلمة أخرى ، كفلمة الشيخ عبد عبده ، إذ كان من أنصاره ، لامن أنصار ۱ مصطفى عبد عبده ، إذ كان من أنصاره ، لامن أنصار ۱ مصطفى بنشر التعليم الصالح ، وترقية أخلاق الشعب ، ثم الاستقلال بأتى بنشر التعليم الصالح الشعب ، ثم الاستقلال بأتى بندا بنسة عالم التي ترى أن لبس في الإمكان الإصلاح الداخل قضيب ما لم يسبة بيلاء الإنجلز واستقلال المصريين ، ولذلك كانت وطنية علم كامل الشيخ عمد حبده وطنية عقلة ، ووطنية مصطفى كامل الشيخ مصطفى كامل

وطنية شعورية ، وقد تأثرت بكلام صديق الأستاذ ، وانحرت إلى رأيه . وكنت فى صباى لا أقرأ الحرائد ، فهى لاندخل بيتنا ولست أجلس فى مقهى أقروها فيه ، إلى أن كانت حادثة زواج الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد بالست صفية بنت الشيخ السادات ، وهى حادثة تحدث كل يوم ولاتحرك وأقعدتها ، من الحديو إلى البائع الحوال ، فرجل كهل تزوج بنتآ بلغت سن الرشد برضاها دون رضاء أبها ؛ واعترض أبوها على هذا الزواج ، فاذا عسى أن يكون لهذا الحادث من أهمية ؟ ولكن لعبت الخصومات السياسية في هذا المرضوع ، وإثارة شعور العامة عن طريق المحافظة على الدين ، وفراغ عقول الناس ، جعل هذه المسألة مسألة الرأى العام ، فقد رفعت قضية بطلب فسيخ عقد الزواج لعدم كفاءة الزوج للزوجة ، إذ هي شريفة من نسل النبي ، وهو ليس بشريف ، واشترك في هذه المعمعة القضاء والسياسة والأدب ، فجلسات المحاكم وما دار فها من مرافعات تطلع على الناس في الحرائد ، والشعراء يصنعون المقطوعات الطريفة فى هذا الموضوع تنشرها الحرائد ، والحرائد الهزلية تنشر والنكت، اللاذعة ، وهكذا اهتاجت عواطف الناس ، وترقبوا الحرائد وتلقفوها تطلع علمهم كل يوم

ومن ذلك الحين انصلت بالحرائد أثروها ، ظا عيفت في الإسكندرية كنت أذهب إلى مقهى دعم أحمد الشريئل ، أثراً فيه اللواء والمؤيد والمقطم ، فأرى جريدة اللواء تلهب الشعور الوطني ولا تجاويا فضى تبعاً لشيخى ، والمقطم تفاوم الحركة الوطنية ولم تجاومها كذلك نفسى ، وربما كان المؤيد أحب إلى لصبغته الإسلامية .

ولکن حلث حادث دنشوای^(۱) ـ

ولست أنسى ليلة _ وأنا في الإسكندية _ أقام فيا أحد أصابنا وابمة عشاء على سطح مزله (وكان ذلك في يوم ٧٧ يونيو سنة ١٩٠٦) ، فجامت الحرائد وفيا الحكم على أريمة من ألهل دنشواى بالإصدام ، وعلى اثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وعلى واحد بالسجن خس عشرة سنة ،

(1) حافلة متشواى كا يبليها القراء عنوسها أن فرقة من المنود الإنجيليزية عرجه عي حابقها من القاهم إلى الإسكندية فقا وصلت إلى
علما يصداء فيها هم يسدخون عرجه بنه يشعواى المسلم بأن نها
علما يصداء فيها هم يسدخون عرجه ن يه المستم وصاحة أصاب
المرأة في والجراء والتصلت فيه القارء فهاج أن بها بها
إلحقوم إلى المركز ، فاجمع حول القدايط زميزه ، وجهد رجال من أهال
المجتمع إلى المركز ، فاجمع حول القدايط زميزه ، وجهد رجال من أهال
المجتمع إلى المبلد الإنجيز والإنجيز قار مل الإنجال فاحب
يشمم . فيهم الإنجال مل القدايط وجروهم من طرحهم وضروم بالمبه
يشمع من أجمال الرائزة والإنجيز بلك حضروا وتبدوا على من حول
منظ من الإنجاز والإنجيز ماك حضروا وتبدوا على من حول
وحلوا جف تفات الفنية فقاة الحالة وتوجوعه الإنجيز أهل مقتولية
وحلوا جف تفات الفنية فقاة الحالة وتوجوعه الإنجيز أهل مقتولية
وحلوا جف تفات الفنية فقاة الحالة فقات وترمات الإنجيز أهل مقتولية
المقال المقال، المقال المقتولية المقال المقتولية المقالة المقتولية
المقال المقالة المقالة المقتولة المقالة المقتولة المقالة المقتولة المقالة المقتولة المقالة المقتولة المقالة المقتولة المقالة المقالة المقالة المقتولة المقالة المقتولة المقالة المقا وعلى ستة بالسجن سيع سنن ، وعلى خمة أن بجلد كل منهم خسن جلدة ، فتخص عيشنا وانقلبت الوثمة مأتماً ، وبكى أكثر نا ، ومن ذلك اليوم أصبحت عواطمى مع اللواء لا مع للمؤيد ولامع المقطر.

(17)

بعد سنتين فى الإسكتدرية ، سعى أبى فعينت مدرساً بمدرسة والدة عباس باشا الأول فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، وهي المدرسة التي تعلمت فها صغيراً ، والتي كنت أحزإلها دائماً أيامي في الأزهر ، وقد تغييت عنها قريباً من ستسنوات، ففرحت مها فرح الغائب عاد إلى وطنه ، بل ورأيت فيها بعض من كانوا تلاملة معي في المدرسة أيام كنت تلميذاً ، وبعض أساتذتى الذين علمونى ، ورأيَّها قد اتسعت أبنيَّها ،وكثرت تلامنتها وأساتنتها ، وأعطيت السنة الأولى والثانية لأن أساتذتى وأمثالم كانوا محتلون السنة الرابعة ءوسرعان ماتجلت قوتى فى القواعد دون الإنشاء،ولا أدرى السبب فى اكتشاف هذا السر ، ولكن حدث في آخر العام أن نتيجة المدرسة في الشهادة الإبتدائية كانت نتيجة باهرة ، فرح بها الناظر فرحاً شديداً ، ومحث عن أستاذ في اللغة العربية يكتب خطاباً إلى إدارة الوقف غيرها فيه مند التنبية ، ويناهي بها غيرها من المندارس ، فلم عبد أحداً إلا إياى ، فندهاني الناظر وطلب من أن أكتب هذا الحطاب ، ومن حسن حظى أنى كتت أحفظ مقدمة دلائل الإعجاز ، يباهي فيها يعلم البلاغة وأنه فوق العلم كلها ، فسرقت الأسلوب ، ويناهيت بالمدرسة وفضلها على سائر الممارس على تمله ، وحجيجه ، فسر منه الناظر كلما المعارى في الإشاء أيضاً .

كثيراً ، ورد إلى اعتبارى في الإنشاء أيضاً . فى هذا العام أثناء الدراسة مرضت محمى التيفود مرضآ شديداً ، حتى أشرفت على الهلاك ، ولم يكن هناك عناية بالمرضى ، كما يعنى اليوم ، ولايرضى الأهالى عن إرسال المريض إلى مستشنى الحميات كما يرسل اليوم ، ولاعزل له عن ساثر من في البيت حتى لاتنتشر العدوى ، ولا استدعاء طبيب مختص يشرف إشرافاً دائماً على العلاج ـــ لاشيء من ذلك ــ ولكن فرشت لى حشيَّة على الحصير ، في وسطالغرفة كماكنت أنام ، وترك أمرى لله ، فلم يدع أهلي طبيباً ،وكل ما فى الأمر أن نفسى عافت الأكل فتركته . ومن حين لآخر تأتى عجائز الحارة فتصف لأمى وصفات بلدية للشفاء من المرض ، فأقبلها حيناً ، وأرفضها أحياناً ، ويزورنى أنى قبل خروجه إلى عمله ، فيجلس على رأسي : ويضع يده على جهتى ، ويقرأ الفائحة ، وآية الكرسي ، والمعوذتين ، ويختم ذلك يقوله : وحصنتك بالحى القيوم الذى لايموت أبيا ، ودفعت عنك السوء بألف ألف لاحول ولاقوة إلا بالشالعل العظم ، ثم ينشث فى وجهى ، وإذا عاد من عمله فى المساء كور هذا الدعاء . ونجوت مها بأصجوبة ، بعد أن كانالموت أثوب إلى" من حبل الوريد ، ومكتت بعد ذلك منة طويلة فى دور الثقاهة .

لم أمكث في هذه المدرسة إلا سنة ، وفي سنة ١٩٠٧ تقرر فتح مدرسة القضاء الشرعى ، وكان الغرض منها تخريج قضاة شرعيين مكان الذين عمت منهم الشكوى . وكان قد عهد إلى الشيخ محمد عبده بالتفتيش على المحاكم الشرعية وفحص عيومها ، فقام بذلك خبر قيام ، وكتب تقريراً عظها ، بيس فيه هذه العيوب ، ويقترح وجوه الإصلاح ، وعلى أثر ذلك فكرت نظارة الحقانية في إنشاء مدرسة ، واحتضن فكرسا سعد باشا زغلول ، إذ كان ناظراً للمعارف ، وأميناً على أفكار الشيخ محمد عبده . وكان الحديو عباس كارهاً لهذا المشروع أشد الكره ، معارضاً فيه أشد المعارضة : لأنه يسلب الأزهر أعز شيء لديه ، وهو الإعداد للقضاء الشرعي ،وقد مسُلب من قبل . إعداد مدرسي اللغة العربية بإنشاء دار العلوم ... والأزهر وديوان الأوقاف هما المصلحتان اللتان أطلقت فهما يد الحديو ، ولم تمسمها يد الإنكليز ، فقوتهما قوة له ،

م ٤ (حياتي)

وضعفهما ضعف له . ولأن فكرة مدرسة القضاء نبعت في فكر الشيخ محمد عبده ، واحتضها صديقه سعد زغلول ، وهو يكرَّههما من أعماق قلبه . من أجل ذلك حارب المشروع ، ولكن دعى عجلس النظار للاجماع يوم ٢٥فيراير ١٩٠٧ وَرَأْسُهُ الْحُدْيُو ، فعارض الْحَدْيُو فَي الْحَلْسُ وأَيْدَى اعتراضاته على المشروع ، واقترح إرجاء النظر فيه ،فعارض سعد باشا، ودافع عن الْفكرة ، وتحسس لها تحمس المحامى القدير الذي يوْمن بعدل قضيته ، ثم أخذ الرأى ، فانضم حميع النظار إلى سعد باشا ، ماعدا ناظر الأشفال ، فلم يسع الحديو إلا أن يوافق على رأمهم وأبمضي القانون ولم تعرف سابقة لمثل هذا الحادث تخالف فها أكثر النظار الحديو ، فينزل عن رأيه لرأمهم ، ولذلك صمم ــ بعد ــ أن لايحضر جلسات مجلس النظار ، حتى تكون له الحرية ، في قبول ما يقبل ، ورفض ما يرفض . ومن أجل هذا ظل الحديو محارب مدرسة القضاء ما استطاع . على كل حال أعلن عن الدخول في مدرسة القضاء وشرط

على كل حال أعلن عن الدخول في مدوسة القضاء وشرط الشخاء وشرط اللهيف من الكشف المن الكشف من الكشفات الم الكشف المن الكشفات المن من الاستحان ، فأشحف ما أعادة أن تكرر المأساة التي حدثت عشاء تقلمت للمار العلم و كان وكان من قرط خشيقي أني احشات عنى حصلت على اللوحة التي سيستخدمها العليب في الكشف عن النظر .

فحفظت حفظاً جيداً العلامات فيما عدا السطرين الأولمن لأني أراهما ، فعرفت ابتداء من السَّطرالثالثأن العلامة الأولى مفتوحة من الىمن ، والثانية من اليسار ، والثالثة من فوق ، والرابعة من تحتُّ وهكذا ، ولكن خاب ظنَّى وكانت ساعة حرجة جداً انعقد علمها كل أملى ، فقد رأيت السطرين الأولىن ، فلما جاء ما يُعدهما أشار الطبيب إلى علامة فىالسطر الرابع فسألته ، أهي الأولى أم الثانية ، فقال هي الموضوع علما العصا ، ولم أر طرف العصا إن كان موضوعاً على العلامة الثالثة أو الرابعة ، فسقطت في الامتحان ، ويئست من المدرسة ، واعتقدت أنى سأظل فى عملى المتواضع أو مثله ما بقيت الحياة ، ولكن حدث ما ليس في الحسبان فقد رأى عاطف يك بركات ناظر المدرسة كثرة الساقطين في النظر، فأرجأ البت فيمن يقبل ومن لايقبل إلى ما يعد الامتحان ، وتقدم لهذا الامتحان أكثر من مائتين ، منهم من قضى سنن طويلة في الأزهر ، وامتحنا في اللغة العربية نحوآوصرفاً، ونيُّ الفقه ، وفيالبلاغة ، وفي الحسابوالهندسة ، وفي الحغرافيا والتاريخ ، فكان امتحاناً عسراً رسب فيه كل المتقدمين إلا خسة ، وكنت الثالث فشفع ذلك لى عند ناظر المدرسة في **قص**ر نظرى ، وقبلنا تحن الحمسة وضم إلينا تسعة من أحسن الراسبين، وبعض هؤلاء النسعة ... اختبرواً ... لأنهم من أبناء كبار العلماء في الأزهر ، استرضاء للأزهر وأهله . ففرحت قرحاً لايقدر ،

إذ رسم مستقبلى ، ووضحت معالمه ، وكفيت شر التسكيرف المدارس الأهاية وأمثالها ، كما فرحت مرة ثانية لأنى سأدرس علوماً منظيمة فى مدرسة منظمة . أسأل فها عما أفعل ،وأحاسب على الحد والكسل ، لا كما كان الشأن فى الأزهر .

على احد والخصل ، و ما كان اسان عاد الرحم.
وكانت الفكرة في مدرسة القضاء أن يشف فها الطالب
قثافة دينية ، من تضمر وحديث وفقه وأصول فقه و توحيد
وكفو ذلك ، وثقافة لغرية أدية من نحو وصرف وأدب
وتقافة قانونية عصرية ، من مثل أمول القرائين الحديثة
عصرية ، من مثل الحفرافيا والثاريخ والطبية والكيميا
والحساب والحبر والمنامة فكان برناجها مزيجاً من كل ذلك.
ومن أظرف ما حدث في برناجها أن خاف واضعوا قانونها
من أن يسموا الطبيعة ياسمها ، فينفسب الأزهريون ؛ لأن
للمبم بيناً مشهوراً يتناقلونه ويتغلولونه ، وهو:

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فلناك كفر عند أهل الملة فاحتالوا على ذلك ووضعوا الطبيعة والكيمياء فى العرنامج تحت امم ه الحواص التي أودعها الله تعالى فى الأجسام ، . وكانت المدرسة فى حضانة سعد باشا زغلول ، يولها عنايته وهو ناظر المعارف ، ويضع ينه على كل رجال التعلم فى تواسيم المختلفة ، فانحار لما ناظراً من أكفاً الناس وأقربهم

إليه وهو عاطف بك بركات ، واختار هو والناظر خبرة المدرسين من كل ثوع من أنواع التعليم ، كما استعان بخبرة علماء الَّازهر ، ليدرَّسوا العلومُ الدينية ۚ، فكنت ترى مزَّعِمّاً عجيباً من الأساتلة ، هذا شيخ أزهرى تربى تربية أزهرية عتة ودنياه كلها هي الأزهر وما حوله [°]، بجانبه أستاذ للتاريخ على آخر طراز تخرج من جامعات إنجلترا ، وأستاذ للطبيعة تخرج من أشهر جامعات فرنسا ، وعلى رأسهم ناظر تملم فى الأزَّهر وفى دار العلوم وفى انجلترا ، وكل من هؤلاء يلون الطلبة بلونه ، ويصبغها يصبغته ، ويعلمهم على مهجه . فكنت إذا أصفيت إلى درس من الدروس فكأنما تصغى إلى درس يلقيه مدرس من القرون الوسطى فها يقال وكيف يقال، ثم يليه درس تسمعه فكأنك تسمع درسًا في جامعة أجنبية لأيفرق بينهما إلا أنه يلتي باللغة العربية ، ثم تنتقل من ذلك إلى درس له شبه من هذا وشبه من ذاك ، فموضوعه من موضوعات القرون الوسطى ومنهجه منهج حديث ، وكذلك المدرسون ، عقلية قديمة لم تسمع عن شيء اسمه الجغرافيا ولاتعرف أن الدنيا قارّات خس . أرَّاد بَعْمَهُم أنْ يَنظُرُف ويبين أنه رجل عصرى فقال : إن الدنيا تنقسم إلى ثلاثة أقسام آسيا وأفريقة وقارة . يقدسون ما ورد في الكتب حيى الحرافات والأوهام ، ومن أقوى حججهم على صحة الرأى أنه ورد في كتاب من الكتب القديمة . وعقلية حديثة على

(v)

آخر طراز ، جالس أصحاحا أرقى الأساتذة الأجانب واستفادوا مهم ، وعاشوا في المدينة الغربية ، وعرفوا آخر نوع من طرازها ، وليس عندهم فكرة مقنسة إلا ما قام البرهان على صمها ، ودلت التجارب على ثبوتها ، وبن هذين الطرفين أنواع من الأساتلة يأخلون محظ مهما قل أوكثر، وفي هذه البوتقة المكونة من هذه العناصر كلها وضعت الطلبة ليأخذ كلٌّ منهم حظه حسب فطرته واستعداده ـــ وأحيط كل هذا بإطار خلقي يشرف على تنفيذه ناظرها : يلتزم النظام الدقيق ولايسمح بالحروج عنه قيد أنملة ، إن دق جرس الصباح أغلق باب المدرسة ولايدخلها طالب ، وتحرك الأساتذة فورًا إلى دروسهم . ويذهب الطلبة أول العام الدراسي فيجلس كل فى مكانه ويفتح درجه فإذا فيه كتبه وأدواته جميعها لاينقصها شيء ، وعدل "ف معاملة الطلبة والأساتذة لاينحرف. فن نجح من الطلبة فبالعدل ، ومن رسب فبالعدل ، وإن رقى أستاذ فبالعدل، لايقبل في ذلك رجاء ولا شفاعة ؛ وكل طالب معروف لأساتلته وناظره ، ولكل طالب صفحة فى سجل كبىر أمام الناظر ، قيد فها اسم الطالب والأخطاء التي ارتكها والعقوبات الى وقعت عليه والمكافآت الى نالها ، فمن أخطأ خطأ جديداً ذهب إلى الناظر ففتح صفحته وعرف مكانته ؛ ونظافة في المدرسة بالغة أقصاها ــ حديقة جميلة رسمت رسا بديماً، وملت بالأزهار الحديلة ، وحركة مستمرة من الحديثة في تنظيف مستمر في هذا الحوكاء وضع الطابة ، واشهرت المدرسة في مصر يزورها كراؤها ، وفي العالم الشرق يومها عظاء الوافدين المعنين يشتون التعلم والرافهين في الإصلاح .

(14

بدأت الدراسة بالقسم العالى من هذه المدرسة ، ومدتها أربع سنوات ، وكان فصلنا أربعة عشر طالبًا ، كثير مهم يناهز الثلاثين وله لحية طويلة ، ومنهم من هو متزوج وله أولاد . وكَان الطلبة كالأساتذة ، مهم الأزهرى القح الذي لايعرف عن الدنيا شيئاً ، ومهم ابن البلد المتمدن الذي عرك الدنيا وعركته ، ومنهم من هو بين ذلك . وبدأنا الدواسة واستمررنا فها أربع سنين طوالا ــ يدرس لنا التفسير والحديث والتوحيد رجال من خبرة الأزهريين ، على الطريقة الأزهرية وفى كتبها الصفراء الني تضم متنآ وشرحاً وحاشية ... يقرءون المآن ثم يقبعونه بالشرح ، '؛ ثم يفيضون فها يرد من اعتراضات ، وما مجاب علما من إجابات ، وتنسى السنة فلا نكون قد قرأنا فيها إلا القليل ، ونحمد الله علىٰ ذلك لأن الامتحان سيكون في هذا القليل الذي قرئ ، وهم يذكروننا دائمآ بالأزهر ومهجه والقرون الوسطى

ومناهجها ، وعالمُون رهوسنا بالاحيالات والتأويلات ، ويبيّون في نفوسنا من طرف عني تقديس المواقدن والمراكفات، نقل أن يخطئ المؤلف ، وإذا أعطأ فهناك ألف وجه لتأويل كلامه بما محتمل الصواب ، ولكن كان لهذه الطريقة — والحيّز يقال — محمدة كبرة ، هي تعويدنا الدقة في التصير والحيّاز في القول والتزام الملتلن فيا يقال ٧٠.

وبجانب هؤلاء دروس يلقها أساتذة من خبر ما أخرجته هار ألعلوم كالشيخ الحضرى والشيخ المهدى^(٢٢) ، وهم فئة تعودوا النظام والقدرة على الإيضاح من دار العلوم ، ولم يلتزموا عبارات الكتب وإن النزموآ موضوعاتها ، واتصلوا بالشيخ محمد عبده ، وكانوا من خاصة تلاميذه ، يعتنقون مبادئه ويستنرون بآرائه وتوجهاته ، فلم يكونوا يلتزمون الكتب ، وإنما يضعون مذكرات من أنفسهم يعتملون فيها على الكتب القدعمة ، ولكنهم يعرضونها عرضاً جُديداً ، قليلا ما يأتُون بالشيء من أنفسهم ، ولهم علم بالمدنيا أكثر من علم الأزهريين ، وتجارب في الحياة استملوها من أعمالم ومناصبهم ، كانوا يلقونها إلينا مع دروسهم ؛ درُّسَ لنا أصول الفقه الشيخ محمد الخضري ، وكان لبقاً

⁽ا) من هؤلاء للرحودن الشيخ أحد نصر المالكي والشيخ الهبيرل والشيخ حين والى والشيخ عبد النبي عمود . (۲) والشيخ حدين متصور .

لسناً ذكياً واسع الاطلاع حاضر البدسة ، مجيد اللغة العربية وفروعها والتاريخ الإسلامى كما وردفى المولفات القدمة ، والعلوم الإسلاميـــة كما تلقاها من شيوخه ، وله قدرة على استساغة ذلك كله وإخراجه في عبارة عصرية جـــديدة أقرب إلى الفهم . ودرس لنا الشيخ محمد المهدى أدب اللغة العربية ، وكان هذا الأدب حديث العهد في مصر ، فالناس نم يكونوا يعرفون الأدب إلا على النحو الذي جاء في مثلكتاب الأغاني والعقد الفريد والأمالي ونحو ذلك . أما تاريخ الأدب إلى عصور وترجمة شعراءكل عصر وناثرية ومنزة أدبكل عصر وخصائصه فشيء لم يكن معروفاً في مصر ، حي أتى الأستاذ حسن توفيق العَـدُل ، وقد تعلم في ألمانيا ، فأدخل هذا العلم على هذا النمط في مدرسة دار العلوم إذكان أستاذاً فها ، مُسْرَشداً بما كتبه الألمان في تدريس أدمهم ، وجاء تأميذه الأستاذ محمد المهدى فبني عليه وأعدً لنا مذكرات واسعة فيه ، وكانت منزته الكبرى تذوقه الأدبوتقوم جيده من رديته وحسن إلقائه للشعر وجمال نغاته ، وكان كثيراً ما يخرج من الدرس إلى تعالم الشيخ محمد عبده ، من الدعوة إلى عدم زيارة القبور وإنكار الشفاعة بالأنبياء والأولياء ونحو ذلك (١)

 ⁽۱) ودرّس لذا الأعلوق الشيخ حسن منصور وكان على نحو ما فى
 كتاب "بديب الإعلوق لمسكويه وأدب الدنيا والدين الداو ردى . وكان يعاثر بالوقار والرزالة و سرمة النفس .

وكان من طائقة دار العلوم أيضاً الشيخ محمد زيد ، رجل وقور جليسل المنظر مهيب الطلعة يخفظ بكرامته ويعتر يشخصيته ، درّس لنا الفقه . وكان قد مرن عليه في التدريس مممرسة الحقوق ، فنثل الفقه من كبه الأزهرية الى تعمد على الجزئيات إلى وضع قواعد كلية تطبق علمها الجزئيات ، وكان سلس العبارة ميالا إلى الإطناب .

وجمهرة ثالثة من المدنين ... إن صع هذا التعبر ... مهم طافخة من كبار رجال القضاء الأهل^{CO} ، يعلموننا مقامة القوانين ، أو كما يسمونها اليوم المدخل لمل القانون ، ونظام الحاكم واختصاصاتها إلى غير ذلك ، فيقربون أذهاننا إلى القضاء الأهلى ، ويقربون القفة الإسلامي إلى القانون الوضعى، وأصول الفقة ، إلى أصول القوانين .

وهذا أحمد فهمى العمروسى بك ، وهو الذي تعلم فى
مصر وتعلم فى ساتكالو بفرنسا يدرس لنا الطبيعة ، فيشرح
لنا النظرية ويطبقها فى المعمل ومجعلنا نجرب التجارب ، ولا
يضع فى يدننا كتاباً ، بل يكلفنا أن نكتب ما فهمنا وأن
ترسم الأدوات الى استخدمناها ، وهى طريقة كانت شاقة
حلينا ، ولكنها كانت مفيدة لنا — وغرج من الدوس

⁽١) مثل المرحوم أحمد بك قسمة ثم المرحوم أحمد يك أمين .

كثيراً إلى نقد طريقتنا فى التعليم وطريقتنا فى الحياة ، ويقازن فى ذلك كله يين مصر وفرنسا . ويرى أن الكلام فى خلمه الأمور أكثر فاقدة من الكلام فى الطبيعة والكيمياء ، فالكلام فيمما كالحز الجاف لابد أن بجعسل سائقاً بالزبد والمربى .

وهذا على بك فوزى الذي درس فى مدرسة المعلمين وتخرج في معاهد إنجلترا ، يدرس لنا التاريخ ــ تاريخ اليونان والرومان أحياناً ، وتاريخ أوروبا الحديث أحياناً والتاريخ الإسلامي أحياناً ، وهو رجل غريب بديع ظريف المظهر قصىر القامة يخنى قصر قامته بطول طربوشه وعلو جزمته . مجيد الإنجلىزية والفرنسية والفارسية والبركية . ويلتزم الكلام باللغة العربية الفصحى فلا يلحن ، ويدخل طينا متأبطاً كتباً في جانبيه لعلها نزن أكثر منه ، ولا بدع الفراش محملها له ويفتح هذا الكتاب بالفرنسية وبملي علينا باللغة العربية بأسلوب حيل فصيح صيح ، ويخرج أحياناً عن الدوس إلى آرائه في الحياة وفلسفته في المقارنة بين المدنية الشرقية والمدنية الغربية .

وهذا محمد بك زكى يدرس لنا الحساب والحمر والهندسة ويتقلنا فى ذلك خطوات سريعة ، حتى نصل إلى اللوخاريبات والهندسة الفراغية والتوافيق والتباديل وها عاظف بك بركات يدخل طينا يوما فيجد الشيخ حسن منصور يدرس لنا الأخلاق من كتاب أدب الدنيا والدين ، فلا يعجبه ذلك ، ويتولى تدرس هذه المادة بنفسه من الكتب الإنجلزية، فيدرس لنا أحيانا كتاب ماكنزى فى طم الأخلاق ، وأحياناً كتاب مذهب المفعة لجون ستيوارت مل .

وهكذا وهكذا من مزيج لم يكن له نظىر فى أى مدرسة أخرى .

ونظام المدرسة شاق عنيف ، فليس هناك ملاحق ، وليس هناك إعادة سنة ، فمن رسب في أول امتحان آخر السنة رفض ، وفي كل ثلاثة أشهر امتحان ، ومن رسب في هذا الامتحان الثلاثي حرم من مكافأته ، وهي جنيه ونصف كل شهر ، وما تجمع من هذه المكافآت التي حرم منها بعض الطلبة تمنح مكافّات للمتفوقين : قسم منها لمن حاز أكبر درجة في كل علم أساسي ، وقسم بمنح مكافآت على كتب تقرأ أثناء الإجازة ، مثل مقصورة أبن دريد وشرحها ومختصر صبح الأعشى وكتاب وإميل؛ القرن التاسع عشر ونحو ذلك . وقد ينال الطالب النابغ مايقرب من ثلاثين جنبهاً من هذه المكافآت ، وقد أخذت من هذه المكافآت كل سنة ما يقرب من ٢٥ جنهاً كنت أتبحبع فيها في حياتي . فمرة أخذتُها على كتاب إميلُ القرن التاسع عشر ٌ، ومرة أخذُنها على خفظ مقصورة إبن دريد وشرحها . ومرة على كتاب مختصر

صبح الأعشى. هذا عدا مكافآت كانت تعطى لمن يأخذ أحسن درجة في أي علم من العلوم الرئيسية . وكل يوم ثلاثاء عصراً تصفُّ الكراسي في فناء المدرسة ويُدُّعي أستاذ من الحارج أو من المدرسة أو طالب من المتقدمين لإلقاء محاضرة في موضوع أعدًه ، وأحياناً يشترك في ساع هذه المحاضرات سعد زغلول أوقاسم أمين أو غيرهما من الكبراء ، فيلني علينا مثلا ، ورفيق بك، محاضرة في وقضاء الفرد وقضاء الحاعة ، ، ويلقى علينا الشيخ الحضرى عاضرة في ٥ أبي مسلم الحراسانيه مرة وفي والغزالي، مرة وفي وزياد ابن أبيه، مرة . ويلو. علينا العمروسي بك محاضرة في و هربرت سبنسر ، مرة ونی و بستالوتزی ، مرة وهکذا . .

لا تحمل الحدل ، ويشتقرنه ويفرعونه ويعمقونه ، فيكون من ذلك متمة عقلية تلذ المؤيد والمعارض . تفسيت زماني معلم المدرسة عبداً لا هزل فيه وتعباً لا لما يريد المدرسة المستقربة ...

لا راحة معه ، وكانت المدرسة قاسية عنيفة لا ترفيه فها ؛ فدرس فى النهار وتحضير فى الليل ، حتى أوقات الألعاب الرياضية كنا نوَّدمها في عنف كأنَّها أشغال شاقة . فلو طبقت هذه النظم على مدرسة عسكرية لاستجارت منها ، ولو طبقت على مدرسة اليوم لقابلها الطلبة كل ساعة بإضراب جديد . وقد صبرت على هذا الدرس فلم أسترح نهاراً ولا ليلا ، ولا حمَّة ولا عيداً ، حتى ولا في الإجازة الصيفية ، إذ كنت أعكف على الكتب التي قررت للمسابقات فأختار منها وأدرس ما أختار لأمتحن فيه أول العام ، وزاد من تعبى ما أصبت به من الغبرة ، وكنا اثنين في الفصل كفرسي رهان نتسابق في غير كلل ، وكان(١) خيراً منى في العلوم الأزهرية وأنا خبر منه في العلوم العصرية ، فسبقني في السنتين الأولين وسبقته في السنتين الأخريين ، وكان إذا سبقيي حزنتُ حزناً عميقاً ، وإذا خلوت إلى نفسي فرُّ الدمع من عيني ، فما لقيته من هذا الزميل في السّباق كان أشدُّ على نفسى مما لقيته من المدرسة وما فها من عناء .

⁽١) هو المرحوم الشيخ مبد السلام متصور .

لا أذكر أنى رفهت على نفسى إلا أياماً كنت أخرج لل كوبرى قصر النيل ، حتى إذا توسطته وقفت زمناً أستنشق هوامه وأستمتع بمنظره ، ثم أسر إلى آخره فأميل ذات اليمين وأسفى بين الأشجار والنخيل والبر حتى أصل إلى مسجد هناك أصلي فيسه المغرب أو العشاء ثم أعود من حيث أتيت .

وأحياناً في ليلة الحمعة كنت أغشى منزل صديقي الشيخ مصطنى عبد الرازق ، وكان منزلا محفظ بالتقاليد القديمة لبيوت الأسر الكبرة ، يكثر زوّارها وتمد موائدها غداء وعشاء ، ويطيب،فيها السمر ويطول فها السهر ، فكان أصدقاء الشيخ من الشبان ينفردون محجرة في البيت يتلاقي فمها شبان الآزهر بشبان الحقوق ببعض الشبان الذين يتعلمون فىأوروبا ء فتئار المسائل على اختلاف ألوانها دينية وفلسفية وسياسية واجيَّاعية حيُّما اتفق ، نتبادل فها الآراء والأفكار ، وترى إذ ذاك آراء المحافظين تناطح آراء الأحرار المتمدنين، ومؤيدي السفور ينازعون مؤيدي الحجاب ، والوطنين يثورون على الرجعين ، وهكذا من سمر لذيذ عند إلى منتصف الليل فتكون من ذلك متعة عقلية وروحية لطيفة .

ومرتین أو ثلاثاً حمت كل قوای ، وحفزت كلّ ممی وقاومت كل خطي ، فلحبت إلى اساع الفناء في صالة تسمى وألف ليلة ، بالأزبكية من منتية اسمها والست توحيدة ، واتحالت كلَّ الوسائل للاختفاء ، لأن من رومى وعلمت به المدرسة كان عرضة لتأثيب والعقاب ــ ملما كان كل ترفيمى ، أما ما بنى من وتنى فلدراسة وللمدرسة :

بل زدت نفسي إرهاقاً بدراسة أخرى ، فقد كانت الحاممة المصرية الأهلية قد ولدت في السئة التي ولدت فها مدرسة القضاء عقب جدال عنيف في المحالس والصحف ، وكان موضوع الحدل غريبًا حقًّا ظريفًا حقًّا : هل من الخبر لمصر أن تتوسع في التعليم الأولى فتفشئ الكتاتيب ، أو توسس التعليم العالى فتنشئ الحامعة ، كأنهما ضدان لاعكن الحمع بينهما ؟ ولكنها السياسة الإنجلىزية ، أرادت أن تصرف الأنظار عن التعلم الحامعي لأنه ُخرج قادة الرأى في الأمة ، فايتدعت فكرة التعليم الأولى وأولويته ، وظلت المناقشة طويلا ، وكان اللوردكرومر يؤيد التوسع في التعلم الأولى ويعارض فى إنشاء الحامعة ، فأسرع مديرو المديريات ومأمورو المراكز والعمد وأعيان البلاد إلى إنشاء الكتاتيب طوعاً لإشارة كبار الإنجليز ، وأخبراً تقدم داع (١) يدعو إلى إنشاء الجامعة ويتبرع بخمسمائة جنيه بشرط أن يتمرع

⁽۱) هو مصَعلتی بلک کامل النسر اوی .

عدد كبر ممال كثير ، وتحمس بعض الكبراء وعقدوا اجهاماً حضره سعد زغلول وقاسم أمن والشيخ عبد العزيز شاويش ومحمد بك فريد وغرهم ، واكتبوا بمبلغ من المال لايزيد على خسة آلاف جنيه ، وأنشأوا الحاممة واختاروا رئيسها سعد زغلول .

فلها عين ناظراً للمعارف اختير لها الأمير أحمد فواد (الملك فواد بعد).

مُ نمت الجامعة واستدعى لها بعض كبار المستشرقين واختر لها بناء هو بناء الجامعة الأمريكية اليوم . فأعجبي من درومها عاضرات يلقها الأسناة الإسلامية بلتها الأسناذ سائسلانا ، وعاضرات في الضلمة الإسلامية بلتها الأسناذ جويدى ، وكنت أحضر مفه الحاضرات اللها في غير انتظام بحريدى ، وكنت أحضر مفه الحاضرات اللها في غير انتظام كل حال رأيت لوناً من ألوان التعليم لم أعرفه : استقصاء في البحث ، وعمى في اللدس ، وصبح على الرجوع إلى المراجع المضائقة ، وهذارته بين ما يقوله الرب وما يقوله الأرتبع ، واسلتناج هادئ رزين من كل ذلك .

وختمت حياتى المدرسية بموقف غليظ عنيف ثقيل ؛

مختلفين متنوعين كانت لحان الامتحان مختلفة متنوعة بر لحنة من كبار العلماء الأزهريين ، فهم المفنى وشيخ المالكية وشيخ الحنابلة وبعض كبار القضاة ، ولجنة من كبار رجال القضاء الأهلى فيهم فتحى باشا زغلول وعبد العزيز باشا فهمى ، ولِحنة من رجال العلم المدنى ، عالم فى الرياضة وعالم في الطبيعة وعالم في التاريخ وهكذا ، ولكن كان أثقلها وأبغضها اللجنة الأولى ، فأما الامتحان التحريري فقد مضى في سبولة ويسر وكنت الأول ، وأما الامتحان الشفوي في لحنة الأزهر فكان موضوعات معينة في كل علم من العلوم الأزهرية : موضوع فى النحو وآخر فى البلاغة وثالث فى ٰ أُصُول الفقيه ورابع فى المنطق ، وهكذا . وكل موضوع عبارة عن جملة أو جملتين من كتاب، تعييّن للطالب قبل قبل الامتحان بعشرة أيام ، فئلا في البلاغة حملة : ﴿ وَاسْتَغْرَاقَ المفرد أشمل ، بدليل صحة لا رجال في الدار إذا كان فيها رجل أو رجلان دون لا رجل ۽ ، وهكذا في سائر العلوم ، أخلت هله الموضوعات وقرأتها وفرغت منهاكلها فى يومين وليلتن ، ولم أدر ما أصنع بالأيام الثَّانية بعد ، ولكن بعد ثلاثة أيام مرّ على فى بيتى شيخ أزهرى (١) من كبار مدرسينا

 ⁽١) هو المرحوم الشيخ أحمد تصر من هيئة كبار الطله .

كما مرّ على زملائي ليعرف كيف محضّرون موضوعاتهم ، فسألني أسئلة لا أعرف من أين أتت ولا كيف تنصور ولا كيف يجاب عنها ، فخاف على من الرسوب في الامتحان ، وزارنى بعد ذلك مرتنأو ثلاثاً يلتى على مذه الأسئلة العجيبة والأجوبة الغريبة ، ومع ذلك لم أتقدم كثيراً . وكان يوماً أيوم يوم أديت هذا الامتحان ، فقد جلس هُوَّلاء الأسانلـة الستةُ أو السبعة لا أدوى على الأرائك متكتين ، وفرشت لى فروة على الأرض جلست علمها متربعاً ، وبدأت أقرأ في الكتاب الأول ، وأشرح جوهر الوضوع شرحاً صححاً ، ولكن سرعان ما الهالت على الأسئلة من كل جانب فأجيب حيثاً وأعرق حينًا ، وأذكر من هذه الأسئلة أن ْالمؤلف لم قال وأَيْ، ولم يقل وأعنى ؛ ؟ فلم أحر جواباً وهكذا . وهي أسئلة محفوظة مرن علمها الطلبسة والأساتذة المتعمقون فى الدراسة الأزهرية ، ولم أمرن علمها لأنى اعتمدت فىدراسى على أبى . وأبي أتقلف من الحواشي ومن مثل هذه الأسئلة . وجلست هذه الحلسة على الفروة ست ساعات متواليات لاتتخللها راحة ولا شرب كوب ماء ، وكلُّ من المتحنن غرج من حين إلى آخر يتمشى ويتروض ، ومن حين إلى آخر تَقدم لهم القهُّوة والليمون وما إلى ذلك ولا يقدم لَّى شيء ، وأخيراً أفرج عنى وسمح لى بالحروج ، فلما حاولت القيام

لم أستطع أن أمد رجلى ولا أعدل قامتى ، وأشغت في ذلك زمناً طويلا حتى عرفت كيف أقوم وكيف أمشى . ولم أدر كيف ذهبت إلى بيتى وكيف قضبت بتية نهارى وليلى . ومهما كان الأمر فقد نجحت ولكن تأخير ترتبي من الأول إلى السادس ، وكان هذا الامتحان الأزهرى على هذا الوجه الشاق أول امتحان في مدرسة القضاء وتشره ، فيمده استجم عاطف بك فسهل الامتحان وقصرت مدته وتساهل المستحزن في درجاته .

(18)

كنت وأنا مدرس في المدارس الابتدائية غير متفوق في الإبداء ، في الشهر الأول من دخولي المدرسة حلب إلينا أستاذ الأدب أن نكتب في موضوع ه أثر القرآن الكرم في تلوين الطوم ، وصادفني التوفيق في كتاب في يد عاطف بك بركات فاستحسته — وكان لا يعجبه العجب — وكان كلا إلى يعجبه العجب — وكان كلا إلى يعجبه عليه وسمع منه استحسانه ، فوقر في نفس أستاذ الأدب تفوقى في الإبدادة فيها أكتب ، فكان في الإبدادة فها أكتب ، فكان أكثر بما يقرأ ورقة الإجابة ، واحتفظت ممكانتي هذه طول دراسي ، ودفعي ذلك إلى الاتصال بالحرائد أريد أن أكتب فها ؛ وكان لى صديق^(١) طالب فى المدرسة يتصل بالشيخ على يوسف صاحب و المؤيد ، ويفسح له في جريدته حتى لينشر له مقالاته أحياناً في صدر الحريدة ، فطلبت إليه أن يعرَّفي به ففعل ، واستكتبني فكتبت مقالا عنوانه وخطأ العقلاء،

يعطيني دائمًا أعلى الدرجة ولولم أستحق ، لأنه يقرأ ما في نفسه

موضوعه نقد سعد باشا على تركه نظارة المعارف وتقلده نظارة الحقانية ، لأن نظارة المعارف تحتاج إلى جهاد مع الإنجلىز عنيف في وضع أسس جديدة للتعلم ، وقد بدأ في وضع هذه الأسس فن الخطأ ألا يتمها ، وأن يُتقل إلى نظارة وضعت أسسها ولا جديد فها إلا السبر وفقاً للتقاليد المعروفة، ولكن الشيخ على يوسف لم ينشر المقالة إما لضعفها أولظروف صیاسیة تتعلق بالموضوع کان پراها ولا اُراها ، و علی کل حال كانت هي المقالة الأولى والأخيرة أيام طلمي .

أما في غبر الإنشاء فكنت راضياً عن نفسي في دروسي كلها ، إلا مَّا يتصل بالحواشي الأزهرية والتدقيقات اللفظية فكنت أكرهها ، وفلك داء قديم ، ولكن لم تكن هذه توثر

(١) هو المرحوم الشيخ محمد سليمان عنارة .

فى الامتحان إلا ماكان من الامتحان البائى للجنة الازهر ، وكنت متفوقاً على فصلى فى الحساب والحبر والهندسة ، آخا. مكافآتها كل عام .

وتعرضت مرة وأنا فى السنة الثالثة لحادث خطىر كاد يفصلي من المدرسة التي لم أدخلها إلا بعد عناء ــ ذلك أنه أقم سنة ١٩١٠ احتفال في المدرسة لعيد رأس السنة الهجرية ، وعهدت إلى لحنة الإحتفال اختيار موضوع ، فاخترت و أسباب ضعف المسلمين ، وبنيت محاضرتي على أن أسباب ضعفهم ترجع إلى شيئين أساسين : الأول فساد نظام الحكم فى البلاد الإسلامية وما جره ذلك من ظلم الرعية وعسف عريبًا ، واستغلال الحكام لمالها وتسخيرهم قواها لملاذهم الشخصية ، والثانى وجال الدين فقد شايعوا الحكومات الظالمة وأيدوها ، وتآمروا معها وبثوا في نفوس الشعب الرضا بالقضاء والقدر والاعباد على نعيم الآخرة إذ حُرموا نعيم الدنيا ــكلهذا أضعف من نفوس المسلمين وأنخم وأنهك قواهم ، ولا أمل في صلاحهم إلا بصلاح رجال الحكومة ورجال الدين الخ .

فلم أتممت الحطبة دوى المكان بالتصفيق ، ولكن راعى أن استدعانى عاطف بك إلى جانبه ، وقال لى : هل جنت ؟ أمثل هذا يقال ؟ وطلب مى المحاضرة فسلمها إليه ورأيته يسر إلى الشيخ الخشرى كلاماً ، فيقوم بيقب على ويقول إن الهاضر – بالطبع – يقصد الحكومات الماضية ورجال الدين الماضين ، أما الحكومة الحاضرة فلا مأخذ عليا ، وهى العادلة الحازمة ؛ وهى الى رعت مدرسة القضاه وأنفقت عليا وعلمت طلبها وعمرتهم بالخبرات، وأما رجال الدين اليوم فتال الذراعة والطهر والرق .

للا التي الحفل قال لى عاطف بك : إن يقاط فى المدرسة الآن بيد القدر ، فإن ذكرت الحرائد ما قلت واستخدمته فى الأغراض السياسية ضحيت بك حرصاً على المدرسة ... وشاء الحفظ ألا يكون ذلك ، وأن أبني فى المدرسة ... وكان عاطف بك معلوراً ؛ فللرسة عادرها الخليو ويتربص بها الدوائر ويدمى لها الدسائس ، ورجال الأرهر لما كارهون ، وإنما تحدد المدرسة على المحكومة ورضا الإنجليز عها ، فإذا غضيوا هم أيضاً وغضيت الحكومة علها لم يكن لها سند من أحد .

وقد كان الكلام في السياسة وما حولها في المدارس جميعها جرعة كبرى ، حتى كان الكتاب لا يقرر في مدرسة من منارس وزارة المعارف إلا بعد إقرار من المقتشن بأنه خال من السياسة ، والمختارات من الشعر لا تعطى التعلامية حتى يقرها التختيش ، وهو لا يقرها إلا إذا خلت من السياسة بأوسع معاتبا ، فإذا قال المتنبى : ساداتُ كل أناس من نفوسهمو

وسادة المسلمين الأعبد القنزم

أو قال بشار أبياته المشهورة في الشورى أو قال شاعر أو ناثر شيئاً يتصل من قريب أو بعيد بالحكم ونظامه أو الحرية وقيمتها أو نحو ذلك فهذه سياسة محرمة يعاقب علمها المستر و دنلوب ، ، مستشار المعارف الإنجلزى ، أشد أنواع العقاب ، حتى ليرووا أن مدرسة اقترحت كتباً لمكتبنها وكان من بينها المصحف الشريف فاحتج أيضاً إلى إقرار بأنه ليس فيه سياسة ، وقد أعدى هذا جو مدرستنا فلم نسمع طول دراستنا كلمة واحدة من مدرسينا عن السياسة وشئونها والحكومة وتقدها ، والإنجلز وتصرفاتهم --وكل علمنا لهذه الأمور كان عن طريق اتصالنا بالحرائد ، فكنت أقرأ اللواء والمؤيد يوميآ وأنفعل لهما وأتجاوب

ولم أر إضراباً في المدرسة إلا مرتين : مرة كان فيها الإضراب سهلا يسيراً يكاد يكون عاماً ، يوم خرجنا قبل انتهاء الدروس (١٠٠ فيراير سنة ١٩٠٨) نشيع جنازة

المرحوم مصطنى كامل ، وكان يوماً مشهوداً اشتركت فيه حيع طبقات الأمة ونبض فيه قلبها ، وتيقظ فيه شعورها ، والمرة الثانية ــ بعد إتماى الدراسة ــ يوم أضرب فصل من فصول المدرسة ، لأن الناظر حمَّ عليه الألعاب الرياضية في مكان معنن ، وكان هذا المكان مشمساً والدنيا حارة ، فاستأذن الطلبة أن يلعبوا في الظل ، فأبي محجة أن الطلبة عب أن يتعودوا الخشونة في العيش والصبر على الشدائد ، ولكن الطلبة لم يعجمهم هذا القول فامتنعوا عن اللعبووقفوا في الظل لا في الشمس ، فلما علم الناظر بذلك رعب وامتقع لونه ، لأن هذه أول حادثة منْ نوعها ، فحضر في حالة عصبية ولكنه كم غيظه ، وطلب من الطلبة أن يصعدوا إلى فصلهم فأبوا ثم كررها فأبوا ، ففكر لحظة ماذا يفعل ، ثم رأى أن مخاطبة المحموع غير مجدية ، فنادى طالباً بعينه تفرَسَ فيه الحوف والطاعة ، وأمره أن يخرج أمام الصف ففعل ، ثم قال له : إما أن تصعد إلى فصلك أو تخرج من باب المدرسة إلى الأبد ، وكل الطلبة كانوا يعلمون من الناظر جده وصدقه والتزامه تنفيذ وعده ووعيده ، فإذا قال الكلمة ففداوُها رقبته ، فتردد الطالب قليلا ، ثم صعد إلى فصله ، وتفرس أيضاً فنادى الثانى ، وقال له ما قال للأول ، ففعل فعله ثم نظر للجاعة نظر المتتصر الظافر،

وقال لم : أظن أن لا معنى بعد ذلك للإضراب ، انصرفوا إلى فصلكم فانصرفوا وانكسر الإضراب . وكان شعورى الديني ، وأنا طالب بمدرسة القضاء لايزال قوياً كشعوري الوطني بل أقوى منه ، حتى كان طلبة قصلي بسمونني و السُّنيَّ ۽ ، بينيا يسمون غبري الفيلسوف أَوْ الزَّنديق . وأذكر مرة أنْ أحد أساتذنى كانْ ينكر معجزة ئبع الماء من بين أصابع النبي (ص) فحاججته ، ثم انقلب الحدال إلى حدة مني فاحر وجهي وغضبت على أستاذى غُضباً شديداً ، فتقبل غضبي بالحلم والابتسامة الهادئة ... واتصلت بشيخ طريقة صوفية (١) ، وكان رجلا ظريفاً نظيفاً أنيقاً لايظهر عليه أي مظهر من التصوف إلا إشراق في وجهه ورقة في قلبه تظهر في حركاته ، وكان يعمل في الدنيا كما يعمل الناس ، فهو صيدلائي يطلع على كتب الطب القديمة ويصنع منها بعض الأدوية الناجحة في الأمراض ، كنواء للحصوة في الكلية ونحو ذلك ، وكان أديباً يتلوق الشعر ويقول الزجل الظريف ، ويستمع إلى شعر الغزل فيفهمه بلوقه الصوفى ، ويتأوله على طريقة الصوفية . استنشدني

(١) هو المرحوم الشيخ جاد طوان .

^{...}

مرة شعراً فأنشدته ، حتى إذا وصلت فى إنشادى إلى قول أبى تمام : أن ترا

وأنجدتمو من بعسد إنهام داركم

فيا دمع أتجسدتى على ساكنى بجد استوقفى واستعادتى فرأيت اللمع يترقرق في عيد، وفي اليو التالى أسمى تحسيداً لطفياً لحلما البيت سلطيت منه أن يعلمنى طريقة الصوفية ؛ ويتبلنى دمريداً ، فوحد أن يكون ذلك يوم الحممة في قبة الإمام الشافعى ، وذهبنا لمل هناك وانتحينا تاحية وجلسنا وقرأ على المهلد وتابعت ثم أعطانى الدرس

الأول في الطريقة .
وكان يلطف من عناء الدرس في المدرسة مداحيات الطابة .
وعرفوا الدنيا وعرفهم ، ولم لسان طائق ذلق هجاء ، وقدة .
وعرفوا الدنيا وعرفهم ، ولم لسان طائق ذلق هجاء ، وقدة .
فائقة على السخرية اللازعة ، وفيهم السائة - وأشياه السلج ، موالا ، وشيات على المنافق على المنافق المنافق موالا ، وهوالا - ولم يمنى الأصبوع الأول من دخولنا المدرسة .
حتى تكشفت أخلاقنا وعرف بعضنا بعضاً ، وتبيت مواضع .
المقرة ومواضع الضعف في كل منا سواء من الناحية المقلية أو المجود ؟

واتخذ بعضهم بعشاً هزيا ، لعب الماكر الماكر بالأبله الساذج لعب التراد بالقرود ، ووقفوا لم بالمرصاد محصون غلطاتهم ويؤولون تصرفاتهم نما يستجرج الفحك من أعماق القلب . ملما مفغل تتضاحك من غفلته ، وهذا علي تتنادر على غفا ، وهذا جريع الفضب بيج لآئل سبب ، فإذا ماج أتى عمركات بلواتية وانفغ في السب والشم ، فكنا فلا شد . مثر المالية وانفغ في السب والشم ، فكنا فلا .

شركات بلوالية والنافع في السب والشم ، فعنا لدر فقيه ثم نضحك بما يمدلر عنه ، وهلما إذا مشحف تقطت ضحكاته وطالت فكأتما هي بييق ، ومن كل ذلك لحو طريف وضحك عميق ، فكان الطبيعة وضيتنا عن فلما الحلد للعابس والدرس القامي والعناء الرتيب جلمه الفكاهات الحلوة والمرة تفس

وراعى يوماً وآنا فى مدوسة القضاء حادث لم يكن فى الملاسة ولكن عبوارها ، أثر فى أثراً بالغاً فلكرته : ذلك أنه كان بجوار الملاسة بيت ثرى كبير ، له المزارع الواسعة والأملاك الكثيرة من مختلف الأكواع ، وكان يعيش عيشة فضمة أثبقة ، وفيه طبية تجمله على الإنفاق على بعض الأعمال المناق على بعض الأعمال من استغلاله من استغلاله من استغلاله من استغلاله من استغلاله

عن نفوسنا ، وتفرُّج من ضيقنا .

وأغوائه . وكان من عظمته وأبهته وفخفخته أنه لما منت شركة الترام خطا أمام بيته (هو خط الجامنر رقم 17) أبي علمها ذلك مدعياً أن الشارع في ملكه وتحت حكمه ، فكانت عربته تنتظر أولاده صباحاً على الشريط أمام الباب ، فتمنم النرام أن يسىر ، وتقف القطارات صفاً طويلا حتى ينزل أولاد الباشا ويذهبوا بالعربة إلى مدارسهم . وكتب إذ ذاك الشيخ على يوسف في جريدة المؤيد مقالا طريفاً في هذا الموضوع، والباشا وشركة الترام فى نزاع طويل فى المحاكم أيهما المحق. والباشا يسرف ويسرف ، ويبعثر الأموال عيناً وشمالا ،

ولاتكفيه غلة أملاكه الواسعة ؛ فيمد يده يقترض من شياطين المال ، وأخيراً تستغرق أملاكه الديون ، وأمر وأنا في طريق إلى المدرسة فأرى حركة في السراي كبرة ، وأسم الأجراس تدق إعلاناً ببيع أثاث السراى بالزاد بعمد أن

*جُو*ج أهلها منها .

ولا أنسى يوماً أخرج من مدرسة القضاء ، فأرى الباشا الكببر يقف أمام محطة النرام ينتظر مجيئه لركوبه بعد أن كانت عربات البرام الكثيرة تنتظر عربة أبنائه حتى تتحرك

بهم إلى مدارسهم .

هذا أنا ومدرسي . أما أنا وبيتي فقد كان بيتنا هادئاً مطمئناً سعيداً سعادة سلبية ، وأعنى بالسعادة السلبية السعادة الحالية من الآلام . ألما السعادة الإيجابية من فرح ومرح وضحك ونحر ذلك فقد كان بيتنا خالياً منها تقريباً . الإفراط أبى فى جده وحبه للعزلة وحكوفه على القرامة أكثر وقته . وكان بيتنا بثالف من أبوى وأنا وأخ وأخت يكدراني وأخر وأخت بصغراني .

كان أخي الأصغر شاباً مرحاً ذكياً مملوءاً بالحياة ، كثيراً ما يثور على تقاليد البيت التي وضعها ألى ، فهو يتأخر عن موعد العودة ، وهو يذاكر ويلعب وبجد وسهزل ، وكان ذلك يغيظ أبى فيكثر بينهما الحدال والحصام ويزداد ذلك فيصل إلى حد الضرب ـ علمه أبى كما علمي ، والتحق عدرسة تابعة للأوقاف تجمع في تعليمها بين العلوم الدينية والمدنية ، ثم تخرج منها والتحق عدرسة القضاء في القسم الأول ، إذ كانت مدرسة القضاء تنقسم إلى قسمن ، قسم أول ومدته خس سنوات ، وقسم عال ومدته أربع سنوات، وهذا الأخير هو الذي التحقت أنا به ، وكان أخى في السادسة عشرة من عمره ، وقضى ألسنة الأولى في ألمدرسة بنجاح . وتفوق في الرياضة فنال جائزتها ، وجاء الصيف وجاءت الإجازة ، ودعاني صديقي من شبن الكوم أن أقضى عنده أياماً ففعلت ، ورجعت فوجلت البيت واحماً ، ووجدت أخى هذا قد بسط له فراش فى وسط الغرفة وهو

لایکاد یعی من ارتفاع حرارته ، ومن حن لآخر یتألم ويتأوه ، وكل من فى البيت خائف مرتعب ــ ذهبت من فورى إلى الطبيب واستدعيته فحضر وفحصه فحصآ طويلا ثم هزّ رأسه ، ونزلت معه أستفسر عن الحال ، فقال إنها الحسى التيفودية والحالة خطرة ، ولا تمكن العناية به في مثل هذه الحالة إلا إذا نقل إلى مستشنى الحمثيات، ووصف اللواء وطريقة العلاج وانصرف ، ورجعت إلى أمى وألى فى خوف وقلق أشر علمهما بنقله إلى المستشنى فرفضاً ، فالمستشنى كلمة مرعبة مقرون اسمها في ذهبهما وفي ذهن الشعب كله بالموت ، وهم لا يسمونه بالمستشفى كما نسميه ، ولكن يسمونه والأشلاء، ، وحاولت طويلا أن أفهمهما المستشفى ومزاياه وشدة عنايته بالمرضى فى مثل هذه الحال والوقاية من العدوى ونحو ذلك فلم أفلح ـــ اشتد عليه المزض واشتد منا القلق وانقبضت نفسى انقباضاً شـــديداً حَى لأحست أن روحي تكاد تخرج من بين جنبي ، وأخرج من · البيت ولا أدرى أين أذهب ، وأعودُ ولا أدرى لم عدت ، ولم يغن الطبيب ولم يغن الدواء واشتد الحال سوءاً ، وأخيراً وبعد كرب شديد لفظ نفسه الأخبر ، وقامت قيامة البيت ، وامتلأ عويلا وصراخاً ؛ فأما أى فتلطم وجهها حتى تسقط مغشيًا علما ، وأما ألى فيحترق قليه في الباطن ويتجلد في الظاهر ، وتُعدّ العدة لدفنه وتسر جنازته إلى الإمام حيث أعدُّ أبي مدفنه ، ويرفض أن يقيم مأمًّا وأن يقابل أحدًا ، فأقم المأتم وأقابل الناس وينقلب بيتنا محزنة . وكلُّ خيس بجتمع النساء للعويل والصراخ وتدعى (المعدَّدة) تغيى غناء حزيناً بكلام يثير الشجون ، ويقطع القلوب ، فلما فرغت (خساننا) النزمَت أى أن تذهب كل خيس إلى بيت مأتم ، تعرف أهله أو لاتعرفهم ، فكل المآتم سواء ، وكل الحزانى أصدقاء ، وتنفرد بنفسها (فتعدُّد) كالمعددة ، وكل شيء يلهمها البكاء ــ حجرته التي كان ينام فيها ، ومكتبه الذي كان يذاكر عليه ، وكتبه التي كان يذاكر فها ، وأصدقاؤه وموعد الحروج إلى المدرسة ، وموعد العودة مها . فأما أنى فقد صبر على حزن دفين ، حي أبّي إلا أن ينسله بيده ويدفنه بيده ، وكانت سلواه أن يكثر من تلاوة القرآن وسهب مايقروم إلى روحه ، وسمع بكتاب للسيوطى اسمه و فضل الجلد عند فقد الولد ۽ فنسخه بيده ، يتصبر بقراءته وكتابته ،وأما أنا فقد وضع هذا الحادث على عيني منظاراً أسود ، فلا أرى في الدنيا إلاَّ السواد ، ولا أحب أن أسمع من الأصوات إلا صوتالبكاء ، فالشجرة الناضرة إلى ذبول ، والحياة المبهجة إلى فناء ، والحامة إذا غنت فإنما تبكى ، والسعيد إنما يسعد

ليشتى ، وانقلبت في عيني قيم الأشياء ، فهذا الذي يكسب المال لم ّ یکسبه ؟ وهذا الذی یعمل لم ّ یعمل ؟ والناس مجانث إذا تخاصموا ، ومجانين إذا لهوا أوضحكوا ، فالدنيا لاترن جناح بعوضة ، وخير للناس أن يقضوا حياتهم من غير اكتراث حَمَّى يَدْرَكُهُمُ المُوتُ ؛ واستولى هذا الحزن على أسابيم بل أشهراً حتى صميت في مدرسي ﴿ عَالَكُ الحزينِ ﴾ فإذا نسيت الحزن بعض الوقت في مدرسي ذكرته في بيتي من منظر أمى ، ولا تسل عن موقف دقيق وقفته وحرت في التصر ف فيه ، فقد أتى موعد صرف مكافأة المسابقات في المدرمنة ، وكان أخى هذا الذي مات يستحق مكافأة الرياضة ، وهي لاتصرف إلا بإمضاء مستحقها فإذا لم يكن فإمضاء أبيه ، وأنا واثق أتى إذا أخبرت ألى فإنما أشعل فى قلبه نارآ جديدة، وأعيد عليه يوم مأتمه من جديد ، ففضلت أن أترك المكافأة وألاّ أخبر بها ألى .

ومفست سنة ويضعة أشهر والحزن يحول من نار مشعلة لمل نار هادئة قد علاما بعض الرماد ، وجاء رمضان وأنا في السنة الثالثة من مدوسة القضاء فنغر الحرح الذي لما يندمل ، واشتعلت النار التي لما تنطق

كان أخى الكبير في نحو الحاسة والثلاثين من عمره وكان رجلا صالحًا طيب القلب مشرق الوجه في نضرة وحمرة ، ولكنه كان محدود الذكاء ، لم يضطرب أنى في تعليمه اضطرابه فی تعلیمی ، ولم یتردد بین مدرسة وأزهر كما تردد فيٌّ ، فقد حفظ القرآن والمتون ، والتحق بالأزهر واستمر فيه وفى دراسته الطويلة نحو عشرين عاماً ، يثنقل بنن كتب الأزهر ومشاغه ، حتى إذا أتمَّ الدراسة خافمن الامتحان النهائى ، فهو يقدم ثم بحجيم ثم يقلم وبحجيم ، لا مجذبه الطموخ ولا يدفعه إلى المغامرة حب المحد ، قد تزوج وخلَّف ابنا وبنتاً ، وهو وأهله يقيمون معنا في البيت ، وحياته بىن بيته ومسجده وأزهره ؛ فلما جاء رمضان هذا كان برنامجه أن يصوم النهار ويصلى صلاة النراويح فىالمسجد ويعود إلى منظرة البيت يقرأ فها القرآن وحده أحياناً ومع صديق له مكفوف البصر أحياناً حتى السحور ، ثم يتسحر وينام إلى قريب من الظهر ، وهذا دأبه .

ويم إين مربب من شهير ، وهند دايد . في ليلة من أراخر رمضان ممل أخير السفاء والتراويح كاكان يميل ، وحاد إلى البيت يقرأ القرآن كاكان يقرأ ، وتناول سحره كاكان يتغاول ثم نام وتمنا ، وبعد قليل سمعنا صريحة قنا لها ملحورين ، وذهبا إلى مصدر الصوت ، فإذا همي زوجته تصرخ ، وإذا هو مملود على الأرض لابيم، وتناديه فلا يسمع وتستجوبه فلا مجيب ، وليس فيه إلاتكس يتردد ، فحملناه إلى سريره ، وقضينا آخر الليل في رعب لا يوصف، وبكاء لاينقطع وحزن ذكِّر بحزن ، فلما أصبح الصباح ذهبت إلى أكبر طبيب أفرنجي مشهور وسألته أن يذهب معي مبكزاً ، ورأى لوعتي فقبل رجائي ، وحضر معى إلى البيت وكشف على المريض ، فلما تبعته أخبرنى أنه انفجار فى المخ نشأ عنه شلل فى النصف الأيسر ووصُّف له الدواء فأحضرته . وقمت على علاجه أعنى بشأنه ، وأناوله الدواء في موعده حتى أخذ يتنحسن في بطء ، وتحرك لسانه فى ثقل ، وحرَّك يده ورجله فى تخاذل ، ومشى مشية الصبى بدأ يتعلم ، وخرج من البيت مجر رجله وحالته في تحسن مستمر ، والطبيب يعوده من حتن إلى حتن ، ولكن ما لبث نحو شهرين حيى انتكس ، وأصيب ثانياً أشد مما أصيب أولا، واستحضرت له الطبيب نفسه فقلب كفيه مخترني أن لا أمل وكانت النهاية ، وكان الحزن شديداً وكانت المصيبة قاسية ، وكانت النصال تتكسر على النصال ، ولم مجد أنى وأمى من سلوىإلا أن محجا ويقفا بعرفة ويزورا المدينة ويضعا أيدسما على ضريح النبي صلى الله عليه وسلم يسألان الرحمة للفقيدين والصرَ للأبوين.

(17)

لم يعبأ ناظر مدرسة القضاء بالترتيب فعينني مع الثلاثة الأول ـــ وإن كنت السادس ــ مدرساً في المدرسة بعد شهرين من تخرجى ، وابتدع في المدرسة نظاماً لم يكن معروفاً في مصر ، وهو نظام المعيدين ، فأتبع كلُّ معيد بأستاذ كبير يحضّر معه الموضوع ويدخل معه فى الدروس ، ووزع المعيدين على الأساتذة بحسب كفايتهم وميولم ، فهذا معيد مع أستاذ الفقه وهذا معيد مع أستاذ الأدب ، واختارتي مَعِيدًا معه في دروس الأخلاق ، وهذا كان سبيًا في شدة إتصالى به واستفادئي منه ، فكنت أذهب إلى بيته في كثير من الأيام عند تحضير درس ، وكان محضّره من كتب الأخلاق الإنجلىزية ، فكان يقرأ بالإنجلىزية وعليني بالعربية ، وأحياناً ينفرد هو بالترحمة ثم يسمعني ما ترجيم ، وكنا نتناقش في الدروس قبل إلقائها ، وأحياناً بجرنا الحديث من موضوع الدرس إلى موضوع آخر اجباعي أو ديني أو سياسي ، فيعرض آراءه ويستمع إلى مجادلتي ، وقد أثر في أثراً كبراً من ناحية تمكم العقل في الدين ، فقد كنت إلى هذا العهد أحكم العواطف لا العقل ، ولا أسمح لنفسى بالحدل العقلي في مثل هذه الموضوعات ، فالدين فوق العقل ، فإن جاء فيه ما لا يدركه العقل آمنا به ، لأن علم الله فوق علمنا ، وهو أعلم بما يصلحنا وما يضرنا ، وهو يأتى إلا تمكم العقلوالبحث عما لانفهم حتى نفهم ، وكان له غرام بالبحث ، وصبر على الحدل ، وطول نفس في المناقشة حتى ليفضل من يناقشه أن يسكت أخيراً وإن لم يقتنع ، من طول ما أدركه من التحد والتعدد التعديق ألى أهملت مقل المحدد الدين من ألى أهملت المحدد الدين من إعان بالله وجلاله وعظم تدرته فظل ساكناً في أهماق قلمي لم ينل منه أى جدل ولم يتأثر بأى قرامة ، وكل ما في الأمر أنى صرت أكثر تساعا مع المخالفين ، وأوسع صدراً أثن صرت أكثر تساعا مع المخالفين ، وأوسع صدراً

للمعارضين .

واستفدت منه سعة في الأفق ، فقد كان – محكم تربيته فى الأزهر وفى دار العلوم وفى إنجلترا ، ومحكم بيئته الى يعيش فيها ؛ وعالسه الى بجلس إليها ، ومحالطته أمثال معد زغلول وفتحى زغلول وقاسم أمن ــ مطلعاً على كثير من الشنون ـــــ معتنقاً لكتبر من الآراء النيمة بعد البحث والدرس واستعراض الآراء المُتلفة . كما قبست قبسة من خلقه ، فقد كان صريحًا صراحة قد تجرح، صادقاً في قوله ولو آلم، مشتداً في العدل ولو على نفسه ، ملتزماً النظام ولو ضايق نفسه وضايق من حوله ــ أذكر مرة أنه طُلب الشيخ محمد المهدى أعلى درجة بمالية في المدرسة ، وأوصى الحديو بمنحها له ، وكان عاطف بك يرى أن غبره أحق منه ، فاجتمع مجلس الإدارة برياسة شيخ الحامع الأزهر ، وعضوية عبد الحالق باشا ثروت وغيره وكلهم يرى أن المسألة صغيرة لاتستحق مغاضبة الجديو من

أجلها ، فرافقوا على إعطائه وصم عاطف على رأيه ، فلما لم تتجع حجيمه طلب أن تدون في الحضر معارضته ، وستُنح الشيخ المهندى الدرجة بالأغلية فذهب الشيخ مهدى ليشكره، فقال عاطف لا تشكرنى يا أستاذ فقد كنت معارضاً ، قال الشيخ مهدى : إذن فلأشكر الله ، وهو لا يقبل الرجاء يمس به العلل ولو خاصم في ذلك أكبر كبر.

ولما كان وكيلا المعارف تقدم طالب إلى مدرسة هو ابن حمد باشا الباسل وسنه تريدعن السن القانونية فأفي ، وألح معد باشا في قبوله فأني إلا أن يعد أن القانون ويقبل حميم من كانوا في مثل سنه .

لازمت عاطف بك فى دروس الأخلاق هذه سنن ، وكنت كلما تقلمت فى تحضير الدروس معه حملى عبء تدريس هذا العلم تهريحاً . هذا إلى دروس أخرى كنت أستقل بتدريسها من فقه أجياناً ، وتاريخ إسلام أحياناً وغيرذلك . وكان عنائى بالدرس أيام كنت مدرساً لايقل عن عاء الدرس أيام كنت طالباً ، فقد أقضى الساحات الطويلة فى تحضير الدرس الواحد من مصادرة الهنافة ، وأكنب المذكرات العالمية فى كل مادة أدرسها .

وانصلت بصديقى وأستاذى أحمد بك أمن ، فقد درس لنا بعض المواد القانونية أيام كنت طالباً ، فلما تخرجت انقلبت

الاستاذية إلى صداقة ، في إجازة من الإجازات الصيفية اتفقنا على أن نقرأ كتاباً في أصول الفقه ليقارن بينه وبين أصول القوانين في التشريع المدنى ، فكنا نجتمع كل يوم صباحاً ونقرأ نحو ساعتين في كتاب و الموافقات ۽ للشاطبي ، وبعد أيام من قراءتنا في هذا الكتاباقترح على اقتراحاً غريباً ، وهو أو نقضي إلى قراءتنا في أصول الفقه ساعة في دراسة الآثار الإسلامية ، فأحضرنا خطط على باشا مبارك نقرأ فهاكل يوم الآثار الموجودة في شارع من شوارع القاهرة ، من مساجد وتكايا وأسبلة وبيوت أثرية ونحو ذلك ، فإذا جاء العصر التقينا في أول هذا الشارع ، ومررنا على كل مسجد ، ندخله ونطبق ماكتبه على باشا مبارك فى خططه ، ونعرف تاريخه ومن بناه ، ونقرأ اللوحات! الرخامية التي تمدنا سلم المعلومات ، واستمررنا على ذلك نحو ثلاثة أشهر أتممنا فيها. كل شوارع القاهرة ، وألمنا فها بكل آثارها ، فكان درساً غريباً مفيداً .

وإلى جانب ذلك الشقت جداً إلى أن أهرف لغة أجمية . فهولاء أسائلق العصريون يُدلون بمعرفهم لغة أجنية – هلما يُسكل بلغته الفرنسية ، وهلما يثل بلغته الإنجليزية ، وكل يعتمد طلبا فيتحضير هووسه ، ويذكر لنا أنها تسايرالزمان ، حى إن الكتاب المؤلف في علم منذ عشرسنوات لايصلح أن يكون مرجعاً اليوم إلا بعد التعديل ، لا كالكتب الأزهرية التي يدعي أنها تصلح لكل زمان ومكان ، ولأن هؤلاء الأساتذة كانوا يقولون دائمًا إن من اقتصر على اللغة العربية يرى الدنيا بعين واحدة ، فإذا عرف لغة أخرى رأى الدنيا بعينين . وكانَ من البواعث على هذا أن أحمد بك أمن قال لى يوماً : إن على باشا مبارك في خططه أهمل إهمالا كبراً ، إذ لم يذكر شيئاً عن بيت شاهبندر التجار في حوش قلم ، مع أنه بيت أثرى عظم ، عمل الحياة الحاعية في القرن الذي بي فيه . وقد اكتشفته في كتاب إنجلزي في الآثار ، ألفه بـديسكر بالألمانية ، وترجم إلى الإنجليزيّة . لهذا فكرت أن أتعلم لغة أجنبيــة ، وحرت بين الإنجلزية والفرنسية ، ثم فضلت الفرنسية اعباداً على أتى تعلمت مبادئها في صغرى وأتممت دروسها إلى السنة الرابعة يوم كنت فى مدرسة والدة عباس ياشا ، فاستذكار القدم والبناء عليه أهون من الابتداء في تعلم لغة جديدة ، ومحثت عن مدرس واتفقت معه على أن يهرْس لى أربعة دروس فى الأسبوع ، واشتريت الكتب ، وبدأت أذاكر الدرس الأول ، وَلَكن ـــ للأسف ـــ وقع اختیاری علی مدرس خائب ، فهو لا محتفظ بموعد ، ولا مهم يدرس ، وصرت عليه صبراً طويلا حتى مللت وانصرفت عن الدرس إلى حين . وفى هذه المدة اتصلت عزب الأمة الذى تكوّن بجانب الحزب الوطني ، وحزب والإصلاح على المبادئ النستورية،، وعلى الأصح اتصلت بجريدته المسياة ؛ بالحريدة ؛ التي كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطني السيد ، وكانت حجرته في الحريدة منتدى لحمهرة من الشبان المثقفين ، ومن حين لآخر كانت تلتى فى فناء الدار محاضرات سياسية يدور حولها الحدل . ولست أنسى يوماً كان محاضر فيه الأستاذ أحمد لطعي السيد ، وكان محضر الحفل عددكبير من رجال السياسة منهم الشيخ على يوسف و إبراهم الهلباوى ، فما نشعر إلا وقد أطار حماعة من طلبة الحقوق حماماً أعدوه معهم لهذا الوقت تنكيلا بإبراهم الهلباوي إذكان محامياً عن الإنجليز في حادثة دنشواي الى كان سبها الحام ، وساد الهرج والمرج ، وخيف علىالشيخ على يوسف وإبراهم الهلباوى من الاعتداء . فحضر البوليس ومكنهما من الخروج آمنين ، وقد استفدت من هذا الاتصال شيئًا من الثقافة السياسية والاجتماعية بفضل أحاديث أستاذنا لطني ، ومحاضرات المحاضرين والاتصال بنخبة من خبرة المثقفان

استمررت مدرساً فی مدرسة القضاء سنتين . وکانت هناك مشكلة هم أنى لم أنجح فى الكشف الطبى لقصر النظر ، فعينت ر ظهورات) حسب اصطلاح المستخدمين، ومعمى هذه الكلمة إذ يكنى إشارة من الرئيس بالاستغناء عنه فيستغنى . أما الموظف الثابت أو على حد تعبيرهم (المثبّت) فله الحق فىالمعاش، ولا يُخرج من الحدمة إلا تمجلس تأديب يقرر فصله ، وهي منزات لايستهان لها ، وأنا من طبعي تفضيل التدريس على القضاء ولكن أود لوكنت مدرساً (مُثَبِّناً) ففكر عاطف بك حرصاً على مصلحتي أن أعين قاضياً لمدة قصرة ... والقاضي يعنن بمرسوم ، ولا محتاج من يعين بمرسوم إلى كشف طيى ... فإذا عينت قاضياً كنت (مثبتاً) ، فإذا انتقلت إلى مدرسة القضاء نقلت (مثبتا) وكذلك كان . ولكن أتت مشكلة أخرى وهي أن مدير المحاكم الشرعية أبي إلا أن يعينني قاضياً في الواحات الحارجة ، وهي بلد بعبد يشق انتقالى إلىها على أبى وأمى اللذين أصبحا لابجدان عزاء من فقد أخوى إلا بقائي بينهما ، فحاولت ما استطعت وحاول عاطف بك ما استطاع أن يغير الواحات بأى يلد آخر فلم نستطع ، فتوكلت على الله وقبلت الوظيفة واستعددت للسفر إلى الواحات . وقد قضيت فها ثلاثة أشهر ، ولا أدرى ما الذي بعثني

على أن أدون مذكر ات يومية لهذه الرحلة فلأنقل هنا بعضها :

أن الموظف الذي يعين على هذا الشكل ليس له حق فىالماش عند بلوغه السن ، وليست له ضهانات فى بقائه فى الوظيفة ،

الأربعاء ٢٣ أبريل سنة ١٩١٣ :

اعترمت السفر إلى الواحات الحارجة ، وذهبت إلى المحطة وودعني عدد كبر من طلبة المدرسة ومدرسها ، واعتذر الناظر لارتباطه بموعد آخر ، وكان وداعاً مؤثراً حقاً اختلط فيه شعور الفرحالشديد بالحزن الشديد ـــ فرحت لما رأيت من مظاهر الوفاء والإخلاص ، حتى جرى الطلبة ِ مَعَ القَطَارَ فِي بِنَهُ تَحْرَكُهُ وَآثَارَ الحَزِنُ بَادِيَةً عَلَى وَجُوهُهُمْ ، وحرنت لحالة أبي وأى وفراقهمًا من غير عائل يعولها ، ووصلت إلى أسيوط في الساعة الثالثة بعد نصف الليل وذهبت إلى أقرب فندق ، وفى الصباح سألت عن المحكمة الشرعية فوجدتها في بناء حيل فرش فرشاً حميلا ، واستقبلني رئيس المحكمة(١) استقبالًا حسنًا ودعاني للغداء معه ، وعرض على " في المساء أن يزيرُني بعض بيوت الكبراء ، وتقابلنا وأزارني بيت الهلالي ، وبيت خشبة ، وعندما زرنا البيت الثاني وجدنا مدير أسيوط هناك ، محف به كثير من الأعيان ، فاستقبلنا استقبالا فاترأ ، ثم جلس يتحدث والقوم منصتون كأن على رءوسهم الطير ، يؤمنون على كلُّ ما يقول ولا مجروً

⁽١) وهو فضيلة الشيخ أحمه هدايب .

أقباط أسيوط ومسلمها ، وأن الاتباط آكثر جداً في الحياة وسياً فى طلب الرزق وحوصاً على ما ينخل فى يدهم من مال وأكثر تعليا لأولادهم ، وأكثر قبولا للمدنية الحديثة ، وأن المسلمين يجب أن يسيووا سيرم ويعنوا بأمورهم وهم

أحد أن نخالفه فى قول ، وكان موضوع حديثه المقارنة بين

۲٦ أبريل :

بعد أن قضيت يومين في أسيوط رأيت فهما المدينة ومبانها ومتاجرها ومساجدها وخزَّانها ، ركبت قطار الصعيد في السَّاعة الثالثة بعد نصف الليل ، فوصلت مواصلة الواحات فى الساعة السابعة صباحا ، ثم انتقلت إلى قطار الواحات ، فسار القطار سبراً بطيئاً وبنت لي الصحراء متسعة الأرجاء ، طوراً عد الناظر نظره فلا يرى إلا أرضاً مبسطة كلها رمال ، وطوراً یوی هضبات مرتفعة ، ومررت علی أرض يسمونها و غيط البطبيخ، ، لأتها أرض رملية واسعة بعثرت فيها أحجار مكورة كأنها البطيخ ، وكان لون الرمال مختلف كلما سرنا فتارة أحمر وتارة أصفر وتارة غيرهما ؛ وظلُّ هذا منظر الصحراء حتى وصلت بلدة المحاريق فى الساعة التالثة بعد

أسرع القطار لقطعها في ثلاث أو أقل ، وكان محزنني أثناء الطريق ذكرى أبوى الشيخن وحنيني إلى وطني وألمي من غربتي ، فلما قاربت الوصول إلى الخارجة ، مررت على مركز لشركة إنجلزية أنبثت لتستغل أرض الواحات ، فرأيت إنجلزين يقفان في الشمس يشرفان على العال ، فقلت فى نفسى أيأتون من إنجلترا الباردة إلى الواحات المحرقة طمعاً فى الكسب وأملا فى النجاح، ويعيشون عيشة فرحة مستبشرة، وتأتى أنت من بلدة في مصر إلى بلبة أخرى في مصر ، ليس بينهما إلا أقل من يوم ثم تحزن وتبكي ؟ - خجلت من نفسي وتبين لى سبب من أسباب نجاحهم وإخفاقنا وغناهم وفقرنا . وعاهدت الله ألا أحزن بعد ذلك ولا أبكي .

الساعة الرابعة ، فكانت مدة الطريق نحو تسع ساعات ، ولو

٩٩ أبريل:
تزلت يومين ضيفاً على معاون الإدارة ، إذ لم يكن الراحة مأسر وإنما يقوم مقامه معاون ، ومحمت عن بيت أسكنه ، واخمراً اعتديت المبيئة موحد ما وأبيت أجرته تمانون قرقاً في الشهر دوران بنيا بالطوب الدين ، ومنفنا مجلوع النظل.
إذا فتُحت شبابيكم أسندت بقطع حجرية ، أحسن ما فيه أنه يسيط خلا من كل مظل من

ناحيته البحرية على بسائن زرعت نخيلا ومشمشاً وبرتقالا ، ويطل من ناحيته الحنوبية على الصحراء الرملية ، وبعد أن استراحت فيه قليلا سمعت الباب يدق ، فجاءنى الحادم يقول إن أخا المأذون بالباب ، فأذنت له ، فدخل ووراءه غلام محمل صخفتين في يديه ، في إحداهما لحم نبئ ، وفي الأخرى أرز غبر مطبوخ . قلت : ما هذا ؟ قال هي هدية من أخي المأذون ، فاعتذرت في رفق . فأخذ يتلو على الأحاديث الكثيرة فى فضل الهدية وقبولها ، فاضطررت أن أعتذر فى عنف ، وبعد ساعة أو ساعتين دق الباب ثانية ، فإذا مخادم العمدة نحمل معه عشر برتقالات ، وهي في نظرهم هدية ثمينة ، لأن زمن البرتقال قد انقضى من الواحات وأصبح فها تحفة ثمينة ، فاعتلرت أيضاً .

٣٠ أبريل:
 زرت الخارجة ، وقد علمت أن عدد سكان بلداما

روك المحارجية ، وقد طلمت ال علقد محامل بشديم كلها ٨٩٨٣ نفساً ، وأكبر بلادها الخارجة ، فهي تزيد عن خسة آلاف ، ثم باريس فهي ألف وبضع مئات ، ثم بولائ وهي تزيد عن الألف، ثم جناح وهي تزيد عن أربعائة . أكثر كسبم من النخيل في موسم البلح ، وهم يزرعون القمح والأرز والشعر والفول السوداني والمشمش والزيتون يبلرون تسحهم لأنهم إن فعلوا ذلك خرج المحصول فى غاية الضعف والصغر ، وبيوتها كبيوت قرى الريف المصرى الحقىرة ، مبنية بالطن مسقوفة بجريد النخل، وبعض شوارعها مسقوف وبعض أجزاء هذا السقف واطئ حتى يضطر السائر أن ينحني وهو يسعر انحناء يقربمن الركوع ، وترى الرجال والأطفال إذا مرَّوا في هذه الشوارع مساء محملون أعواداً من الخشب يشعلونها ليهتدوا بها ويتقوا العقارب . فها طائفة من العميان يعملون سقائين وهم يسيرون حماعات وعلى ظهورهم القرب ، محملون الماء من العيون إلى البيوت ، وليس ما سقاء إلا أعمى ، وأغرب مناظرها منظر العيون تنبع من الأرض وتجرى في الحداول ، وبعضها

طبيعى وبعضها مصنوع ، ويعضها كبير وبعضها صغر ، وبعضها قد بذل فى عمله جهد كبير ، وبعضها يدل مظهره على أنّه من أثر الرومان ، والناس بملكون ماء العمن بالساعات ، قسم الأسبوع إلى ساعات ، فنهم من مملك العن ساعتين أو ثلاثاً أو أكثر فى الأسبوع ، يستى فها أرضه وزرعه.

والبرتقال وقليلا من البطيخ ، وحب الفسح والأرز ضئيل كأهلها وحيواناتها ، وقد أخسبرت أنهم إذا أرادوا أن يزوعوا قمحاً فلابد أن يأتوا بالتقاوى من الصعيد ، ولا

۷ مايو :

زرت كتاباً فى الحارجة ، وهو أسطوانى الشكل ببى على صرة وليس نه منفذ المشوء إلا الباب ، أرضه طن جاف ليس مفروشاً بشىء إلا بعض أبراش فى جوانب الحبيرة يجلس علها الأطفال ، وسألت عن الفقيه فلم أجده ، ورأيت الأطفال يقرأون فى ألواح من الصفيح طلب بالطفل وهم يطلوبها كلما مسحوا الارح وجندوا الكتابة ، وافت نظرى طفل كبر ، أشلت لوحه فوجنته قد كتب به المعودتين وبعدها : « وقد م طبع هلما المصحف الشريف فى مطبعة كذا » . وهو مختفه على أنه من القرآن الكرم .

۹ مايو :

صليت الجمعة في مسجد البلدة ، وأغرب ما سمت أن الخطابة كلها كانت حناً على الزهد وتحليراً من السفر إلى أوروبة تقضاء الصيف مع أن أهل الواحات زهاد يطبعهم لايجنون ما يأكلون إلا بعد النتاء ، وما سموا قط باسم أوروبة إلا من الخطيب وما حدثهم أنفسهم حتى ولا بالسفر إلى الصعيد ، ولكن لا عجب فالحطيب عفظ خطيته من ديوان مطبوع من غير نظر إلى ما يلام وما لايلام . وطلب مي أن أقرأ درساً بعد الحمعة فقرأت درساً موضوعه والحث على العمل ومضار الكسل ، واعتقادى أن لا قيمة لملنا الحديث وهذا الدرس ، فهم لايصلحون إلا بإصلاح بيثهم .

۱۰ مايو :

اليوم جلست أول مرة في مجلس القضاء فتهيبته ، لأنى . مع دراسي الفقه بأكمله دراسة واسعة عبيقة ، وأصول الفقه بأكملها دراسة واسعة عميقة كللك ، ونظام القضاء والإدارة سواء فى ذلك القضاء الشرعى والأهلى والمختلط ، ونظـــام المرافعات وما إلها ، وعرضت علينا نماذج كثيرة من القضايا وحيثياتها وأحكامها ، وزرنا بعض المحاكم واستمعنا لبعض قضاياها ، ودرسنا يعض القضايا العويصة ذات المبادئ ؛ معكل هذا تهيبت هذا المحلس وخجلت من نفسي ، وخجلت ممن حولى ولم أدر ماذا أفعل ، وكان موضوع القضية طلب . امرأة نفقة من زوجها الغائب ، وجلس الكاتب عن بميي ونادى الحاجب المدعية فحضرت ، ونادى المدعى عليه فلم محضر ، وإلى هنا ارتبكت ولم أدر ماذا أملي على الكاتب ، فهربت من الإملاء عليه وحكمت في القضية حيَّيا اتفق ، وأمرت الكاتب أن ينتظر ، ورفعت الحلسة ، ثم عدت إلى سجل القضايا أمحث عن قضية مثلها لأتعرف كيف كتب

فيها ، ثم أمليت على الكاتب على نمط ما فى السجل مع نغير أسماء الأشخاص ومقدار النفقة وكان موقفاً محجلا حقاً يدل على أن العلم غمر العمل .

۱۳ مايو :

كتب إلى صديق وأستاذي أحمد بك أمن كتاباً ظريفاً مفيداً ، ومما جاء فيه : ﴿ إِنْ كُلُّمَةُ وَاحَةً مَصَّرِيَّةً قَدَّمَةً مُ وإن الواحات الخارجة هذه كان اسمها د واحت رست ؛ أى الواحات الحنوبية ، وإن كلمة واحة كان معناها في الأصل الكفن أو المومياء ثم صارت تطلق علىمقر الأبر ار من الأموات، لأن قدماء المصرين كانوا يعتقدون أن الواحات الحارجة هي مقر الأبرار ، وأن الواحات الداخلة مقر الأرواح ، وقد قرأت فيا قرأت أن عندكم بلداً اسمه تادروه به ثلاثة معابد ، منها معبد من عهد البطالسة ومنها معبد من عهد الرومان ، وقرأت أيضاً أن الواحات الخارجة كانت في أول عصر المسيحية مقراً للزهاد من المسيحين الذين انقطعوا عن العالم للعبادة ، ولم من الآثار بتلك الحهة مقبرة كبيرة تسمى البجوات بها نحو ماثني قبر ، ولا يزال ببعض هذه القبور نقوش حسنة ﴾ . وقد أثّر فيّ هذا الحطاب فعزمتأن أزور الآثار القديمة الموجودة بالخارجة ، كما فعلت مع صديقي هذا في زيارة الآثار الإسلامية.

١٤ مايو :

بعض موظنى الحكومة هنا يتزوجون زواجا يشبه زواج المتعة ، فالموظف مختار فتاة يستجملها ويتزوج بها ، فإذا حلت فى عينه فتاة أخرى طلق الأولى وتزوج الثانية ، وتبقى معه الزوجة إلى أن يصدر الأمر بنقله من الواحات فيطلقها ويرضما بقليل من المال . وقد تأتى منه بولد أو أكثر ، فبعضهم يترك الزوجة وأولَادها ،ويعضهم يأخذ أولاده معه ،

ويترك زوجته بعد أن يطلقها ، ولكن أكثرهم يتحرجون من الإنسال ، ويتخبرون الفتاة العاقر أو المرأة المرضعة حيى

وعرفت هنا ستة موظفين تزوج مهم هذا الزواج ثلاثة ، وقد عرض علي" مثل هذا الزواج فأبيت لاعتقادى أنه مناف

للمروءة وأنا قادر على ضبط نفسى وقد الحمد .

۲۲ مايو :

أنا هنا في حماعة من الموظفين أستغيث بالله منهم ، كللا الجنم بعضهم ذكروا الغائبين بالسوء في سيرتهم وبيوتهم » ويظهر أن سبب ذلك أن الحكومة تجعل من بن عقوباتها نقل الموظف الذي أساء السرة إلى الواحات أو إلى أقصى الصعيد، فكأن سكان هذه البلاد قد حكم عليه ألا يروا موظفآ صالحًا ، ولم ينطبق على هذا القول لأن القضاة الشرعين كاتوا إذا نقلوا إلى هذه البلاد البعيدة أتوا بشهادات طبية تثبت أن جو هذه البلاد لايلائمهم . فلما ضاق مدير الإدارة الشرعية ذرعاً بذلك عزم أن يعن في الواحات الحدد الذين يقدمون عند تعيينهم شهادات صحية تثبت لياقتهم ،وقلما اجتمع هؤلاء الموظفون من غير أن يتسابوا أو يتضاربوا ، وقد وضعت لنفسى خطة ألا أسايرهم فى الڤول ولا العمل وأن أتحاشى الاجتماع بهم إلا عند الضرورة .

۲۸ مايو :

عمل في المحكمة قليل جداً، فكثير من الأيام بمر من غير على، أو بإنضاء ورقة أو ورقين ، وعدد القضايا قليل ، وأكر المنازعات بفصل فيا اللومندة أو الرجال المعروفين بينهم ، ومن عادق أن أذهب إلى المحكمة كل يوم في الساعة التاسمة والنصف صباحاً ، ويخدراً ما يأتى زائوون من موظفين وأمال فأجلسهم لمل الساعة الثانية عبرة ثم أهود إلى منزل وأنفذي وأنها من المحتب إلى الساعة التانية عبرة ثم أهود إلى منزل وأنفذي المساحة للنابة عبرة ثم أهود إلى منزل وأنفذي

أو أخرج إلى الصحراء ، ثم أعود إلى يبقى فأتعشى وأثراً في الكتب إلى الساحة العاشرة فأنام ، وأضح قبل طلوع الشمس فأفرأ في يمض الكتب حتى يأتى ميماد الحكتة وهكذا ، والحياة يوم واحد متكرر ، ويوم الكلائه هو اليوم الذي تحوطه هالة كبيرة ، فهو اليوم الذي تحوطه هالة كبيرة ، فهو اليوم الذي يوم اللائلة عو طول الأسبوع ، فاليوم يوم السبت ؛ إذاً بتى على يوم الكلائه، واليوم يوم الأحد إذاً بعد خذ يوم اللائلة،

فمتى يكون عصره ؟ إنه الوقت الذي محضر فيه العريد من

السادسة ، فأجلس أمام الباب أو أقابل زائراً أو أرد زيادة

٣١ مايو :

القاهرة كلُّ أسبوع .

(۱) لملاح الربو

شاهدت أسس أوروبيا في الخارجة وسعه رجل من أهلها ، وقد علمت أنه يأتى كل سنة الشجارة في توج من النبات يثبت جول الحارجة وفي بعض جبالها واسمه والسكتران ه مجمعه له بعض الناس وبيمونه له كل قطار بعشرين قرشاً ، وهو يصدو إلى الخارج لاستهاله في بعض الأهوية (20 واقد أعلم بكم يبيع القنطار ، وهكذا يستغلنا الأجنبي دائماً ،

¹⁸⁴

ونقنع بالربح القليل دائمًا ، ويعيش هو من مجهودنا في القصور الفخمة والثروة الضخمة .

ليس في الواحات بق ، إنما يكثر فها الذباب والناموس فى موسم البلح ، وفى الأسبوع الأول منَّ سكنى فى بيَّىرأيت فيه عقربًا فقتلتها ، ومساء أمس وجدت بقرب بيتنا حية يبلغ طولها نحو خسن سنتيمتراً ، وقطرها نحو سنتي ونصف ،

سمعها الحادم وهي تنفخ في الظلماء ، فأتى بمصباح وتتبعها وقتلها ، ورأيتها بعد قتلها وهي تتلوى ، فنغص ذلك عليٌّ وربِّي لى الوسواس ، فأنا كل ساعة أتخيل عقربا أو حية . عجبت للإسلام واللغة العربية وقوتهما وانتشارهما ، فليس

فى الواحات إلا مسلم،وليس فيها إلا من يتكلم العربية وحدها.

لا أطيل على القارئ سهذه اليوميات التي استمرت ثلاثة

أشهر ، وقد أحست فها بفراغ طويل ، عريض ، لأن القضايا التي عرضت في هذه الأشهر الثلاثة كانت تسعاً فقط من أبسط الأنواع ، ويكنى فى القصل فيها ساعة من الزمان، فلأت فراغي بشيئن : الرحلات إلى الآثار الموجودة

بالخارجة ، وقراءة الكتب . فأما شغني بالآثار فكان عجيباً حَمًّا ، لأن الآثار الموجودة آثار قديمة وثقافي فها محدودة أو معدومة ، وربما كان السبب في شغني بها ما تولد عندى من حب الآثار والإصجاب بها يوم كنت أزور الآثار الإسلامية مع صديق أحمد بك أمن ، وقد كنت في كثير من الأحيان أجمع من الأحيان أجمع من الأحيان أجمع من الأحيان أجمع من اثر ، وكانت هذه الآثار يسنها فارسية من عبد احلال القرس لمصر، ويعضها من آثار قداء المسريين، ويضها رومانية ، ويعضها مقابر مسيحية لاتراك تحفظ بحيث المرق أحكانها ، بل لايزال بعضها متفاتم بشراراً أمي بارز الآسان ، ويعضها — وهو الأكثر — أيض الوجه منار السية من الوجه منر زاوية الرجه .

وكانت أمتح رحلة من هلما القبيل رحلي إلى باريس ، وهى بلدة حقيرة تمحل اساكبراً ، وبدائية بدوية تمحل اسم أكبر مدينة مدنية ، ولا أدرىكيف أطلق عليها هذا الاسم ، وهى تبعد عن الحارجة نحو مائة وعشرين كيلو.

أهددنا العبة لهذه الرحلة من ماء وزاد ، وخرجنا على ثلاثة من الإبل من نوع الهجن، طبيب الواحات وملاحظها وأنا . وكنا نسير عصراً وبعض الليل ، وصبحاً وبعض النهار، وننصب خيمة في الظهرة ناوي إلها عند اشتداد الحر.

وتصب حينه في السهرة فاوق يهم كنا المدين وماً اشتد حره وجف ولست أنسى مرة وتمن في الطريق يوماً اشتد حره وجف هواؤه ، وقد أكلنا أكلة ثقبلة لاتناسب السفر ، ثم ركبنا واشد بي العطش ، وكلما شربت تقلقل الماد في يعلى من هزة إلهجين ؛ ثم أهطش فاشرب ، فلم الملت الشرب أخرجت ليحونة من جيبى وقطعها ، وأخلت أمصها من حين إلى آخر، فما هو إلا أن رأيتي وقد انقبضت حنجرتى ولم أستعلم أن كلط نفسى من فعل الليمون مع جفاف الحواء ، فاللشت إلى الطبيب أستنجله بالإعارة ، فاصرح إلى الزمزمية وصب الماء في حلق . . . ولو تأخر ذلك بضع ثوان لهلكت ، ولكن

ورأينا فى الطريق بعض آثار قيمة وعيوناً رومانية وشجر الدوم الكثير . وقد وصلنا البلدة ثانى يوم مساء، ورأينا أرضم الميقة بها من أجود أنواع الأرض ، مساخات واسعة ليس يقصها إلا الماء لتنتج أحسن الزرع . ورأينا البلدة مملوحة بالأطفال اللمين لا عائل لم عن أثر حمى تيفودية اكتسحت آبامهر فى العام الماشى .

وفى قومها كرم عربى ولهجة عربية حميلة ، كنت أتلذة أمن ساعها وخصوصاً من النساء اللائى كن يترافسن إلى فى شكرى أنواجهن، ورأيت أهلها فى نزاع طويل شديد، حتى علمت أسم فى السنة الماضية لم يزرعوا أرضهم عناداً فيا بيهم ورأيت ما آثاراً قيمة زرمها وأصبحت مها . ولأهلها بعض عادات غربية ، فإذا مات مهم كبر لبس

انساء أحسن لباس عندهن وأجده ، وإذا كان له سبف أو بندقية أمسكنها زوجته أو قريبته بيدها ووقفت تندب المبت وقد تصاب بجروح مما في يدها .

وفی عودتی من باریس رأیت السراب وماکنت رأید ، کنت آری عراً متسماً زرعت علیسه أشجار ، ولا مر ولا أشجار . ولانساع الصحراء وتلاعب الریاح فیا کنت أتخیل آخیاتاً أن أحداً درامنا مجری ویتکلم ، ثم التفت فلا أری شیقاً ، فظفت أن هذا هو ما کانت تزعم العرب أن الحن حدثها أو هضت بها .

وفى الطريق دروب ، وهى خطوط صنعها أقسام السائرين ، وإذا وصلنا لمل أرض حجرية ضاح الآثر ، وكان السائر عرضة أن يضل الطريق . وقد سمت وأنا بالخارجة حديث قوم ضلوا فاتوا ططأ . وقد انحرفنا نحن في سرنا مرة انحرافاً قليلا سرنا من أجله ساعة حي وصلنا

إلى الطريق السوى". أما الأمر الثانى الذى كنت أقضى فيه وقمى فطالعة الكتب : ومن أحسن ما قرأت فى هذه الفترة كتب ثلاثة مختلفة الأنواع والألوان : كتاب تاريخ الفلك عند العرب للأستاذ نلليغ ، قرأته بإمعان واستفلت منه كيف يبحث كبار المستشرقين،، وكيف يصبرون على البحث ، وكيف يعيشون فى المادة التي تحصصوا فيها ، وكيف يسعرون فى محمهم من البسيط إلى المركب فى حذو وأناة . فإذا قلت إننى استفدت مهج البحث من هذا الكتاب لم أبعد عن الصواب .

والكتاب الثانى أصول الفقه الشيخ الحضرى ، كنت قرأت يعضه وأنا طالب ، فأعدت قرامته على شكل آخر أطبق فى قرامته ما استفدته من عاطف بك بركات من حرية فى الشد وإعمال العقل فيا يقرأ ، فكنت أقرأ القصل وأديره فى ذهنى ، وأتسامل : هل هذا حتى أو باطل وخطأ أوصواب؟ فإن كان خطأ فا وجه الصواب؟ فإن كان فيه وتقدى له .

وأما الكتاب الثالث فن الأدب وهو ديوان الحاسة وشرحه . أقرأ القميدة أو القعلمة وأعرف معى ألفاظها اللغوية ومعى البيت في الحملة ، ثم أعيد قرادته ، وما استحسنته من الديوان حفظته .

وفى هذين الأمرين كانت سلواى .

وبعد ثلاثة أشهر بينها إجازة شهر جاءنى كتاب من محكة أسيوط الشرعية ، عبرتى بنقلي من القضاء إلى مدوس مملوسة القضاء .

(11)

علت إلى مدرسة القضاء كما كنت ، ودرَّست كاكنت أدرَّس ، أهم دروسى دروس الأعلاق ، وبجانها فقه أو تاريخ أو منطق .

وأحسست ثانية حاجى الشديدة للى لفة أجنية ، فدومى فى الاعملاق مصدوها ملكوات عاطف بك التي نقلها عن الإنجلزية ، وأنا شيق إلى أن أتوسع فها ، ومن حول من الإسائذة العصرين يستفيلون أكبر فائلة فى مادمهم التي بحضروبها من اللغة الإنجلزية أو الفرنسية ، وقد أخفقت فى تعلم الفرنسية ، فلأجرب حظى فى الإنجلزية .

ويوما قابلت صديق أحمد بك أمين ، وجلسنا في مقيى ، وذهب الحديث فنوتاً إلى أن وجنانه يقول إنه عثر على كتاب إنجلزى قم لمستشرق أمريكى اسمه مكمونالد⁽²⁾ ، وأنه تسم كتابه إلى ثلاثة أتسام : قسم يتعلن بنظام الحكم في الإسلام ، وقسم في تاريخ الفقه الإسلامي، وقسم في الملامب والعقائد الإسلامية . وأخذ يطرى الكتاب وعمكي بعض آرائه ، فاستفرق لمارضوع وقلت : هل تستطيع الآن أن تلمب معي إلى مدرسة (برايتز) لأرتب دوصاً لل في الإنجليزية فقيل ،

⁽ ز) ماما الكتاب من Theology of Islam,

إنجلزية يظهر علمها أنها فقعرة الحال ، تحسن الإنجلنزية لأنها إنجلزية ، وإن لم تكن مثقفة إلا الثقافة الضرورية . وبذلت ف ذلك جهودا شاقاً ﴿ أَقُرا فِي البيت وأحفظ في الطريق وأذا كر إذا كنت مراقباً في الامتحان أو مشرفاً على حصة ألعاب رياضية ؛ والدراسة مهذا الشكل عسرة إذ لم أكن في فصل يتعاون الطلبة فيه على التعلم ، ولم أكن في بيئة تُعَوَّدُ سمعي اللغة ، ويقول لى الشيخ الحضرى ، لقد جرَّب هذه التجربة مثات من طلبة دار العلوم ، فساروا خطوات ثم وقفوا ، ولم ينجح منهم إلا من كان بعثة إلى إنجلترا ، فقلت له سأحرب كما جربوا ولكن مأنجح إذا فشلوا . وبعد شهرين في هذا الحهد أحضرت كتبياً صغيراً عنوانه د الاسلام lalam ، تأسيد أمر على ، وقلت إن موضوعه معروف لى ومعرفة الموضوع تعين على القهم . ولكني قرأت الصفحة الأولى فلم أفهم ، فظلت أصرف أكثر من ثلاث ساعات في الصفحة ، أكشف في المحجم الإنجليزي العربي عن كل كلمة حيى و من ۽ وو عن ۽ وأنا جاد صابر. ومكنت على ذلك سنة ، أتممت فيها الحزء الأول والثاني من كتب

وأقسمت أن أتعلم وأن أقرأ هلما الكتاب فى لغته ، وذهبية ليل المدرسة ورتبتا دروساً ثلاثة فى الأسبوع عائة وخسين قرشاً كل شهر . واشتريت الكتاب الأول ، وتولى تعليمي سيلة برليز وبلأت الحزء الثالث في السنة الثانية . وفيه بعض فصول في الأدب الإنجليزي وتاريخه ، فأحسست أن هذه الملوسة غير ملمة بتاريخ الأدب وأنها لا تصلح لتنويس هذا الكتاب، فيحت عن مدرس آخر أو مدرسة أخرى .

بحثت عن مدرس اخر او مدرسه اخرى . ووفقت إلى سيدة إنجليزية كان لها أثر عظيم فى عقلى

ونفسى . مس يتور (Power) سيدة في نحو الحامسة والحمسين من

عرها ، ضخمة الحسم مستديرة الوجه ، يوحى مظهرها بالقوة والسيطرة ، بسيطة في ملبسها وزينتها . مثقفة ثقافة واسعة ، تجيد الإنجلىزية والفرنسية والألمانية ، ذات رأى تعتد به جريدة التيمس فترحب ممقالاتها ، عرفت الدنيا من الكتب ومن الواقع ، أقامت في فرنسا سنين وفي ألمانيا سنين وفى أمريكا سنن فكملت تجاربها واتسع أفقها ؛ حضرت إلى مصر ووافقها جوها فأقامت فها ولكن ليس لها من المال ما يكفمها للإقامة طويلا ، فهي تستأجر بيتًا خاليًا في ميدان الأزهار وتفرش حجراته ، وتؤجرها للراغبين فتكسب من ذلك نحو ثلاثين جنها في الشهر تكون أساس عيشها ، ثم هي رسامة فنانة ، تأخذ أدواتها إلى سفح الهرم فترسم الصور الزيتية لمنظر الأهرام والفيضان وما محيط سهما من منظر ميل أو نحو ذلك من مناظر طبيعية حيلة ترمجها بالزيت وتتأتق

فها ، وتقضى في رسمها الأيام والأشهر وتبيعها بشمن كبر، ثم هي تلوُّس الرسم والتصوير لبنات رئيس وزارة^(١) ثم هي ثقبل أن تدرُّس لي درساً في اللغة الإنجلنزية بجنهن كلُّ شهر ، ولا تعاملني معاملة مدرَّسة لتلميد ، بل معاملة أمَّ قوية لابن فيه عيوب من تربية عتيقة . ابتدأت أدرس-معها الحزء الثالث من سلسلة كتب برليِّز، أقرأ فيه وتفسر لى ما غمض وتصلح لى ما أخطأت، ثم أضع الكتاب وأحدثها وتحدثني فى أى موضوع آخر يعرض لنا . ولا أدرى لماذا لايعجها منى أن أضع العامة مجانبي إذا اشتد الحر ، بل تلزمني دائماً بوضعها فوق رأسي . ونستمر على ذلك نحو الساعتين أتكلم قليلا وتتكلم كثيراً ، وتنفق أكثر ما تأخذه مني في أشكال عُتلفة لنفعي ، فهي تدعو بعض أصابا من الإنجلنز رجالا ونساء إلى الشاى ، وتدعونى معهم لأنحدث إليهم ويتحدثوا إلى ، فأعمع لهجاتهم ويتعود سممى نطقهم ، وأصغى إلى آرائهم وأفكارهم وأقف على تقاليدهم . ومرة ترسلني إلى سيدة إنجلنزية صديقة لها أكبر منها سناً قد عدا عليها المرض فألزمها سريرها لأتحدث إليها . تقصد بذلك . أن هذه الريضة تجد فيٌّ تسلية لعزائها وفرجا من كربها ، وأنا

^(1) هو المرحوم هيد الخالق باشأ ثروت .

أجد فيها ثرثارة لا تنقطع عن الكلام ، فأستمع إلى قولها الإنجليزى الكثير رغم أنني .

وتوثقت الصلة بيتنا فكاننى كنت من أسرتها ، وهمى لا تغى بى من ناحية اللغة الإنجلنزية وآدامها فحسب ، بل هى تشرف على سلوكى وأخلانى . لاحظت أن عبين كبرين فعملت على إصلاحهما ، ووضعت لى مبدأين تكورهما على أى كل مناسة .

رأني شاباً في السابعة والعشرين أتحرك حركة الشيرة ، وأمشى في جلال ووقار ، وأترمت في حياتى ، فلا موسيلي ولا تمثيل ولا شيئاً حي من اللهو البريء ، وأهمرت حياتى بين مروم أحضرها ودروس أقضياً ، ولغة أتعلمها ، ووأنقى مكتب النفس مقبض المعدد يتطوي غلي على حرن عميته، ووأتى لا أبهج بالحياة ولا يتفتح صدرى العمرود ، فوضحت لى مبدأ هو : وتذكر أتك شاب ، تقوله لى فى كل مناسبة وتذكرف به من حين لل حين .

والثانى آمها رأت لى حيناً منعضة لاتلفت إلى حمال زهرة ولا حمال مبورة ولا حمال طبيعة ولا حمال انسجام وترتيب ، خوضمت لى المدأ الآخر : و عب أن يكون اك عين فئية ه فكنت إذا دعوت علمها فى حجرتها وبدأت آتحار الدرس وألككم فى موضوعه صاحت فى : و ألم تر فى الحجرة أؤهاواً حجاة تلفت نظرك وتثير إعجابك فتتحدث عها؟ ، وكانت مغرمة بالأزهار تعنى بشرائها وتنسيقها كل حين ، وتفرقها فأركان الحجرة وفى وسطها ، ويوثلها أشد الأَثُمُ أن أدخل على هذه الأزهار فلا أحيمها ولا أبدى إعجابي مها وإعجابي بفنها ف تصفيفها . ويومآ آخر أدخل الحجرة فأتذكر الدرس الذى أخذته فى غزَل الزهور فأحبى وردها وبنفســجها وياسمينها وكل ما أحضرت من أزهار ، فتلتفت إلى وتقول : و أليست لك عن فنية ؟ ، أعجب من هذا الاستنكار ، وقد حييت

الأزهار ، فتقول : ألم تلحظ شيئًا ؟ فأجيل عيني في الحجرة فلا أرى شيئاً جديداً غبر الزهر الحديد ، فتقول : أَلَمُ تلحظ الحجرة وقد غيرً وضع أثامًا ؟ لقد كان الكرسي هنا فصار هاهنا ، وكانتاالْأَرْيكة هنا فصارت هاهنا ، وتقول:

قد سئمتُ الوضع القدم وتعبت عيني من رويته ، فغرت وضعه لتستريح عيني ، وهكذا . . .

لازمَّها أربع بسنوات ، استفدت فيها كثيراً من عقلها وفنها ولكني لا أظن أني استفدت كثيراً من تكرارها على سمعى أن أتذكر دائماً أنى شاب .

انهيت من الحزء الثالث ، واخبرت أن أقرأ معها كتباً أخرى ، في الأخلاق أحياناً وفي الاجماع أحياناً ، وفى آخر المرحلة قرأت معها فصولا كثيرة من جمهورية أبلاطون بالإنجازية ، فكان هذا الكتاب مظهر سعة عقلها وكثرة نجاريها ، فكنت أقرأ القصل فتشرحه لى ، ونبن ما طرأ على فكرة أفلاطون من الثغير وما بي من آرائه لمل اليوم ، وكيف طبق هذا المبلأ في المدنية الحديثة في الأم المنطقة ، ومكذا .

ولا أدرى ما الذي انتامها ، فقد رأيتها تكثر من القراءة فى كتب الأرواح ، ثم تمعن فى قرائبا ، ثم تذكر لى أنها خصصت کل یوم ساعتین تغلق علما حجرتها ، وترخی ستاثرها ، وتغمض عينها ، وتركز روحها في مريض تعالحه وهو في داره وهي في دارها ، أو تجرب تجربة أخرى أَنْ ترسل من روحها إشارة لاسلكية لصاحب لها تنبئه أن محضر أو لامحضر ، وأن يعد كذا أو لايُعيد وهكذا ، وقد تُجمعت في بعض الأحوال دون بعض فلم تشأ أن تعتقد أن هذا مصادفة ؛ ولكنها اعتقلت أن ما نجحت فيه فإنما نجحت ﴿ لَانَ الْأَمْرُ قَدْ اسْتُوفَى شُرُوطُهُ ، وَمَا لَمْ تَنْجَحَ فَيْهُ لَمْ تُسْتَكُمُلُ علته ، فزاد اجبادها ، وطالت ساعات عزلما ، وأمعنت فى تركيز روحها ، كل ذلك وأنا أنصحها ألا تفرط فى علما خشية علمها فلا تسمم ، لأنها تأمل أن تصل من ذلك إلى نجاح باهر .

الأعصاب خفاقة العينين ، فسألها عما بها ، فأخبرتني أنها ذهبت اليوم صباحاً إلى كوبرى قصر النيل وهمت أن ترمى نفسها فى النيل ، ثم رأيتها تذكر لى أنها أخفقت هذه المرة فى الانتحار ، ولكنها ستنجح فى مرة أخرى ، فخرجت من عندها آسفاً باكياً ، واتصلت بطبيب للأمراض العقلية فحضر ورآها ، وأخبرنى أنه لابد من إرسالها فوراً إلى مستشنى المحاذيب، وكذلك كان . وكنت أعودها من حين إلى حين ، فإذا جلستُ إلها تحدثت كعادتها حديثاً هادثاً معقولاً ، وسألتها مرة : ماذا بها ؟ فقالت ، لاشيء بي إلا أنبي فقدت الإرادة فإذا أطلق سراحي الآن لا أدرى أيس أتجه . ثم تولت أمرها القنصلية الإنجلنزية فأسفرتها إلى بلدها . وأخراً ـــ وبعد نحو سنتين ـــ جاءني خطاب بعنواني ممدرسة القضاء عليه طابع إيطالى ففضضته فإذا هو من د مس پور؛ تخبرنی أنها هفیت من مرضها ، وأنها الآن فی روما تتمتع مجمال مناظرها ودقة فنولها وروعة كنائسها ، فرددت علمها فرحاً بشفائها ، ثم انقطعت عنى إلى اليوم أخبارها ٥ رحمهاالله. وفي هذه الفترة التي كنت أدرس فيها مع ﴿ مس يورٍ ﴾ جاءني صديق وقال إنه يعرف أسرة إنجلزية تتكون من زوج

وذهبت إلها يومآ فرأيتها مصفرة الوجه مضطربة

وزوجة يريدان أن يتعلما للعربية وأنا أعلم الزوج فهل ال أن تعلم الزوجة ؟ قلت : لا أعلمها عال ولكن أتبادل معها ، فأعلمها العربية وتعلمي الإعلمزية ، وعرض علمها ذلك فرضيت .

سيدة إنجلزية في ريعان الشباب حيلة الطلعة لها عينان تبديان في النفس معيى الصفاء والطهارة والفقة ، تعيش مع زوجها الإنجليزي الملدوس بالمدرسة الخديرية الثانوية عيشة أرستمراطية فحضة ؛ مولمان بركوب الحيل والدروض عليا عصر كل يوم ، يستمتان بالزواج الحديد السعيد ؛ كنا نفضي ماعين في الدرس مرتين في الأسبوع ،ساعة تعلمي الإنجلزية وساعة أعلمها العربية واختارت في أن أقرأ معها كتاب و قصص شيكسير للاب و⁽¹⁾.

ملمه انسيدة تفلى حواطنى برقها وحالها وكمالها ، كما كانت د مس پور ، نشلى عقلى بينماقها واطلاعها وتجاريها . كنت أحلشا يوماً ، وقد قامت الحرب العالمية الأولى فزل* لسانى وتقلت الإنجلز نقداً حفيقاً أمامها ، فاكان مها إلا أن دمعت عيها وقالت فى رقة : « أنعيب قومى وأمن ! »

Talos from Shakes peare by Lamb' ()

فخجلت حجلا شديداً وقدرت وطنيتها التي مجرحها النسم ، ولم أعد بعد لمثلها . واستمررت على ذلك أكثر من سنة قرأت معها هذه القصص ، وعلمتها قدراً لابأس به من العربية . وكان يصعب عليها النطق بالعين فكانت تقول : إن عينكم توًالَى ، وكنت أقول فى نفسى مثل قولها . وكان لها نقد لطيف لما تتعلمه من العربية ــ نقد لاندركه نحن لأنها لغتنا . تشأنا فيها ورضعناها مع لين أمنا وألفناها منذ صغرنا . قالت لى مرة : إن اللغة العربية غىرمنطقية ، ألا تراها تؤثث الشمس وهي قوية جبارة وتذكر القمر وهو لطيف وديع ؛ فأولى أن نذكر الشمس ونوثث القمر كما نفعل نحن في لغتنا . وقالت مرة : ألا تعجب من لغتكم تقول ثلاثة كتب ، وتقول ألف كتاب ، وكان الأولى مادامت تقول ثلاثة كتب أن تقول ألف كتب . وهكذا من طرائفها الظريفة . واشتدت الحرب فجند زوجها ، وانقطع عنى خبره وخبرها .

ماذاكنت أكون لو لم أجنر هذه المرحلة ؟ لقدكنت ذا عين واحمد فأصبحت ذا حين ، وكنت أهيش فى الماضى فصرت أهيش فى الماضى والحاضر ، وكنت آكل صنقاً واحداً من ماثنة واحدة فصرت آكل من أصناف متعددة على مواثد عطفة ، وكنت أرى الأشياه ذات لون واحد وطهر واجد ، قلما وضمت مجانها ألوان أخرى وطعوم أخرى تفتحت الدن المقارنة وتفتح العقل المتقد . لو لم أجر هذه المرحلة ثم كنت أديباً لكنت أديباً رجعياً ، يعنى بنرويق اللفظ لا جودة المنى ، ويتحدد على أدب الأقلمين دون أدب الحسد ابن ، ويلتخت فى تفكره إلى الأولين دون الآخرين ، ولو كنت موافقاً لكنت حباً عالم أحمد مترناً ألو أفرق عصماً من غير تمحيص ولا تقد . فأنا مدين فى إنتاجى الضعيف فى الترجة والتأليث والكتابة إلى هذه المرحلة بعد المراحل الأولى ، وهذه الزهرة الحديدة أأفت باتة مع الأزهار القدعة .

()

ثم إن لهذه المرحلة تكلة . تقد كانت السنة سنة 1918 وقد تخرج من مدوسة المعلمين العليا بضعة من خيار الطلبة عرفوا بالتقوق في العلم والحلق ؛ كان أكثرهم مرشحاً للبعثة إياراً أثمراً ثم منعهم قيام الحرب ، وكان بعضهم من القسم العلمي وبعضهم من القسم الأدبي (()، شامت الطروف السعيدة أن أنعرف بهم وأن أصادقهم ، رأيتهم مثقفين من غورجنس اتفاقي ، ثقافتهم عصرية عنة ، وثقافي شرعة كثيراً وعصرية

(١) منهم الأمشاذ أحد زكى والدكتور أحد حد السلام الكرداق والأمشاذ عبد مبد الواست علان والأمشاذ عبد كامل سليم والأمشاذ عبد قريد أبر سنيد والأمشاذ عبد أحد النبراوى .

(11) 170

قليلا ، مهم الذي يلغ درجة جيدة في الحغرافيا والتا يخ العام والأهب الإنجليزي ، وصهم من بلغ هذه الدرجة في الرياضة والطبيعة الكمياء ، وكلهم يعرف من الدنيا الحديدة والمدنية الحديثة أكثر مما أهرف ، عكم تقافهم وثقافي ، وقد اخترنا قهوة تعلل على ميدان عابدين صاحبها لغوى شاعر ، يتلفغنا إذا حضرنا ليعرض علينا رأيه في كلمة اكتشف أنها غير محميحة لأنها لم ترد في معاجم اللغة ، أو ليسمعنا قصيدة من نظمه عملنا على الإعجاب بها ولو من باب الحاملة . على كل حال . كان يجتمع هوالاء الصحاب في هذه القهوة عصر بعض الأيام فتكون مهم مائدة شهية عتافة الطعوم متعددة الألوان .

منا منرم بالقصص الإنجلزية والحلات الإنجليزية يقرأ مها الكثير ، وله ذوق حسن فى الاعتبار وشهوة قوية فى التحدث هما الحتار، وتحمس لما يقول وما يعرض ، ولا يرضيه إلا أن يتحمس السامعون حاسته ويبنجوا عا يقول ابهاجه . وكان يقول إن الاسياع إلى الحديث فن كفن الإلقاء ، من الناس من بجياد ومهم من الإنجيده ، وإنما بجيده السامع إذا كبارب مع القائل فى شعوره وعواطقه وانفعالاته ، يفحك للحديث المضحك ويبكي للحديث الماكبي وتظهر على أسارير وسهم كل هذه الاستجابات . وكان يعقد في أنى أجيد الاساع فيتحدث إلى "باكثر عما يتحدث به مع غيرى ؛ فهو يقول مثلا : 1 اليوم قرأت قصة فى مجلة نيشن Nation تتلخص فى أن طفلا رُنى فى قصر كبىر له حديقة واسعة ولم ير الدنيا حارج القصر ولم يعلم عنها شيئاً حتى شب، ثم رأى الدنيا خارج القصر [دفعة واحدة من غبر تدرج . ثم تصف القصة . أثر مناظر الدنيا فيه عندما رآها وهو مكتمل العقل ، وكيف تختلف عن أثرها في الصبي قد رآها تدريجاً وهو قاصر العقل الخ؛ . . . واليوم قرأت رواية لديكنز بديعة لطيفة مزتها كذا وهو يرمى بها إلى كذا ، واليوم قرأت مجلة مضحكَّة ، وللإنجلىز طابع في النكت والنوادر غير الطابع المصرى، فأكثر نكتهم مَلفوف ، مبنى على الذكاء ، والقليل منه يعتمد على اللعب بالألفاظ ؛ ومن خير النكت التي قرأتُها اليوم كذا، ثم يغيض فها قرأ مها ونضحك ونضحك ونتبعها أحيانا بالنقد أوالاستحسان ، وكان خفيف الروح فى الإلقاء فيعجبنا بنكته ويعجبنا بقَصُّه ـ ثم كانت له مفامرات شبابية مخصفي بذكرها والحديث عنها وأله منها واستمتاعه مها . وهذا الآخر هوايته التاريخ ، يطيل القراءة فيه ويُغْمَن

وهذا الاخر هوابته التاريخ ، يطيل القراءة فيه ويُمَنَى بأسلوب الأوربين في كتابته وقدرتهم على التحليل الدقيق ورجوع الجزئيات لملى كلياتها وحريهم في تقدير الأبطال والاعتداء بشخصيتهم ، قند مهم بعضم بطلاً أحم الناس على بطولته ، أو يشيد بذكر مضور أحم الناس على خوله ،ويتقد كتابة التاريخ عند العرب ، فقد أحسنوا في رواية الأحداث ولم عسنوا فلسفها إلا ماكان من ابن خلدون فقد أحسن في فلسفة التاريخ وقصر في تطبيقها على الأحداث ، ثم هوعاول أن يطبق هذا المذهب فيعرض علينا تمطأ من عجه في عمر وعلى " ـ مثلا ـ على تحط جديد فيه التقدير وفيه التقد.

وهذا عالم تخصص فى الطبيعة والكيمياء وجعل مسلاته الأدب، فهو يقرأ فى ديوان أبى الطب وأبى فراس ويتخبر من شعرهما وعفظه وينشده ، وتلب عاطفته فيحاول أن يقول شعراً بعضه لابأس به . وهو فكه النفس لطبق الحضر تأنس لقربه وتستوحش لبعده ، يتحدث فيودع قلبه حديثه .

وملنا عالم آخر طبيعي كيارى أيضاً جمل علمه ونفسه وكل ما علكه من ملكات وتقافات لحدة دينه وأثر في كلمرمن الطلخ في مدينة الله في كلم من الطلخ في مدينة المالية في مدينة المالية في أمال قرامته وليل جهناً في فهمه من نظريات كا يقول المقسوون ويزيد عليم ما يفهمه من نظريات الطبيعين والكياويين وما يقتيمه من أقوال المتنبيين من العالم الأوربين ، علو له الكلام في الدين ومعاية الفعالين، ويعز عليه أن يسمع إلحاداً أوكلنة يشم مها إلحاد بل لايسمع أن يقد أحد أمراً من أمور الدين ، ولوكان في المتاصيل ؛ وهو في كل ذلك علم لل يقول كلمة بلساته ينكرها قله ، قوى في كل ذلك علم لل يقول كلمة بلساته ينكرها قله ، قوى

الحجة طويل النفس فى المناظرة موثر إذا قال ، جزل الأسلوب إذا كتب ، يدرس الكيمياء والطبيعة فتكون دينا ، ويشرح التنظرية الكياوية فتكون من سنن الله الكونية ، يتحرج صحبه أن يذكروا أمامه شيئًا بحس شعوره الديني وعاطفته المسلمة ، وجابونه فى طربوشه أكثر مما جابوننى فى عمى .

وهذا عالم فى الرياضة ولكنه لايقل ثقافة أديبة عن المختصد فى التحافة الأديبة يقرأ فى الأغانى والمقد الغريد كما أفر والمقد الغريد كما أفر وتطوعها ويتقدما ، ويقرأ الكتب الكثيرة فى الأخلاق والاجتاع وعلم النفس ، ويتأثر عا يقرأ لى حد كبر ، ويقتم عا يقرأ ويحصص له ، ويأتى ساخر جامع فى تقد ما قرآ وما فكر فيها قرآ ، وله أسلوب لطيف ساخر جامع فى تقد ما يرى وما يسمع ، تطبيقاً لنظرياته الى اعتتقام من قراماته ، ولا بأس أن يظو فى المدم ، ولا بأس أن يظو المدم ، ولا بأس يطول شرحه .

كل أولك كانوا مدرسة لطيفة مفيدة في ، مدرسة خلت من عبوس الحدوثقل للدّرس.وساجة تحديد الموضوع والزمان والمكان ، ونعمت بالبعد عن الاستحان وصلاع الحرس ، مدرسة فيها الحد والفكاهة ، والعلم والأدب ، والدين والشعر ، والتقريظ والقد ، مدرسة يكون فها الثليد أستاذاً والأستاذ تلميذاً ، وإن شقت فقل إن كل من فها أستاذ تلميذ ، مدرسة فها حرية القول وحرية الساع وحرية كل شيء ، تقارب فها سن الأسائلة والتلاميذ فتجانست مشاعرهم ، وتشاجت آمالهم ومطاعهم ، وتشاحت نفرسهم للاستفادة من تنوع وهاههم .

وكان لهذه المدرسة الفاتة الهيفة إلى تقوم البدن كتفوم البدن كتفوم الشهر ، والعناية به كالمناية بالمقل ؛ فما بأننا تقضى بارثا في المدرسة ندرس ، وعصرنا في الفهوة نجلس جلسة الكسال اللمجائز تتحدث ، ولبلنا على المكتب نحضر ! أين المواء الطلق ؟ أين حمل الطبيعة ؟ أين الرياضة البدنية ؟ أين الرياضة البدنية ؟ أين الرياضة المقل كا تغدم الحسم ، وتغذى الروح وتبعد كا تغذى المقل كا تغذى الدن .

إذن ــ فلنشرك فى ناد من نوادى الألعاب الرياضية ، ولننظم رحلات أسبوعية ، ولأحقق أنا بعض ماكانت تقوله لى المدرسة الإنجليزية « تذكر أنك شاب » .

وذهبنا إلى نادى الألعاب الرياضية بالحزيرة واشتركنا فيه ، وكانت عمّى أول عمة اشتركت فى النادى ، وربما كانت آخرها أيضاً ، وأخلت خزانة فيه ككل عضو ، أميم فيها و الفاتيلا والشورت والجزمة الكاوتش a ، فإذا حضرت خلعت عمامتي وجبي وقطائي وليست الشورت وما إليه وتسابقت في العدو مع العدائين ، ولعيت كرة القدم والعقلة مع اللاحين ، حتى إذا تعبنا جلسنا على الحشيش في الهواء الطائق نتحدث ونضحك ، وقد كنت أول الأمر ألمت إذا جريت ، وأعفى إذا لعبت ، ثم استقام أمرى ، وإن لم أيلغ في حققة الحركة ميلغ صعبي ، لأني أحمل من

وإن لم آيلغ في خفة الحركة مبلة صحبي ، لأنى آهل من أوزار تربيني الأولى ما لاصلون ؛ فإذا فرغنا من ذلك كله ذهبا إلى خزاندنا وخلعت والشورت، وليست الحبة والقفطان والعامة وخرجت من النادئ شيخاً وقوراً. ومع الحديدة أحداثاً كنا تحد الذراحة في حما القط

ويوم الحممة أحياناً كنا نخرج إلى رحلة في جبل المقطم في الشتاء ، فيوماً إلى النابة المتحجرة ، ويوماً إلى الدن دجلة أو وادى حوان ، ويوماً إلى الدن دجلة أو وادى حوان ، ويوماً إلى الدن الساحنة وهكذا . وكانت رحلات قاسية وقائدنا فيها الامين لايرح ، وكم قلت له : « ونقاً بالقواريره ، وهو لايسمه ، فكنا تحقى في الوديان وتتسلق الحبال من طلوع الشمس إلى غروجا ، تممل معنا خالمنا وشرابنا على ظهرنا ونسر مسراً حييًا لانسريع إلا ساحة نأخذ فها خلامانا ثم تسر مسرتا وأعود إلى البيت مضي متماً ، ثم أنام مل مجونى ،

^(1) كان الأستاذ النسرداش محمد .

وأعرج بعدها في مشيي ثلاثة أيام أو أربعة ، ولكني أحس صفاء نفسي وصفاء رأمي . وكنت في هذه الرحلات كشأني في الألعاب ، أخيبَ عضو في الأولى وأبطأ عضو في الثانية : لست أنسى يوماً عصيباً ذهبت فيه مع صحى إلى وادى حوف ، فلما بدأنا في العودة تخرق نعل جزمتي فسددتها بورق مقوى كنا أحضرنا فيه بعض الفطائر والحلوىء ظر يفد ذلك إلا قليلا ، ثم برزت رجلي وسرت على الحصي ، ودميت أصبعي ، وأبطأ القوم في سبرهم ورثوا لحالى ، وأخبراً وأخبراً جداً عثرت على حمار قبل مدخل حلوان ، وطلبت من صاحبه أن محملني إلى المحطة بأى أجر شاء ، ودخلت حلوان على حمار وحولى الحواريون يمنزج شعورهم نحوى بالضحك مني والرثاء لي .

وتحروت يعض الشىء ، فكنا نلعب أحياناً إلى صالة ومتبرة المهدية ، لساح غنائها ومشاهدة رواياتها ، وكنت أثائر من يعض نفاتها أثراً يرن في أذنى طول الأسبوع.

فإذا أحب بعضهم أن يذهبوا إلى أكثر من ذلك تواصوا فها بينهم ألا غدرونى ؛ لأنى لا أصلح لمثل موقفهم .

وانضم إلى حماعتنا ثلاثة(١) من نوابغ خريجي مدرسة

⁽١) هم الأستاذ حسن غتار رخى والمرحومان يوسف الجندى (بك) وصبرى أبو علم (بك) .

الحقوق كانت لهم ثقافتهم القانونية والسياسية ، ودب فى الحاعة روح التفكر القومى : فهذا البلد ضعيف مسكن متأخر في حميع مرافقه ، ونحن الشباب بجب أن نفكر ونعمل فى تقدمه وإعلاء شأنه رغم الاحتلال وسيطرته ، فلنوالف لحاناً لدراسة مصر من نواحها المختلفة : لحنــة للناحية . الاقتصادية ، وأخرى للناحية السياسية ولحنة للتربية والتعليم ، ولتفعل كل لحنة فعل الطبيب يشخص المرض ويصف العلاج ، وفعلت اللجان ذلك وبدأت الحاعة تعمل ؛ لكن عصفت الرياح باللجان كلها ؛ وبقيت ــ محمد الله ـــ و لحنة التأليف والدحمة والنشر، سَنقانوها أحد الأعضاء القانونيين، وقرئ على الأعضاء مجتمعين ، وعدل ونقح ، والنزم كل عضو أن يدفع عشرة قروش في كل شهر ، وأن بجتمع مجلس إدارتها في بيت عضو من أعضائها ، وبدأ بعض الأعضاء العلميين يوالف كتاباً في الكيمياء لطلبة المدارس الثانوية ، محضّر كل بابا ويقرؤه على الآخرين فينقحونه وسلبونه ، فإذا فرغوا منه قدموه للطبع ؛ فإذا لم يكف ما حمع من عشرات القروش أقرض اللَّجنة بعض الأغنياء من الأعضاء ليتم طبع الكتاب ؛ فكان هذا أول حجر في بناء اللجنة .

وقد تكونت اللجنة على هذا المنوال سنة ١٩١٤ ، ونحن

الآن في سنة ١٩٥٣ ، فيكون قد مضى علمها أكثر من ست وثلاثين سنة ، وقد طبعت من الكتب أكثر من ماثني كتاب، وكانت لاتقرر كتاباً إلا إذا حولته على اثنىن خبرين بالموضوع يبديان فيه رأياً بالصلاحية أوعدمها ، أو حاجته إلى التعديل . ولبثت طول هذه المدة رئيساً للجنة يعاد انتخابي فها رئيساً لها كل عام . وازداد عدد أعضائها إلى أكثر من ثمانين عضواً من خبرة المتعلمين . وزادت رابطة الألفة بين الأعضاء ،حتى شبهها الناس بالماسونية . وكل عضو فها يشجع اللجنة بما بقدر عليه ، وأسست لها مطبعة خاصة ، كما أسست مجلة اسمها الثقافة تنشر فها الآراء على مبادئها واستمرت نحو أربعة عشر عاما ثُم أُوقفتها هذا العام سنة ١٩٥٣ لما تتكبُّد فها من خسائر . وقد حزن الأعضاء والقارثون على وقوفها ، ولكن ماذا بجدى الحزن العاطني أمام الحسائر الفادحة المادية ؟ ونمت مالية اللجنة من هذه العشرات من القروش ومن الأرباح من الكتب حتى بلغت أكثر من ستين ألفاً من الحنهات . وشغلت هذه اللجنة جزءًا كبيرًا من حياتي ، فَكُنْتُ أَذْهِبِ إِلَهَا كُلِّ يُومُ أُدِيرِ شُوْوَتُهَا وَأَطَلُّمَ عَلَى مَشَاكُلُهَا: وأقرأ بريدها ، وأوشر على ما يلزم فى هذا البريد . وثم ينقطم ترددى عماكتبراً إلا بعد مرضى ؛ وقدكانت اللجنة تسكن أولا في بيت عضو من أعضائها ، ثم استأجرت مكاناً

متواضماً في حي بلدى . ثم اشرت بيناً في حي أرستراطي
ينحو ٢٠ ألف جنيه . وأخيراً وبعد أن وقفت على رجلها
منحها الحكومة مبلغاً من المال يقرب من تسمالة جنيه كل
سنة ، أفردناه في دفاتر خاصة وطبعنا به كتباً خاصة . ونبيمها
بتكاليفها تقريباً . وتحاسبنا الوزارة على هلما البند وحله .
وعلى الحملة كانت هلمه اللجنة مشغلة لى ، أسأل عنها ،
وأحاسب نفسى عنها كما أحاسها على أولادى ، وأستعن
أمورها ، وأحمد الله على التوفيق فها .

على كل حال كانت هذه اللجنة تثبية لصداقة هولاء الأصحاب اللبين ذكرت بعض صفاتهم ، وحظيت بصداقهم . وجلاء وبولاء الصحاب أحسست أنى أقرب من عقلية ومزاجهم وتقافهم شيئاً فشيئاً ، وأبتعد عن عقلية زملائى الأقلمين ومزاجهم شيئاً فشيئاً ، ورأيتى سبفصل ما شوقونى من كتب أكونانتمى نواة من الكتب الإنجليزية بجاب الكتب العربية، وأحضر دروسى منها فى الأخلاق والمنطق ، وأملأ القراخ يالمطالعة فى هذه وتلك ، وإذا العين تضع والأفن يتسع .

(11)

وبدأت أستغل ما تعلمته من الإنجليزية ، فصارت لى

مكتبتان أشرى منهما الكتب، مكتبة عربية بالسكة الحديدة ، عي الأزهر ، ومكتبة إنجلزية بشارع المغربي في الحي الإفرنجي، غامًا المكتبة العربية فصاحبًا^(١) رجل غريب الأطوار من أصل أناضولي ، كان ربيب نعمة ، تربى في المدارس الفرنسية وهو بجيدها قراءة وكتابة ، وتفلسف فى الحياة فلسفة تشاؤمية على أثر صدمة صُدمها ، فقد تاجر في القطن ودخل البورصة وكسب حتى صارت النقود في يده كالتراب ، ثم حسر فلم يبق في يده شيء إلا الرَّراب وفتح دَكَان بقالة فلم ينجح، ثم صار كتيياً لايعباً بالمال ولا بالحياة ، ولا بالناس : دكانه كأنه منظرة في بيت أو قهوة في شارع ، يأتى إليه هواة الكتب فيجلسون مطمئنين ويتحدثون في كل شيء ، ويشربون القهوة والسجاير ، ويقضون الساعة والساعتين ، ثم قد يشترون وقد لا يشترون ، والكتب مكنسة في الدكان حيثًا اتفق ، فكتاب نحو مجانب كتاب تاريخ ، وهو لا يعرف موضع الكتاب إلا ظنا ، وقد تسأله عن كتاب فيؤكد أنه عنده ثم يُصعد السلم يبحث عنه فلا بجده ، ويغبر موضع السلم من اليمين إلى اليسار ثم يبحث عنه فلا مجده ، فبرجوك أن تمر عليه بعد يومين أو ثلاثة من غير اكثر إث ؛ ومن طول ما مارمي السوق كانت (1) هو المرحوم أحمد أدهم .

عنده فراسة قوية في المشرين ، شاهدته مرة وقد جاءه شيخ يسأل عن كتاب فقال له ليس عندي والكتاب أمامه ، فعاتبته فى ذلك فعدا خلف الشيخ فناداه وعرض عليه الكتاب ، فأخذ الشيخ بماكس ويمارس ويطيل الماكسة ، ثم انصرف من غير أن يشتريه ، فالتفت إلى وقال : صدَّقت ؟ وله علم بالكتب وموضوعاتها وقيمتها ، وله ميزة عن غيره من تُجار الكتب العربية بأنه يعرف الكتب العربية التي طبعها المستشرقون في أوربة ، يستجلها في سهولة ويسر لحذته الكتابة باللغة الفرنسية ، وناشرو هذه الكتب يثقون به لصدق معاملته ، كما أن له منزة أخرى وهي معرفته جواة الكتب من زباتنه، فهذا الكتابُ يناسب فلانًا ، وهذا الكتابلايناسب فلاناً وإذا أتاه كتاب حجزه للذى يظن به الانتفاع منه ؛وله فى ذلك طبع غريب ، فهو يرضى أن يبيع الكتاب لهاويه الذى ينتفع به مجنيه ، ولايرضي أن يبيعه لمن لاينتفع به مجنهن . وهو مشهور بين زملاته بالزندقة ، لأنه لايعترف بالأولياء ولا بالأضرحة ولا بزيارة القبور ونحو ذلك ، ثم هو لا يكثم عقیدته فی نفسه ، بلی یکررها فی کل مناسبة ، رکب مرة قطاراً من مصر إلى الإسكندرية ، وجلس مع جماعة فيصالون فلما وصل القطار إلى طنطا قال أحد الحاضرين : الفائحة للسيد البدوى ، فصاح هذا الكتبي : ومن يكون السيد البدوى

وما كرماته وما قيمته إ وطال لسانه فقام عليه الحاضرون وأوسعوه ضربًا ، ولم ينجُ منهم إلا بعد عناء ، وهكذا وهكذا من فصوله الغريبة . وهو أمن صادق المعاملة يقنع بكفاف العيش ، وبساطة اللباس ، إن ضاقت عليه الدنيا لبس جلباباً بدل البدلة ، ولم يعبأ بأسرته الكبرة لتغير من شكله ، ولست أنسى مرة حادثاً غريباً في بابه حدث لي من جراء هذه المكتبة ، وبعض أحداث الدنيا يحدث على غىر انتظار ومن غنر سبق مقدمات ، وإذا كان الموت ـــ وهو القاضي على الحياة ــ قد محدث فجأة في أشد أوقات السرور ، فأونى أن تحدث الأزمات مما دونه من الحوادث . لقد كان عندى كتاب ۽ نفح الطيب ۽ طبعة برانية وأردته طبعة أمىرية، ووجدت عند صاحبنا هذا نسخة لطيفة مجلدة تجليداً فخماً ، فاشتريتها منه وهبي في أربعة مجلدات وضعتها تحت إبطى الأيسر ، وأمسكت جريدة المؤيد بيدى اليمني ، وانتظرت عربة كانت تسمى عربة سوارس ــ عربة كبىرة تجرها الحياد من سيدنا الحسن إلى العتبة الحضراء ــ فجاءت مزدحة ، وركبتها فوجدت في ممشاها قففاً لفلاحات وأخراجاً لفلاحن، ورفعت رجلي أتخطى قفة من القفف فمست سيدة جالسة تلتفع مملاءة لف وعلى وجهها برقع بقصبة ، فصاحت بي وأمطرتني وابلاً من السباب ، فغضبت ، وضربتها ضربة خفيفة بجريلة

المؤيد على فمها أقول لها اسكنى ، فراعني أنها صوتت صوتاً مرعبًا لفت كل من فى الشارع ، ووقفت العربة واجتمع الناس يتعرفون الخبر ، ونادت البوليس وصممت عليه فنزلت ونزلت وحضر البوليس وركبنا عربة إلى القسم ، ودخلنا غرفة المعاون فسمع منى وسمع منها ، ورأى المُسألة بسيطة فطلب مني أن أعتذر وسالها أن تقبل العذر ، فلم تقبل ، فألح علمها فلم تقبل أيضاً ، فاضطر أن محرر بذلك عضراً رسمياً ، وأخذ أقوالى وأقوالها ، وألحت أن تحال على طبيب المحافظة لأن مها خلشاً في أنفها من ضربة الجريدة ، ففعل وخرجتٌ ، وخرجتُ مضطربًا مرتبكًا خجولًا خاثفًا ، فقد كان هذا أول حادث من نوعه ، فلم أدخل يوماً مركز البوليس فكيف والشاكي امرأة 11 ولعنت الكتب ونفح الطيب وأشباه نفح الطيب مما جرَّ على هذا البلاء المبن ، وبقيت أياماً قلقاً مضطرباً لا أدرى ماذا يفعل بي ، وإذا . بإعلان بجيئني بأتى اعتديت على السيدة اعتداء أحدث سا جرحاً قد قرر الطبيب لعلاجه واحداً وعشرين يوماً ، فاعتبرت الواقعة جنحة مفلظة ، وحددت لها جلسة فارتجفت وقضيت ليلة ألتمة لم تلق فها عيني النوم . وفي الصباح ذهبت إلى صديق أحد بك أمن أستشره فيا أفعل فذهب معى إلى وكيل نيابة الأزبكية وقصصنا عليه الأمر ، فقال إن المسألة قد خرجت من يده لأن القضية أعطيت نمرة خاصة مسلسلة

وسحلت فى دفاتر النيابة وحددت لها جلسة وأعلن ذلك كله إلى المتهم فأصبح أمرها متصلا بالقاضى وخرجت بهذه الإجراءات من سلطان النيابة .

فزادنى ذلك ارتباكاً واضطراباً بالنهار وأرقاً بالليل ، وأخيراً ذهبت بعريضة الدعوى ليل عاطف بك وشرحت له القصة فضحك مها ومنى وأخلف معه لمل وكيل وزارة الحقائية فتحى باشا زغلول فيلمل في ذلك مجهوداً حتى انسى الأمر ؛ فويل للناس من النساء إذا انتضى .

وأما المكتبة الإنجلنزية فمكتبة مرتبة منظمة صاحبها كنا نسميه الأستاذ فرج ، ليس فها موضع لحلوس ولا قهوة ولا تلخن ، ولاحديث لصاحبا إلاكتاب يباع وثمن يدفع، قد صفت فها الكتب تصفيفاً فنياً ؛ فهذا مكان القصص ، وهذا مكان لكتب الاجباع، وهذا مكان لعلم النفس وهكذا . وإذا سألت صاحما عن كتاب أتجه نميناً أو يساراً ونظر نظرة فاحصة في ثانية ومد يده فأخرج الكتاب أو قال لك ليس عندى . قد عشقت هذه المكتبة أول عهدى بالإنجلىزية ، وتلذذت من زيارتها ــ ولكل جديد للة ــ أزورها فأقضى فها وقتاً طويلا أتصفح فها الكتبوأشرى مها ما يروقي، وقد كونت منها نواة لمكتبني الإنجلزية ، وأكثر ما اشتريت مهاكتب في علم الأخلاق لأستعن بها على تحضير دروسي ؛ وكتب فى علم الاجباع ، إذ شوتنى إليها قراءتى مع ومس يوره حمهورية أفلاطون ، وكتب فى مبادئ الفلسفة ، إذ كانت الأخلاق والاجباع فرعن من فروع الفلسفة ، وكتب فى المتعلق لأنى أردت أن أعرف كيف يكتب الإفرنج فى للمطن بعد أن عرفت كيف يكتب العرب ، وكتب فى الإسلاميات عما كتبه المستشرقون لأن هلما موضوعى.

على كل حال بدأت أحضر دروسي من الكتب العربية

والإنجلىزية معاً ، فأعددت محاضرات عامة في تاريخ علم الأخلاق عند اليونان والرومان والعرب وفى العصورالحديثة استقيت أكثر موادها من الكتب الإنجلنزية ، وشغفت أياما بنظرية النشوء والارتقاء لدارون ، فقرأت فمها كتب شبل شميل بالعربية، ويعض الكتب الإنجلنزية الى تعرض للموضوع عرضاً مبسطاً ، وأعددت محاضرتين فها ألقيتهما على طلبة مدرسة القضاء ويعض أساتلتها وتحضور ناظرها ، وكانت إحدى المحاضر تمن في معنى مذهب النشوء وما يرمى إليه ، والثانية في تطبيقُ نظرية النشوء على الأخلاق ، كما اتجه إلى ذلك سبنسر وغيره ، وأحدثت هاتان المحاضرتان دوياً : كيف يلتي مثل هذا الموضوع على طلبة القضاء الشرعي ، كان من نتيجته أن أرسل شيخ الحامع الأزهر^(١) إلى ناظر المدوسة

(11)

. (۱) هو المرحوم الشيخ أبو الفضل . ۱۸۱

يسأله ؛ كيف أباح لمدرس في المدرسة أن يلتي محاضرات في مذهب الزنديق دارون ! فأهمل الناظر السوال ولم يردّ عليه ، وبوماً لقيت في هذه المكتبة الإنجلنزية كتبياً صغيراً عنوانه : مبادئ الفلسفة : تأليفرابوبورت ، قرأته فأعجبي أسهولته وبساطته وشموله ، كتبه مؤلفـــه لطلبة المدارس الثانوية يعرفون به معنى الفلسفة وموضوعها ، فشغفت بترحمته وكنت أقف فى حمل كثيرة منه رجعت فيها إلى صديق(١) لى أستوضحه ما عمض حيى أنهيت ترحمته، وبذلت فیه جهداً کبراً إذ کان أول عهدی بالترحمة ، ثم طبعته ونشرته ، فكان هذا أول نتاج لى وكان ذلك سنة ١٩١٨ ، وقوبل الكتاب بما شجعني على أن أعيد النظر فيمذكراتي الَّى أُعددتُها للطلبة في علم الأخلاق ، وأزيد عليها وأحولها

الى اعمده فل علم الاعلاق ، واريد عملها واسوها إلى كتاب هميته كتاب الأخلاق ، وطبعته بعد مبادئ الفلسفة. بقليل .

(Y+)

وكان لى مجانب هذه المدرسة من الأصدقاء ـــ ذوى الثقافة الإنجلزية ــ حمية من أصدقاء آخرين ذوى ثقافة. فرنسية غالباً ، عمدها صـــديق المرجوم الشيخ مصطفى

(١) هو الأستاذ أمين مرسم قنديل .

^{. . . .}

الحمعية ذكر جان جاك روسو وفولتىر وراسين وموليير ودركهاهم . وإذا كانت الحمعية الأولى تغلب عُلمها المحافظة والاعتدال فهذه يغلب علمها التحرر والثورة على القدم ـــ كنا نجلس فى هذه الحمعية ، وقد محضر فها أحياناً بعض السيدات الفرنسيات زوجات بعض المصريين ، وبعضالعلماء من الأزهر ، ويتشقق الموضوع ويثار الحدل، ويكون الحديث مزاجاً بين حرية فرنسية واعتدال إنجليزي ومحافظة أزهرية ، نتحدثٌ في السياسة وفي حرية المرأة ، وفي المقارنة بن فرنسا ومصر . وكان من أعجب من عرفت في هذه الحمعية شاب تثقف ثقافة قانونية امتاز بالشجاعة الأدبية والصراحة ، فكان لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يعمل إلا وفق ما يعتقد ، على حين أن كثيراً من الشبان يرون الرأى ثم لايقولونه ، وإذا قالوه لايعملون على وفقه ، كالذي سمعت أن حماعة كانوا مجتمعون 115

عبد الرازق الذي كان شيخاً للأزهر فيا بعد ، ومن بيهم الذكتور متصور فهمي والمرحوم الأستاذ عزيز مرهم والأستاذ عمد كامل البنداري والذكتور عمود عزفي وغيرهم وكان مكاما في بيته ، وكان أكثر أعضائها من عرجي الحلمات الفرنسة وتمن ألف بينهم إقامهم في فرنسا وتعلمهم بها ؛ وإذا كان يكثر في الحميات الأولى ذكر شيكسير وديكر فى منظرة فى بيت وكانوا يتجادلون فى سفور المرأة وحجاجا، وكان صاحب البيت أكثرهم تحسأ السفور ودفاعاً وتأييداً له، فينها هم فى المناظرة إذا بصوت سيدة عجوز هى جدة صاحب البيت بصل إلى آذان المتناظرين فى المناظرة فيخجل صاحب البيت ويصعد إلى جدته يوتها على علو صوتها وقد نسى عاضرته فى السفور.

أما صاحبنا هذا فكان شجاعاً جريثاً فى كل ما يقول ويعمل ، تزوج فتاة مصرية ، وإذكان يعتقد السفور حملها على السفور فأطاعته ، في وقت عزَّ فيه السفور ، وعلا الصوت فى نقده ومقته ، فكان نخرج بها فى المحتمعات ويزور معها الأصدقاء ، وبجلس هو وهي في مقهى ولايعبأ بنقد الناقدين ولا عيب العائبين ، وكان وكيل نيابة في أسبوط وأسموط ملد محافظ ، فعابوا عليه تصرفه وشكوه للحقانية فلفتت نظره قصم على عمله فنقل إلى الإسكندرية ولم يتحول عن طريقته . وأخرا رماه الزمان الذى لايرحم بداء السل وألح عليه المرض فألزمه السرير ، وتفرق عنه أهله وأقرباؤه ، نعكف وهو على سرير الموت يكتبكتاباً عنوانه وكلمتي إلى أمتي ، ثم لفظ النفس الأخر ^(١).

(١) هو المرحوم كامل (بك) حسين .

¹¹⁶

كنا نجلس يوماً مع نخبة من هذه الحاعة وكان أحدها م يصدر جريدة اسمها السفور^(١) يدافع فيها عن رأى قاسم أمين ويدعو إليه ، فدعانا أن نأخذ الحريدة ونساهم معه في إخراجها الحمعيتين(٢) جمعيني الأولى المثقفة ثقافة إنجلمزية وحمعيني الثائية المثقفة ثقافة فرنسية ، وتسلمنا الحريدة نحرّرها ، وكانت جريدة أسبوعية ، فكنا نجتمع يومنُ أوثلاثة في الأسبوع نقرأ فها بريد الحريدة ونقرأ فها ما حرره كلٌّ منا من مقالة وننقد ما نسمع ونجنز أو لا نجنز ما ينشر ، وجهدت أن أكتب مقالة كل أسبوع ، فكان ذلك أول عهدى بالصحافة وبالكتابة ، وكان ذلك أيضاً على ما أذكرسنة ١٩١٨ .

وفى هذا العهد كثر الحديث في جالسنا عن الزواج والأزواج والزوجات وسعادة الزوجية وشقائها وضرورتها أوالاستفناء عها والزواج بالأجنيبات والمصريات ، ورويت الأحاديث الهنافة عن فلان المتروج الذى سعد فى زواجه ، وفلان المتروج الذى شق بزواجه ، وفلان الذى أضرب عن الزواج واستعتم

⁽١) هو المرحوم الأستاذ عبد الحميد حدى .

 ⁽٢) كان من بين هذه الحسمية المشرقة على تحرير مجلة السفور الأساقلة مصمل عبدالرازق ومحمود تيمور وكامل سليم والدكتور أخد زكى

بالحياة في أولها وشيى في آخرها وهكذا ، وجال الموضوع في ذهني في قوة ووجدتني قد بلفت التاسعة والعشرين ، فصممت . أن أبت فى الموضوع هل أتزوج أو لا أتزوج ، وأخيراً وبعد تردد طويل قررت أن أتزوج ، ولكن نشأت العقدة الثانية : من أنزوج ؟ . وكان السفور في هذا الزمن في أول أمره لم يجرؤ عليه إلا عدد محدود من المثقفات ، فكان الزواج غالبًا يخضع للتقاليد القديمة؛ يسمع الشاب من صديقه أو أحد أقاربه أَنَّ لَفَلانِ بِنَتَّا فِي سَنِ الرَّواجِ ، وقد يبلغه هذا الحر من محرَّفة لهذه الوظيفة وهي التي تسمى والحاطبة ، وهي امرأة تزور البيوت وتتعرف أخبارها وترى من فيها من الشابات في سن الزواج أو من الشباب الذين يريدون الزواج، وتكون واسطة بين أهل الزوج وأهل الزوجة في تعريف هؤلاء بأولئك ، فيتقدم أحد أقارب الشاب إلى أبي الشابة أو ولى أمرها يعرض عليه الرغبة فإذا قبل أرسل الشاب أمَّه وبعض قريباته من النساء لمُروِّية الفتاة ، فإذا وصفوها وصفاً اقتنع به تقدم للزواج من غير أن ينظرها ويعرف شكلها وطباعها وأخلاقها . وإنما يعرف ذلك كله بعد عقد العقد وبعد الزفاف .

وهكذا كان الزواج في عهدى في مثل طبقى ، وكنت شاباً لابأس بشكله ولا بأس بأسرته ، فأنا وبيقى نعـــد من الأوساط وأنا أحمل شهادة عالية ، ومرتبي نحو ثلاثة عشر

الزُّواج في أمثالي من الأوساط، لاأطلب الغني ولاأطلب الحاه، ومع ذلك كله وقفت العامة حجر عثرة في الطريق ، فكم تقلمت إلى بيوت رضوا عن شبابى ورضوا عن شهادتي ورضوا عن مرتبي ، ولكن لم يرضوا عن عمامتي ، فلو العمامة فى نظرهم رجل متدين ، والتدين فى نظرهم يوحى بالنزمت وقلة التمدن والالتصاق بالرجعية والحرص على المال ونحو ذلك من معان منفرة ،والفتاة يسرها الشاب المتمدن اللبق المساير للدنيا اللاهي الضاحك ، فكم قيل لى أن ليس عندهم مكان لعمة . ورضى بى قوم أولا وأحبوا أن يرونى، فأحببت أن أرجم أنى متمدن ، وذهبت إليهم أحمل كتاباً إنجلزياً وجلست إلىهم وجلسوا إلى وتحدثت إلىهم حديثاً عصریاً علی آخر طراز وحشرت فی کلامی بعض کلبات إنجلزية فاستغربوا للملك ، وفهمت أنهم أعجبوا بى ورضُوا عَي ، ولكن بلغي أن القتاة أطلت على من الشباك وأنا خارج فرأت العامة والحبة والقفطان فرعبت ورفضت

جنهاً وهو مرتب لا يستهان به فى ذلك العصر ، وكنت أتلمس

رفضاً باتاً أن تَرْوجَى رغمُ إلحاح أهلها . وشاء القدر أن تَرْوج هذه الفتاة ــ فيا بلغي ــ شابًا أنيقًا كاتبًا في وزارة

ولكنه سكر معربد أذاقها المرار في حياتها الزوجيسة ثم طلقها ، ومازال يسوء حالها حتى تزوجت بعامل في التلغراف وجاءت إلى" وأنا قاض في محكمة الأزبكية تطلب من زوجها النفقة .

وهكذا لقيت العناء في الزواج . فكلما دلني صديق على فتاة فلِما أن أجد مانعاً منها أو تجد مانعاً مني ، فن أرضاه لا يرضاني ومن يرضاني لا أرضاه . وأخبراً دلني مدرس معي في مدرسة القضاء على بيت رضيني ورضيته ، فأرسلت أمي وأخبى وزوجة الأستآذ لرؤية الفتاة فرأينها ووافقن علمها ، وجعلت أسأل أمى وأختى أسئلة عن شكلها وملامح وجهها

وطولها وعرضها وفراسهما في أخلاقها ونحو ذلك ، وأستمع لإجابات لا تصور شكلا ولا توضع حقيقة ، وأجلس إلى . نفسى وأعمل خيالى فيما سمعت ، فأصّوغ من ذلك شكلا . وقد أجلس معهما مرة أخرى أسمع مهما حديثا آخر ووصفاً

آخر ، فأتخيل من ذلك صورة أخرى وهكذا، وأخر أسلمت الأمر لله وتركت التصوير حي ترى العن ما رسم الحيال . وتم عقد الزواج يوم ١٣ أبريل سنة ١٩١٦ ، وأُمد أخذت يوم العقد مائة جنيه إنجلزى ذهباً في علية حميلة قدمها مهراً للزوجة ، وانتظرت نحو أربعة أشهر حتى يتم أهل الزوجة الحهاز . وكانت هذه الأشهر الأربعة مجال تفكير في السعادة المرجوة

والأحلام اللذيلة ، وبناء القصور على الآراء الفلسفية أو النظريات المدونة في الكتب ، فأنا أزور المكتبة الإنجلىزية 144

وأمحث عماكتب في الزواج ، فأعثر ــ مثلا ــ على سلسلة من الكتب أحدها فيا ينبغي للزوج أن يعلم ، وثانها فها ينبغي للزوجة أن تعلم وهكذا . ثم أجد كتابًا في الزواج السعيد وآخر في الأسرةُ ، وثالثاً في تربية الطفل فأقروها وأَلهكرفها وأستخلص منها ما بجب أن أعمل لأسسعد وعلى أي الأسس أيني أسرتى وهكذاً . وقد ذهبت بُعيَد عقد الزواج إلى مصوّر ماهر صوّرتي صورة تذكارية احتفظت مها ، ووجدتني قد كتبت على ظهرها العبارات الآتية : ﴿ هُذَهُ صُورَتَى أَخَلَتُ يُومُ الحَمَّةُ ۷ أبريل سنة ۱۹۱۲ وسنًى تسع وعشرون سنة وستة أشهر، عقب عقد زواجى بأربعة أيام ، وقد انخلت الكتب شعاراً لى فى الصورة ، فوضع المصور أمامى كتباً من عنده وأمسكت بيدى اليسرى كتاب ومبادئ الفلسفة ، وكنت قد عربت أكثره وأوشك على الاتهاء . وقد لاحظت أن أصوَّر صورة ف غاية من البساطة فلم أتعمل شيئاً إلا اختيار الثوب الذي اخترته يوم عقد الزواج ، ورنما كان الباعث لى على هذا التصوير ما أشعر به من أنى قادم على حياة جديدة ومرحلة جديدة ، فقد أسبت حباة الوحدة وسأقدم على حياة الأسرة ، وأنا مقتنع أن هذه البيئة الحديدة سيكون لها أثر كبير في نفسي وجسمى وعقلي ، وسأقارن بن المعيشتن وأثرهما إذاكان فى الأجل متسع ــ ومن البوأعث على هذا التصوير أيضاً

144

وإنى في هذه السنة أحس شيئاً من النشاط على أثر دروسي الإنجلزية مع مدرسة إنجلزية كانت تُصلح من نفسي كما تصلح من لسانى ، وكانت ثنقد فيَّ الهدوء والسكينة ، كما كان لدروس الأخلاق مع عاطف أثر كبير في نفسي؛ ومما أحسه أيضاً أنني أكثر حرية في الفكر وأكثر نقداً لما يعرض لى ؛ وأكثر ميلي هذه السنة إلى القراءة في علمي الأخلاق والاجتماع مع ما أجد من الصعوبة في فهم ما أقرأ ، لقرب عهدى بتعلم الإنجليزية ، فقد بدأت تعلمها في يناير سنة ١٩١٤ فلي الآن نحو سنتين ونصف سنة وهي مدة لم تكف في التبحر فها . وأنا الآن مدرس بمدرسة القضاء ومرتبى ١٣٢٠ قرشآ

علمي أن السنة المتعمة الثلاثين تحمّم جياة الصبا والفترة وتفتح.
حياة ينلب علهب العقل والروية ، على أن بـ والأسف
علاً فوالدى بـ لم أتنفع بزمن الصبا والفترة كما كان مجب
ظلم عجد المرح والشاط واللهو بـ ولو كان بريئاً بـ ولا الحب
إلى قلمي متفذاً ، بل تشاغت منذ الفبا بـ وهذا ولاشك أثر
التربية المنزلية ، فقد كانت تربية أسامها التخويف والإرواب ،
ولم يكن في يبيى أى مظهر من مظاهر الهجنة والسرور ،

فى الشهر ولم أمكل " التدريس ولا زلت أفضله على القضاء ـــ

به أمّى من البّاحية الحلقية والاجبّاعية ۽ . (كتب في ٢٠ يوليه سنة ١٩١٦) . وليس لى تعليق على ماكتبته خلف الصورة إلا على قولى ه إن الحب لم بجد إلى قلى منفذاً ، فهو تعبع غبر دقيق وقول لايصدق إلا على رجل جامد العواطف ، بل كانت عواطني أقرب إلى أن تكون حادة وخاصة فى أيام الشباب الأولى ــ ظهرت حدَّمها في العاطفة الدينية فقدكانت مشبوبة حادة ، وفي حيى لأصدقائي فقد كنت آنس بقرسم وآلم لبعدهم ، وفى عاطفة الرحمة والشفقة على الفقراء والبائسين ونحو ذلك من مظهر العواطف ، بل قد تحركت في عاطفة الحب منذ الصبا ، فقد أحببت وأنا فى نحو الخامسة عشرة ابئة جار لنا والنهبت عاطفتي فأرقت كثيراً وبكيت طويلا ، وكل ماكان من وصال أن أجلس أنا وهي على كرسين أمام دارها نتحدث في غبر الغرام ، فلما وسوس الشيطان لأبها حجها عنى وشقيت زمناً بذلك ثم سلوت ثم أحببت المدرُّسة الإنجلزية الشابة حبا ضنيت به ولم تشعر به ، وكل ما سعدت به ساعات الدرس أتحدث إلها وتتحدث إلى" وتنظر إلى بعينها الصافيتين الأمينتين، ولكنه كان حبًّا يائسًا ، فهي متزوجة مخلصة لزوجها سعيدة بزواجها فعاطفة الحبكانث

فى أعماق نفسى ولكنها مكبوتة ، حال دون ظهورها وسطى. فالفتاة لم تكن سافرة سفور اليوم ، وكان الشاب لايعرف من الفتيات إلا أقاربه ، وكانت تربيتي الدينية تعد الجب فجوراً ، والنظر إلى الفتاة وحديثها إغواء شيطانياً ، ومدرسي كبيتي متزمتة متعتنة ، لا ترتاح لأن بجلس طالب في قهوة ، وتعاقب من وجد في صالة غناء . وحدث مرة أن شوهد متخرج حديثاً من المدرسة يجلس في مقهى بالأزبكية مع صاحبيه من غير المدوسة وأمامهم كاسات من البيرة ، فكان من سوء الحظ أن مر علمم عاطف بك ورأى هذا المنظر، ومع أنه لم يتحقق من شرب هذا الشاب البيرة فقد حرمه من تولى القضاء سنن ، ورفض كل رجاء فى العفو عنه ، ولم بعين بعدُ إلا يضغط عليه شديد أو رغما عنه .

كل هذا لم سبقى مجالا الحب ، بل كيتُه فى أعماق نفسى إلى أن تزوجت .

وبعد العلماب فى اختيار الزوجة وعقد العقد وإعدادً الحهاز اخترت بيئاً أسكن فيه وحدى مع زوجى قريباً من بيت أهلى ، وحرصت على ذلك حتى أتجنب الأقوال الشائمة والحكايات التى لاتنتهى فى النزاع بين الزوجة والأم .. وكذلك تمت هذه الرجلة . تزوجت وكان كل اعادى فى الزواج - كما ذكرت 'على الحيال لا على الواقع . الحيال هو الذى رسم صورة زوجتى وأعلاقها وصفاتها متعداً فى رسمه على أحاديث المنساء اللاق شاهدتها ، والحيال هو رسم صورة لحياتى المسقبلة إضاداً على ما صحته من أحاديث عمن سعلوا فى زواجهم ومن شقوا ، وأسباب سعادتهم وأسباب شفائهم ، واعهاداً على ما قرأت فى الكتب الإنجارية عن الحياة الزوجية

ولكن شتان بين الواقع والحيال ؛ فالحيال يرسم الصورة وهو حر طليق محلق في السهاء ، والواقع يلتصق بالأرض ويتقيد بالظروف والبيئة والمكان والزمان وغر ذلك . وقد أذكرنى الفرق بن الواقع والحيال محادث حدث لصديق لى سافرت معه إلى الإسكندرية لنستجم من متاعبنا ، وكنت أعرف العوم ولم يكن يعرفه ، فغاظه ذلك وصم على أن يتعلم العوم ، وصادفأن مر أمام مكتبة إنجلنزية فرأى في ظاهرها كتاباً فى العوم فاشراه ــ وكان قوياً فى اللغة الإنجلىزية فسهر عليه ليلة حنى أتمه قراءة وفهما وعرف منه تمام المعرفة نظرية العوم وكيفيته وطرقه ، وأيقن أنه بللك يستطيع أن يغالب

م ۷ (حیاتی)

أكبر صوام، وحدثنى بذلك فى الصباح فضحكت من حديثه ، فلما ذهبنا إلى حام البحر تبخرتكل نظرياته وعلمه ، ووضع و قرصتن » على ظهره ، وأسك بالحبل المدود ، وطمأن رجليه على الرمل ، ولكن سرعان ما اصفر وجههه واضطرب جسمه وخاف أن يفارق الحبل ليسبح وفقاً لنظريات الكتاب:

قابلت زوجى فكت كن يُغض فلاف و حَلاوة البخت) أو كفترى ورقة و اليانصيب ، حِن يقرأ جدول العرالراعة، وحمدت الله على ما وهب ، وبيق أن أعرف صفاتها اللي تظهر يوماً فيوماً كالم حدثت مناسبة أو جدًّ جديد .

يوما فيوها في عصب ماصه او جد جديد . لقد حشنا زمناً عيشة هادائة سعيدة فيها للة الاستكشاف: أتكشف أخلاقها وتصرفائها وتتكشف أخلاق وتصرفاني ، وفها للة تمقيق الشخصية فقد لبثت طويلا في كنف أبوكي، ، وأنا الآن رئيس البيت حر التصرف إلى آخر ما هنالك :

وقياً لله تحقيق الشخصية فقد لبنت طويلاً و كنف ابوى. ، وأنا الآن رئيس البيت حر التصرف إلى اكتر ما هنالك : ولكن صدم زوجي بعد قليل أن رأتني هادئاً غير مرح ، قليل الكلام ، وقد تربت في بيت مرح ، مماو، بالضمط والبجة ، يكثر فيه الحديث في الفارغ والملاكن ، فظلت أتى

والهجة ، يكثر فيه الحديث فى الفارغ والملائن ، فظنت أنئ لا أفدرها أو أنى نادم على الزواج جا . وأوكد لها أن هذا طبعى كسبته من بيتى ظم تصدق ولم تعلمتن إلا بعد طول العشرة ووثوثها من أنى كذلك مع غيرها لا معها وحدها . ومشكلة أخرى عرضت لها ولى ، وهى أنى رجل مدوس مضطر إلى تحضير دروسي في المساء لألقمها في الصباح ، وفوق ذلك أحب القراءة في غبر دروسي أيضاً ، فأنا فرح يتعلمى الإنجلنزية مشغول أول عهدى بالزواج بإنهاء نرحمة كتاب ومبادئ الفلسفة ؛ ، وزوجتي مثقفة ثقافة محدودة ، تقرأ القصص والروايات الحفيفة من غير شغف ، فهي تحتمل الصباح وحدها لإعذاد ما نأكل وتنظيف ما ينظُّف، ولكن كيف تحتمل المساء أيضاً وحدها وأنا في غرفة مجانها أقرآ وأكتب والأيام هي الأيام الأولى لزواجنا ؟ وحدث مرة أن أعدَّت العشاء وفتحت على البابوأخيرتبي بأن العشاء معدً ، وكنت أمام حملة في مبادئ الفلسفة صعبة ، أحاول ترحمها وأحاور عبارتُها وأتذوق صياغتها ، فلم أسمع النداء والإخباز، ولم أشعر بفتخ الباب ، فكان خصام وكان نزاع وكانت شكوى إلى أهلها لم تنته إلا بعناء : ولم أستطع التحول عنطبعي وغرامى . ثم حلت المشكلة بعض الشيء بالوَّلد الأول واشتغال أمه به ثم بما تتابع من أولاد ، ثم باضطرارها إلى قبول الأمو الواقع والرضا مِما قدر الله من عيش في شبه عزلة بما أقرأ وأكتب .

وكانت نظريني في الأولاد تمالف نظريها ، فكان من رأني الاقتصار على ولد أو ولدين ، شعوراً بمسئولية الربية وتوفيراً للزمن الذي أحتاجه في التحصيل والدرس ، وتمثياً مع النظرة التي أراها وهي أن الأمة المصرية مكتظة بالسكان وأنكثرتهم تحول دون العناية بتغذيبهم تغذية صحيحة وتربيتهم تربية صيحة ، فلو قل عدد الأسرة كانت أقدر على أن ترفع مستواها في أمور الاقتصاد والتربية؛ولكن زوجتي لاترى هذا الرأى ، وقد نصحتها بعض قريباتها بالمثل المشهور وهو و مُصَّيه لئلا يطر، فالطائر إذا نزع ريشه أوقص ً لا يطر، والزوج إذا خف همله لقلة الأولاد كان عرضة أن يطير ويتزوج ثانية وثالثة ، وقد غلبت نظريتها نظريتي ، ولم تعبأ بالمتاعب الى كانت تلاقها في الولادة والنربية ، فرزقت بعشرة أولاد ـــ وقه الحمد ــ مات منهم اثنان في طفولتهما ، وبني لي ثمانية أسأل الله أن عمد في عمرهم ويسعدني بهم ، ستة أبناء وبنتان . وإنى لأعجب لنفسى ويعجب لى غيرى كيف استطعت أن أوالف ما ألفت وأكتب ما كتبت وأقرأ ما قرأت مع ما تتطلبه تربية الأولاد من جهود لا نهاية لها . ويرجع الْفَصْل فى ذلك إلى الأم وحملها عنى الأعباء التي تستطيع القيام مها ، واكتفائى بالإشراف على تربيتهم العلمية والحلقية ، ثم تقصيرى فى إطالة الحلوس معهم ومسامرتهم وإطالة عزلى على مكتى .

على كل حال بعد أن عرفت زوجى أخلاق وعرفت أخلاقها وتكشفت لما ميولى وتكشفت لى ميولها ، حدثت

المصالحة والتفاهم فتنازلت عن بعض رغباتها لرغباتي ، وتنازلت عن بعض رغباتي لرغباتها ، فكانت عيشة هادثة سعيدة نرعى فيها أكثر ما نرعى مصلحة الأولاد وخلق الحو الصالح لتربيتهم .

وأحياناً كان يعكر صفونا شيئان لعله لم غل بيت مهما

إلا في القليل النادر . أحدهما مسألة الخدم ، فالبيت لايستننى عنهم ولا يرتاح

لهم ، وكانت مشكلتهم عندنا مزمنة وخاصة فى الحادمات . فزوجي غضوب ، تريد أن تنفذ حميع أوامرها في دقة ، والحادمة لا تعمل أو لا تستطيع أو تعاند فيكون الغضب ، أو تريد أن تعاملها معاملة السيد العبد ، وتأبي هي إلا أن تعامــل معاملة الند للند ، أو تريد زوجي أن تكون الحادمة نظيفة

والخادمة قذرة ، أو مرتبة منظمة وهي لا تفهم ترتبياً ولا نظاماً ، وهكذا .كثيراً ما يكون للزوجة الحق وكثيراً مايكون للخادمة الحق ، فإذا تدخلت انقلب مركز النزاع من الحادمة إلى" . وزوجى غبور ، فهىلا تحب بطبيعتها أن يكون للخادمة دية مسحة من حمال ، فإن كانت كذلك فالويل لها . والحديث يطول بيننا حول خادمة خرجت وخادمة جاءث وخادمة أساءت وخادمة سرقت . وأخبراً قررتُ إخلاء يدى من الحادمين والحادمات ، وتركت لها مطلق الحرية أن تخرج

من تشاء وتدخل من تشاء على شرط ألا تذكر لى شيئاً من أخبارهم وأحوالهم . والثانى مشكلة وسائل التفاهم ، فقد كنت من غفلتى أعتقد أن العقل هو وحده الوسيلة الطبيعية للتفاهم ، فإن حدثت مشكلة احتكمنا إليه وأدلىكل منا محججه فإما أقتمع وإما أننع وإما أصرٌ ، وإما أعدل ، ولكنى بعد تجاربطويلة رأيت أن العقل أسخف وسيلة للتفاهم مع أكثر من رأيت من السيدات ؛ فأنت تتكلم في الشرق وُهن يتكلمن في الغرب ، وأنت تتكلم فى السهاء فيتكلمن فى الأرض ، وأنت تأتى بالحجج التي تعتقد أنها تقنع أي معاند ، وتلزم أي محاصم ، فإذا هي ولا قيمة لها عندهن . تقول : إن الأوفق أن نتصرف في هذا الأمر بكذا لكذا من الأسباب ، فترد عليك بأقوال متأثرة بعواطف ساذجة . وتقول : هذا التصرف لايصلح لحا يترتب علية من أضرار تعيماً . فترد عليك بأن العرف والعادة غبر ذلك . وتعاقب ابنك لتؤدبه فتفسد العقوبة بتلخلها لمحرد العطف الكاذب وتتصرف التصرفات الحكيمة فتوولها بنظراتها العاطفية تأويلات غريبة . وهكذا أدركت أن من الواجب ألا ألتزم المنطق ، وأنى إذا أردت الراحة والهدوء فلأضح بالمنطق أحيانًا ، وأتكلم الكلمة السخيفة إذا

كان فها الرضا ، وألعب بالعواطف رغم المنطق إذا أردت وهكذا ، كانت حياتنا كالبحر الهادئ ، ولكن من حمن

لآخر تثور مشكلة من هذه المشاكل فيتكهرب الحو وبموج البحرثم تنتهى العاصفة ويعود إلى البحر هنووه .

ولم تكن لنا مشكلة مائية نما تشتّي به بعض العائلات ، فقد وسع الله على" في الرزق ، ولم يأت على" يوم اقتصرت فيه على مرتبي الحكومي ، فعند تخرجي من مدرسة القضاء انتدبت مدرساً للأخلاق عدارس الأوقاف الملكية عرتب آخر ؟ ولما عبنت قاضياً في مصر انتديت مدرساً عدرسة القضاء ، ثم در

على الرزق بما أربح من كتبي ومقالاتى؛ فع ما يتطلبه الأولاد الكثيرون من نفقات كثيرة لم أشعر محاجى إلى الاستدانة ولاً مرة ، وإلى جانب ذلك فأنا رجل ليس لى كيف من الكيوف إلاالدخان ، ثم معتدل في الإنفاق ، وأنا أمييلُ إلى التبذير ، وزوجتي أميل إلى التنبير ،ولو ترك الأمرلى ما أبقيت على شيء ، ولكن زوجتي لكثرة الأولاد ، وما يتطلبه ذلك من حساب المستقبل ، احتاطت ودبرت وادخرت . وكذلك حمانا الله من مشاكل أخرى أصيبت بها بعض

الأسر لا داعي لذكرها لأنها لم تلخل في تجاربنا .

ورزقت بالولد الأول عقب زواجي ، فأوليته كل عنايتي

المدارس الفرنسية ــ في الفرير ــ ثم حولته بعد السنة الثالثة الثانوية إلى مدوسة مصرية ليتقوى فى اللغة العربية والإنجلزية، فلما نجح في البكالوريا ، وكان ترتيبه متقدماً يسمح له أن يكون في الطب أوالهندسة ، اختار الهندسة . وعنيت بالولد الأول أكبر عناية ، علماً بأنه سيكون نموذجاً لإخوته . وقد كنت قاسياً على أولادى الأولين ، شديد المراقبة لمم في درو بهم وأخلاقهم ، أعاقبهم على انحرافهم ولو قليلا ، ولا أسمح لهم بالحرية إلا في حدود ؛ حسب عقليتي إذ ذاك ، ولكنها على كل حال قسوة لاتقاس مجانب قسوة أبى على ؛ وكلها تقدمت فى السن واتسع تفكيرى أقللت من تدخلي وأكثرت من القدر الذي يستمعون فيه عريبهم ، فلم أجد كبير فرق بنن الأولين والآخرين لشدة تأثر من لحق بمن وما أكثر ما لقيت من متاعب الأولاد في صحبهم وفي هراستهم وفي سلوكهم ، وكان لكل سن متاعبها ، فأكثر متاعب الطفولة في الصحة والمرض ، وأكثر متاعب المراهقة

في الدراسة والسلوك ، وأكثر متاعب الشباب في طرق الوقاية

وطالعت من أجله بعض الكتب الإنجليزية والعربية فى تربية الطفل ، وكنت أشترى له اللب الأجنبية الموضوعة للتسلية وتربية العقل ، ولم أرتض له المدارس المصرية ، فعلمته في كلها أحمل متاعها المتنوعة حميعها , وأحمد الله فقد نجحت في تحمل أعبائهم ، وحسن توجيهم إلى حد كبير : فالآن وأنا أكتب هذا زُوجت بنتيّ زوجاً بعد بقدر الإمكان سعيداً ، وأتم ثلاثة دراسة الهندسة والرابع فىطريق إتمامها ،ولما ضقت ذرعا بالهندسة وكرهت ءياع النغمة الواحدة تدخلت فيالأمر بعد أن كنت أترك لهم الاختيار ، فوجهت الحامس لدراسة الحقوق ، وحاولت أن أوجه السادس للطب وقد كان أولى البكالوريا في القطر كله فلم أفلح . وكان حنوى وحنو أمهم عليهم بالغ الحد ، حتى لكثيراً ما ضحينا بسعادتنا لسعادتهم ، وتعبنا لراحتهم ، وأنفقنا من صما محافظة على صحبهم ، ونحن نطمع أن يتولى الله وحده الحزاء . أما هم فقد محاسبوننا على الكلمة الصغيرة يظنون أنها تجرح إحساسهم ، وعلى التقصير القليل يظنونه مساً محقوقهم، وعلى العمل يسيئون تفسىره ، وقد يكون الغرض منه خبرهم؟ ولكن الموقف النبيل يقضى بأن تربية الأولاد ليست تجارة ، تعطى لتأخُذَ وتبيع لتربح ، إنما هي واجب يؤديه الآباء لأبنائهم وأمهم ، فإن قدَّره الأبناء فأدوا واجهم نحوآيائهم

والمهارة فى الإشراف من بعيد . وكثيراً ماكان عندى الأسنان

فها ، وَإِلاَ فَقَدْ فَعَلَ الآباء مَا عَلَمِم ، وَالْمُحَاثِثُ اللَّهُ .

سفری إذا سافرت ورحلاتی إذا رحلت فلا أزال أذکریم فی سفری حتی أعود ، ولا تهنأ لی راحة إلا إذا عدت إلهم ؛ وإخرانی المسافرون معی يستنكرون ذلك می . ولا أرام عمون إلی أولادهم حنينی .

11)

جاءت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ، وكانت أحداثها وقوداً لإلهابالشعور الوطني ، فخلع الحديوى عباس وأعلنت بريطانيا الحاية على مصر ، فحزَّ ذلك في نفوسنا ،وولى الأمر حسن كامل ملطاناً على مصر، فأثرت في شعورنا الطريقة التي عين مها ، فقد كان والى مصر يعين من قبل سلطان الآستانة بفرمان محمله مندوب سام من قبل السلطان ، فرأينا في هذه المرة أن تعين سلطان مصر يتم نخطاب وجهه إليه متولى أعمال ألوكالة البريطانية . وعانت مصر ويلات الحرب من سوء الحالة الاقتصادية ومن اعتداء الإنجلىز على الأهالى ، وتشغيل العال المصرين رغم أنوفهم ، وأخذ السلطة الإنجلنزية الدواب والمحصولات جدآ ، وتحليق الطيارات الألمانية فوق القاهرة وإصابتها بعض الأهالي ، وتسفير العال المصريين إلى فرنسا والعراق ، ونزع السلاح من المصريين . كل هذا وأمثاله ربي شعورنا الوطني ، وكبت العواطف انتظاراً للهدنة وتنفيذ إنجلترا ما وعدت به مصر ، وإن كان وعداً غامضاً ، وقد

إنما عاربون دفاهاً من الحرية ، وأنه إذا انتب الحرب فلا استمار ولا استغلال ، وإنما تقرر كل أمة مصبرها وتدير أهورها بنفسها ، خاب أمل مصر إذ رأت أن الأحكام العرفية لاتزال باقية والحالة الاقتصادية لم تتغير ، واحتكرت السلطة البريطانية محصول القفلن وحددت ثمته ، ولم تبد أية جلامة

تدل على أن " في يتم إنجائرا أن تمنع مصرشيئاً من استقلالها ، فانجهت أفكار بعض الزحماء إلى مطالبة الإنجائز بوفاء ما وعدوا ، وتألف الوفد المصرى وعلى رأسه سعد باشا زخلول ، ثم قبض عليه وعلى بعض حميه ، وقامت المظاهرات وكثر التخريب واشتملت البلاد ناراً ، وعاقب الإنجاز الأمالي عقاباً شديداً بإطلاق الرصاص على المتظاهرين والتنكيل بعض

أفسح هذا الأمل عند المصريين تصريحات ولسن والحلفاء بأنهم

القرى تتكيلا يديب القلوب ، إلى تشو ما يعرفه القراء من الأحداث السياسية القريبة العهد.
وكانت مدرسة القضاء تنفل من هذه الأحداث كما ينفل غيرها من المدارس العليا ، وزاد غليا با أيام تكون الوفد وملى رأسه سعد باشا زغلول ، إذكانت المدرسة تعد نفسها صنيعة من صنيعاته وعملا من أهماله الحليلة ، وأن الرطنية والرفاء مما يوجبان عليا تابيده ما اضطاعت ، وعمل رأس

المدرسة عاطف يك بركات من أقرباء سعد باشا ومن أقرب المقربين إليه . لهذا كله ساهمت ـــ وأنا مدرس فى مدرسة الفضاء ـــ في

الناحية السياسية . وظهرت هذه المساهمة من يوم تكوّن الوفد واعتقل سعد .

معميتنا الثقافية التي سبق أن تحدث عنها والتي كانت تخرج جريدة السفور كثيراً ماكانت تتحدث في السياسة ، وتقلب ما جد من المرير على وجوهه ، فلما بدأ الوفد

ونصب ما بعد من «مورد على وجود» كما بد الوقد ؟ يتكون قالت هذه الحياة : لم لا يكون لنا ممثل فى الوفد ؟ وانتديت النين كنت أحدهما لمقابلة صعد باشا وعرض الفكرة عليه ، فلمعيناً إلى ، د لكن وجيناة، مشغولاً فأطالنا بعد أن عرف مطلبنا على أستاذنا أحمد لطلم السيد ، فحادثناه فى

الأمر ، فعال : ويام من تتكلمون ؟ قلنا : ياسم حاعة العقلين. وناقشنا طويلائم عرض الأمر على سعد باشا زغلول يعد أن عرف أمياه الحياعة ، فاختار منا الشيخ مصطفى عبد الرازق مجلنا في الوفد المصرى ، ولكن الشيخ مصطفى اعتلز بعد أن شاور أسرته.

ولما اشتعلت نبران الثورة كنت من المتصلين بعبد الرحمن بك فهمى سكرتبر الزفد ، وكان يضم إليه حاعة من الشبان يوزع عليهم الأعمال ، فاختارنى للإشراف على عملين : الأول إلقاء الخطب السياسية في المساجد عقب صلاة الحممة ، فكنت أجتمع مع يعض الزملاء وأنظم معهم إلقاء هذه الحطب وأوزعهم على المساجد وأعين معهم موضوع ما يقولون . والأمر الثانى كتابة المتشورات نذكر فيها أهم الأحداث ، ومن أهم ما أذكره من هذه المتشورات منشور كتبته على

ومن أهم ما أذكره من هذه المنشورات منشور كتبته على أثر مظاهرة السيدات : فني يوم ١٦ مارس سنة ١٩١٩ ، اجتمع لفيف من الآنسات والسيدات الراقبات وألفن مظاهرة سارت في شوارع العاصمة ، وكان منظراً جريئاً مدهناً لم

يرو التاريخ مثله فى مصر، وأخلن ينادين بالحرية والاستفلال ويسقوط الحاياة والظلم ، ويلوّحن بأعلام صغيرة ، فلم سرن طويلا ووصلن إلى ميدان من مبادين العاصمة ضبرب الإنجليز علمين نطاقا وصوبوا إليهن البنادق ، فلم يرهن هذا الهديد وقالت إحداهن : أطلق بننقيتك فى صسدى لتجعلوا منى مس كافل أشوى . ثم انصرفن بعد أن وقفن فى الشمس

نحو ساعتين ، فكتبت في ذلك منشوراً مطولاً في وصف هذه المظاهرة وأثرها والهييج بها ، وطبح ووزع . وقد كانت في مكتب عبد الرحن بك فهمى مذكرة بأسهاء الذين يشتظون ممه في هذه الأعمال فلما قبض عليه وخم مكتبه بالشمع الأحمر كسر بعضهم الباب وأحد الأوراق التي يظن آنها توقع الأذى ببعض الأشخاص ومنها هذه المذكرة ، ولولا خلك لسنجنت كما صمن غيرى من زملائى .

وکنت شدید الصلة بسکر تبر سعد باشا زغلول (کامل بك سلیم) ، فلما أطلق سراح سعد وذهب (کامل بك) مع

الرفند إلى باريس كان على أن أصف الحالة في مصر من حين لآخر، وأرسل بللك تقريرات إلى سكرتير سعد ليطلمه عليها ، وكانت ملم سبياً في معرفة سعد باشا في ، فكثر اتصالى به ، بل كان يرسل إلى الشيغرة الحديدة إذا غبرت

الأوصلها إلى بعض الأعشاء في مصر ، إذ كنت شيخاً ملوساً في مدوسة القضاء لا يظن أحد أن أمراً عطيراً كهذا يأتى إلى "

يأتى للى .
ولما انتسم الوفد واتهم عدلى باشا وصحيه بيعض الاتهامات كنت فى صنف سعد باشا ومن مؤيديه والداعين له ، ومع ذلك لم يضم استقلالى فى التفكر ، فأذكر مرة أن كان

قبل أن ساحه علناً ، فسألته الأدلة على هذا التجريع ، فأنى بأدلة لم تقنفى ، فرددت عليه فغضب منى وقال لى : • إنك اليوم سي، المنطق ع . على كل حال انغمست في السياسة واشتركت في المظاهرات

سعد باشا في حجرته في منزله ، وتناول عدلي باشا بالتجريح

٧.٦

وخاصة فى المظاهرات التى ترى إلى التغريب بين الأتجاط والمسلمين ، فكنت أتلمس المظاهرة ، فأركب عربة وأثا يهامى أصطحب فها قسيدًا علابمه الكهنوتية وتحمل علماً فيه المسلمين والمطلال وتحو ذلك من أعمال.

واشتدت الحركة الوطنية فى مدرسة القضاء وأفلت زمامها من يد عاطف آبك بعد أن كان لايسمح عظاهرة ما ولا إضراب ، إلى أن جاء يوم " انعقد فيه عجلس الإدارة في للمنرسة ، وكانت الوزارة وزارة نسم باشا الأولى وهي ليست على وفاق مع سعد ، وكان وزير المعارف محمد توفيق رفعت باشا عضواً فيه ، فاجتمع بعض الطلبة في جزء من فناء المدرسة تحت شباك الحجرة التي ينعقد فها المحلس وهتفوا يحياة سعد وسقوط وزارة نسيم ، فاتهم رفعت باشا عاطفبك يأنه دبَّر هذه المؤامرة مع أنه برىء من ذلك فيما أعتقد ، ولم يأت المساء حتى أعلن قرار مجلس الوزراء بإحالة عاطف بك على المعاش .

أثر هذا الحادث فى نفسى أثراً كبراً وحزنت له حزناً عميثاً ، فقد لازمت عاطف بك نحو خمة عشر عاما فىمدوسة الفضاء ، تلميذاً ومدوساً ، وأنا أستميد من روحه ومن خلقه ، فلما خرج مها أحسست أن بناء المدوســـة قد هدم على رأسى . وعن للمدرسة ناظر جديد(١) لاأعرفه ولايعرفي ووجدت المدرسين فى المدرسة يقابلونه مقابلة حسنة ويسيرون معه كما كانوا يسرون مع عاطف بك فإن حزنوا لخروج عاطف فحزن في نفوسهم من غير أن يكون له مظهر خارجي ، أما أنا فلسذاجتي لم أستطع أن أكتم عواطني ، فلم أستقبله عند حضوره ولم أسلم عليه إلا إذا قابلته عرضاً ، وكانت تأتيه الأحبار أنى أذهب كل يوم عصراً إلى عاطف بك في منزله ، فكرهني أشدكره ، وأعلن ذلك في حمع من الأساتدة ، وقال إنه محب أن يتعاون مع كل المدرسين إلا إياى ، وساءت حالتي في المدرسة . وحدث أن قرّر مجلس الإدارة يوما تعيين متخرج من مدرسة القضاء مدرساً بالمدرسة بشرط ألا يدرس الفقه ، فرأيت القرار نابياً ، وأنه بمس مدرسة القضاء في صميمها ، فتحدثت بذلك مع المدرسن والطلبة وترتب على ذلك أن هاج الطلبة لما أن سمعوا كلامي ، وبلغ ذلك الناظر الحديد فركب عربة وذهب إلى رئيس الوزراء عدلى بأشا يكن وأبان أنه لايستطيع العمل معي ، فأصدر أمره ينقلي إلى القضاء . فعينت قاضياً في محكمة قويسنا الشرعية ، وكان هذا آخر العهد بتدريسي بالمدرسة .

⁽ ۱) هو المرحوم على بك الكيلاق. ۲۰۸

وانتهت بذلك مرحلة طويلة ، هي زهرة العمر تقريباً : خسة عشر عاماً من سي الشباب بن طالب ومدّرس ، تلت فيها أكثر ثقافتي ، وجربت فيها أكثر تجاربي في الحياة ، وتعلمت ما استطعت من العلم ومن الناس ، ولقيت فيها · أكبر الشخصيات التي أثرت في نفسي ، وطبعت فها بطابع لازمني طول حياتي ــ دخلها مغمض العينين ليس عندى إلا قليل من التجارب ، وخرجت منها شيئاً آخر ، لذلك بكبت عليها كما أبكي على فقد أب أو أم أو أخ شقيق ؛ ومما آلمني أنني تركت التسدريس وهو ما أحبه إلى القضاء وهو ما لا أحبه ، وظللت أعزى نفسى بالاتصال بعاطف بك وبعض الأساتلة الذين أحهم اتصال صداقة ؛ كما ظللت أساهير في السياسة وأشارك بعض من صاروا من زعماء السياسيين (١) ، ولكن لم أندفع اندفاعهم ، ولم أظهر في السياسة ظهورهم ، لأسباب أهمها أنى ــ على ما يظهر ــ لم أتشجع شجاعتهم ، فكنت أخاف السجن وأخاف العقوبة . وأعل من أهم أسباب خوق إشفاق على والدىّ وقد أصبحت ابنهما الوحيد ؛ إذا سمعا محبسي أو عقابي هنــ ذلك من كياسهما ِ الذي أشرف على السقوط . وقد علمي أبي الإفراط في

[.] (1) مثل الموحوم محمود فهمى النقرائبي ويوسف الجنائ والموحوم صبرى أبو عُمر .

على هذا الملده ، بل كنت أويد سمناً وأقده ، وأويد عملاً وأقده ، وأويد عمل وأقده ، وأويد عمل وأقده ، وأويد يوشن بكل ما يصدر عن الحزب ويتحمس له ، وإنما هو المزاج العلمي الذي يزن الذي ء يحرداً ثم يحكم له أو عليه في أثاة ، فأنا أطهر في السياسة ظهور غيرى ، ولم أكتو بندائها ، وأنم بجانها كل فعل غيرى .
قالمت في القيماء أربع سنن ، سنة في قويسنا ، وسنة في طلت في حدثان فل مؤلخ ، وسندن في عكمة الأزيكية ، وهم ذلك فلم ألم مثلت في حدالة فلم المراحة المراحة ، وسندن في عكمة الأزيكية ، وهم ذلك فلم ألم مثلت في حدالة المراحة المراح

وتهم جناب ما على صورى .

قاطح - وسنتين في عكمة الأزيكية ، ومع ذلك فلم
قاطح - وسنتين في عكمة الأزيكية ، ومع ذلك فلم
أستمرئ القضاء ولم أسعد به كل ما أراه أسرٌ قد خريب ،
أما الأسرة السيادة فلا أراها . زوجة تطلب نفقة من زوجها ،
وزوج يطلب الطاعة من زوجه - ونحو نمانين في المائة من
الفضايا من هلما القيل ، فيحكم بالنفقة على الروج ، فإن لم
ينخ فيحكم بالحيس ، ويحكم بالناهة على الروجة ، وفائ لم
أسكم بالطاعة وأنا لا أستسيغها ولا أتصورها ، كيف توخل

التحكير فى العواقب ومن فكر فى العواقب لم ينشجع . والسبب الثانى أن مزاجى مزاج علمى لا سياسى ، ولهذا كنت أعتلف عن زملائى السياسيين بأنهم كانوا يوشعون بسعد باشا كل الإعان ، ويعتمدون صحة كل ما ذهب إليه وارتاه ، ويؤولون ما يصدر عنه من خطأ ويلتمسون الحجج لتعريره ، ولم أكن

كذلك ؟ وكيف تكون هذه حياة زوجية ؟ إنى أنهم قوة البوليس في تنفيذ الأمور المادية ، كرد قطعة أرض إلى صاحبها، ووضع محكوم عليه فى السجن ، وتنفيذ حكم بالإعدام ونحو ذلك من الأمور المالية والحنائية . أما تنفيذ المعيشة الروجية

بالبوليس فلم أفهمه مطلقاً إلا إذا فهمت حبًّا بإكراه ، أو مودة بالسيف . ولهذا كنت أصدر هذه الأحكام بالتقاليد لابالضمر ، وعما في الكتب والقوانين واللوائح ، لا بالقلب وكنت أشعر شعور من عضغ الحصى أو بتجرع الدواء المر . وباق القضايا على هذا المنوال أيضاً : امرأة يدعمها زوجان ،

زوج بورقة عرفية ، وزوج بورقة رسمية ؛ ودعوى زوجة طلاقاً ينكره الزوج ، ونحو ذلك من أمور لاتختلف عن الأكثرية كثيراً . فإن استفلت شيئاً من عملي في هذا المنصب **فدراسة اجباعية علية للأسر المصرية . وقد ظهرت على**

عهدی هذا ظاهرة جدیدة لم تکن معروفة کشراً قبل هذا العهد ، وهي تقاضي الأسر المتوسطة والأسرّ العالية أمام المحاكم . وقدكان هذا فيا مضى يعد عاراً كبراً ، ولا يلجأ إلى المحاكم إلا الأسر الفقيرة وأمثالها . وبما أَفَادني أَنِي كثيراً ما كنت أَنحَى المحامن عن الكلام

وتزويقهم للأموز وادعاء بعضهم ما ليس بصحيح، وأطاب خضور المتخاصمين شخصياً فيجلسة سرية ، وأستمع إلى كل هذا النزاع مما لايذكره المحامون عادة . فكنت أعرف سرّ الخصومة، وذلك شيء ليس في الأوراق ، ثم أعالج هذا السر عا أراه ناجحاً ــ وأكثر ما يكون بالصلح بن المتخاصمنـــ أِمَّا بِالفَرْقَةُ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَمْلِ فَى نَجَاحِ الْأَسْرَةُ ، وإِمَّا بِالنَّصِح يما يحسير الخلاف ، كأن يسكن الزوجان بعيدين عن أهل الزوج أو أهل الزوجة أو نحو ذلك . ثم استفدت المران على الحكم على الأشياء . فالقضاء لايكون إلا بعد فهم الدعوى ، ولايكون الفهم حيى يسمع كلام الطرفين ، ولايكون الحكم حتى تدرس القضية من حميع نواحما ، ولا يكون حي يتكون الرأى بناء على أسباب معقولة : كل هذه دروس منطقية عملية تطبع الشخص بطابع خاص لابجده في التدريس ولا في غيره من الوظائف . فأربع صنىن يشغل فمها الذهن ليل نهار بتفكر فى قضايا وتحليل لها وتأمل فى أحكام هذه القضايا ووضع أسباب لما وصل إليه من حكم لابد أن تترك في النفس أثراً عميقاً . ولقد همت في بعض أيامي في القضاء أن أدرس الأسرة

هراسة علمية ، فأهددت كتباً كثيرة فيها باللغة الإنجليزية ، وأددت تطبيق ذلك على ما أراه من الأسر المصرية ، واستخراج الإحصاءات الرسمية فى عدد ما محدث فى مصرمن

مُهما في توَّدة وتقص لمعرفة الأسباب الأساسية التي أدت إلى

زواج ومن طلاق ونسبة الطلاق إلى الزواج ونسبة من يزوج أكثر من واحدة إلى غير ذلك من إحصاءات، لأستنتيج النتائج الاجهاعية التي تدل علمها ، ولكنى مع الأسف لم أتم هذا البحث . وفي سنى القضاء نسيت ما كانت توصيني به السيدة

الإنجازية ، من قولها تذكر أنك شاب ، بل كنت أقلكر دائماً أنى شيخ ، فالقضاء الشرعي يتطلب وقاراً وجلالا وشياً يطيئاً وحركة جامدة وإلا كان أهوج أرعن ، والقاضى الشرعى - بجانب ذلك - ينظر إليه على أنه وئيس دينى ، خبجب أن يتحرج من الحلوس في قهوة أو أن يكون في ناد تشرب فيه خر أو يلعب فيه ميشر ، وإذا جلس في قوم فلان أن يتحدث حديثاً ديناً أو أعلاقاً وعلى الائل أن بكون جاداً لاعزح ووقوراً لا يفسحك . وحدث مرة وأن فاض في قويسنا لاعزت مربك ، ققد دعافي إلى المشاه طبيب المركز مع كبار الموظفين وبعض كبار الأحيان وأنا أعلم أن

بعض المدعوين وبعض غراء ادعوان وادا المهم ان بعض المدعوين بشرب خمراً ، فأخرت في الدهاب الم بيت الطبيب حتى يأخلوا حريهم قبل حضورة ، فلم ذهب وجفت الباب مفتوحاً والمدعوين في حجرة أمام الباب فانتظرت حتى بأتى الجلدم فلم عضر ، فلحات عليم في المجرة وإذا همي معمية وإذا همي حافة ، وإذا الكوثوس تمكر ، فهت الحاضرون وجت وخجلوا وخجلت ، وإذا

(11)

بعضهم بأشد الزجاجة والكأس وغفهما تحت المائدة ، وزاد اضطراق واضعلوا م ، والتباكي وارتباكهم ، فقصدت إلى الطبيب صاحب الدعوة وأفهمته ألى خضرت أكتناد . فقالم مقاريد وألمّة على أنّ أكتون فى بينى الآن ، فقهم ما أريد وألمّة على "أنْ أكتفار فى حجرة أخرى لحظات تللة حى أضررت وخرجت وكان صواباً ما فعلت ، فلر جلست معهم لحرجت الثاقات بأنى كنت الشربين ، والهو مع للاهن ، ولسقط مرتزى الشيق ومركزى القضأن ما أ

(22)

في نمرة القضاء هذه مات أبي رحمه الله وأنا تأض في قويسنا عن نحو تمانين عاما إثر عملية جراحية ، فقد أصيب و بفتر ، وهو في نحو الأربعين من عمره فلم يفكر في عملية يعملها ، وظل يلبس الحزام الحلك يضغط به على موضع والفتري في خلمه صباحاً ، ويعاني في فلك مشقة بعض ألامما ويعلول إدخالها ولبس الحزام فيستم عليه ذلك فلمرح أبي طبيب يعالمه ، وكان هذا سبياً كبراً في ضبين فأمرح أبي طبيب يعالمه ، وكان هذا سبياً كبراً في ضبين خلقه والتنبيس عليه وعلينا — يشاف إلى ذا ما أصيب من إساك نوين فكان إذا طال به الزين ساء مزاجه وتلمس من إمساك برين فكان إذا طال به الزين ساء مزاجه وتلمس ألى شيء ينقب عليه — ولعل يبتنا مدين لهذين السبين في

التنغيص عليه من حنن إلى حنن ، وما حُرْمه من ضحك ومرح وسرور ، وماكان من معيشة انفصالية بميل فها أبي إلى العزلة والانفراد بنفسه وآلامه ـ وطالت به هُذه الأمراض من غير أن يعرض نفسه على طبيب إخصائى ، فلما كبرت عرضته على أكبر طبيب فقرر أنه كان بجب أن يعمل العملية وهو في قوته وشبايه ، أما وقد تقدمت به السن إلى هذا الحد فلا محسن عملها ، وأخبراً اشتد به الألم وضجر من حالته ، فانهز غيابي في قويسنا وذهب إلى طبيب جراح في المرتبة الثانية أو الثالثة ، وكان تلميذاً له قدعاً فحسن له عمل العملية ، وتجرأ فعملها من غبر أن أعلم أو يعلم أحد في البيت ، ولم أدر إلا وتلغراف يأتنيي بقويسنا محمل الحمر ، فغزعت لذلك وحضرت إلى مصر وذهبت إلى العيادة وطمأنني الطبيب أن العملية ناجحة،ولكن لم بمض يوم حتى أصيب بالهاب رثوى قضى عليه في ساعات ومات وأنا مجانبه يوصيني بأمى وأخيى" ويدعو لي و أن يكون الله في عوني ٢.

وبلمك انهت حياة حافلة شاقة ملتت بالكد الدائب والسمى المتواصل فى طلب العلم وطلب الزرق ، فقل أن يفارقه كتاب يقروه أو يكتبه ، ورزقه متصل بعلمه من درس يدرسه أو كتاب يصححه أو نحوذك ، لا يمعه عن ذلك مرضه أو كتارثة نزلتبه ، مندين أشد المتديّن ، يكثر من الصلاة ومن قراءة القرآن والحديث ، ويزكى ويصرف زكاته على الفقراء من أقاربه ، ويصوم ومحج ويتبجد بالليل ويبهل إلى الله . وإذا صدرت منه سيئة أو ما يظما سيئة أكثر من الندم والاستغفار والتوبة ؛ زاهد عن السمى فىطلب الرزق إلا بمقدار ما تحتاج إليه أسرته ، فإن زاد شيئاً فبقدر ما يدخره ليوم الحاجة ــ يكثر من ذكر الموت ويتبع ذلك بأحاديث بحفظها فى تفاهة الدنيا وحقارة شأنها وهو أنها على الله ، وبيني مقدة له يذهب إلها ويتلو عندها القرآن يرجو بذلكِ أن تكون منزلا مباركاً له عند وفاته . سهزأ بالدنيا وزخرفها ومباهجها ، رأيته مرة يلبس كسوة تشريف ليذهب إلى حفلة المحمل ثم يقف فى الغرفة قليلا متردداً ثم مخلعها ويرمها بيده إلى أحد أركان الغرفة ويقول : إنما الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة . ومجلس بعد ذلك يتلو القرآن .

وهو فى حبه عمرم ، إذ هو أكبر رجل ديبى فى الحمى . يقوم له الناس إجلالا إذا مر عالم ، ويفزع إليه الأغنياء والفقراء فى أمورهم الدينية وفى الفتيا فى مسائل الزواج والطلاق والمراث ، ويسأله أعيان الحمى أن يقرأ لم درسا دينياً فى بيت من بيوت أحدهم ، وسهدون له المدايا الكثرة فى الأعياد والمواسم .

وهو بسيط في أكله وشربه ولبسه ونومه ، حتى المِأْكُل ما قدم إليه من غير ضجر ، وينام على حشية من غير سرير ، ويلبس في دقيقة ملبسه البسيط في غير أناقة . يشتد على أولاده فلا يعطيهم من المال إلا بقدر الحاجة حتى لايفسدوا ، ومحاسبم على تعلمهم محاسبة عسرة ، فهو متحنيم دائماً في حفظ القرآن وحفظ المتون وفي فهم دروسهم، فإذا أخطئوا حَسَّبكَ وحوقل وقد يغضب ويضرب ، وكل صبتنا له صحبة درس جديد أو امتحان في درس قدم . ولا أذكر أنه مزح معنا وقل أن ضحك في وجوهنا . وللملك كان اطمئناننا ومرحنا القليل ساعة يغيب عن البيت، وخوفنا ورهبتنا وحبس أنفاسنا ساعة بحضر ، ومن مزاياه أنه كان يرى تعليم البنت كما يعلم الإبن ، فأرسل أخيى الكبرى ، إلى المدرسة السيوفية وكانت المدرسة الوحيدة المصرية لتعلم البنات ، في حين أن أكثر الناس كان يرى تعليم البنت في المدارس جرىمة لا تغتفر .

دنياه التى يعرفها أزهره ومسجله وكتبه ومن يتصل به من أهل حيه . أما السياسة والاحتلال وأما شئون الاقتصاد وأما الحياة الاجتماعية والمدنية مما يجرى وراء حيه فلا يعلم عنها شيئاً ، فهو لايقرأ الجرائلة إلا إذا وقعت فى يله عرضاً ، ولايجمع بالناس يتكلمون فى الشفرن العامة إلا قليلا . عب الريف وعن اله ، وفي بعض الآيام كان عندنا حمار يركبه ويُركبني معه فيخرج به إلى الحزيرة أوالجزة ، ونقضى النهار تحت شجرة أو مجوار ساقية أو على شاطئ النيل ومعه كتاب يقرؤه ، ثم يعود وقد غذى عواطفه ،

لل كوبرى قصر النيل حيث نحتار مكانا مجلس إليه . وله صديقان من الفلاحن فى جزيرة أمام مصر القدعة يزورهما ــ وأنا معه ــ من حن إلى حن ، وخاصة فى موسم

الشهام والبطيخ ، فتفضى هناك اليومن والثلاثة بن المزارع وعلى شاطئ النيل ، ولا ندخل البيوت – حتى الليل فقضيه تحت سقف السهاء كأنه لما حرم مزارعه فى بلده كان يعوضها عمل هذه الحولات .

عثل هذه الحولات. ذكري عبيد فهم الكتب الأزهرية ، وله شوق إلى قراءة الكتب الأدبية والتازعية من غير تعمق فها أوقراءة منظمة لها ، يفرض الشعر أحياناً في مناسبات ولا يقرضه حي

يتخر قصيدة من ديوان شعر عاكبا فى الوزن والقافية ويتخبر من معانها فتأتى أشعاره متكلفة لا روح فها . ولا أهرى لماذا لم علول الثاليف فى أى فرع من فروع العلم مع توفر الأسباب لديه . مع توفر الأسباب لديه .

ومع شدته على أولاده كان رحيا بهم ، وتظهر رحمته ۲۱۸ فى قلقه على ولده إذا مرض وحرقة قلبه إذا مات ، وحنيته إليه إذا غاب ونحو ذلك . وكان يؤثرني على إخوتى فى العناية بتعليمي لما كان

يظهر له من استجابتي وطاعتي ؛ فإليه يرجع أكبر الفضل في أساس تعلمي من يوم أن ذهبت إلى الكتبّاب إلى يوم أن دُخلت مدرسة القضاء ، ولولاه لم أنجح في دراسي الأزهرية لصعوبتها وكثرة العوالتن فيها ، فقد سيَّلها على بأسلوبه وقرب عبارته ووضوح معانيه ، ولولا نجاحي على يده في العلوم الأزهرية ما نجحت في الدخول في مدرسة القضاء ؛ بل منه تعلمت الصر على الدرس واحبَّال العناء في التحصيل ،

ومنه كسبت وضوح العبارة وبساطة الأسلوب ، ومن مكتبته المتنوعة الغنية بكتب الأدب والتاريخ نبت فى نفسى حب الأدب والتاريخ ؛ وعلى الحملة فقد ورثت منه ـــ إلى حد ما ــكثىراً ثما لى من مزايا وعيوب . لهذاكله بعد أنكرت ودخلت مدرسة القضاء وتحررت

من رعايته لى وقسوته على "بدأت أشعر بفضله ، وينقلب خوفى منه إلى حب وإجلال له ، وبعد أن أصيب بفقد ولديه زاد عطني عليه وبذل كلجهد في عمل ما يرضيه . ومن جانبه بادلني عطفاً بعطف وحنانا محنان ، وترك لي التصرف في ماله وشئونه ، وتفرغ لحزنه ومرضه ، ودينه . فلما مات أحسست لدعة أليمة وركناً سدم ولم يعوض . وفراغاً لم يملأ ـــ رحمه الله .

وبعد قلبل من وفاة أبى عوت أبى الروحى النسانى (عاطف بركات) فاحزن عليه حزناً قريباً من حزف على أبى ، وأفنت على قدره عند دفته وأرثيه بكلمة أود شها قلي، وأنظر اليه فى كفته وهم ينزلونه إلى قدره فيصفر وجهى ويسيل دمعى وأحز بأسنانى على سبابى فاكاد أتطعها ، وينظر أفرباؤه إلى فيجدونى أحزن أكثر مما يحزنون ، وألتاع أشداء ايناعون فرثون لحال ويشفقون عما ي

لقد تسلمني من أبي بعد أن رباني التربية الأولى فرباني التربية الثانية ، وقد عاشرته نحو ثمانية عشر عاماً من سنة ١٩٠٧ إلى وفاته سنة ١٩٧٥ منها أربعة وأنا طالب وهو ناظر وأستاذ ، وعشرة وأنا مدرس وهو ـــ أيضاً ـــ ناظر وأستاذ ، وأربعة وهو يشتغل بالأمور السياسية وأنا أتلتي عنه دروسها ... فبعد خروجه من المدرسة على النحو الذي أشرت إليه قبل ، تفرغ السياسة وانضم إلى الوفد ونفي إلى و سيشل ۽ ولما عاد وتولى سعد باشا الوزارة عنن وعاطف ، وكيلا لوزارة المعارف، وتولى أمر الوزارة كلها ، وقد عرض على" إذ ذاك أن أكون مفتشاً في الوزارة معه فاعتذرت، ثم عرض علي ۖ أن أكون أستاذاً للشريعة في مدرسة الحقوق وقبلت ،واتصل مات قبل أن يتم ذلك ، فقلب لى ظهر المجنّ وقطعت إجراءات التعين وعنن غيرى ، والنهى كل شىء كأن لم يكن شىء . ولم يطل أمده فى وزارة المعارف ، فقد دب داء السرطان إلى رأسه ، وعانى من الآلام المضنية الشىء الكثير ، تقدكان

بناظر الحقوق واتفق معه على ذلك واختىرت دروسي ولكنه

خصفی برهایته منذ کنت طالباً ، فلما کنت مدرساً آنیمی
به فی دروس الأخلاق ، فکنت آلازمه فی دروسه وقد آقضی
البار معه فی بیته عصر الحدیلة ، و لما ان فی دیرته جمه محبرة
کنت آفضی معه فیها الایام . وکان براسلی من سیشل
کنت آفضی معه فیها الایام . وکان براسلی من سیشل
لاتاربه واثنی من أم نقائه کنت أحدهما ، وهذا ما مکنی
من الاستفادة منه .

كانت أكبر مبرة الد في عقله قوة التحليل وسلامة الفكر، وحرية الرأى وقوة الحبة ، والإطلع في الإقتاع وسعة الصدر الرأى الهذاف – وكانت حريته في تفكيره أقوى من حريته في علمه ، فقو في إصلاحه متحقظ ، يقدر كل الظروف الحيطة ويصدل في حلمة ، وأكبر مبرة الد في خلقة أداء الواجب لأنه واجب من غير أي اعتبار آخر ، وعدله الثام ولو لي في ذلك العذاء ، في بلد تسره المحاملة ولو بالظلم ، ويضرح بالوعد ولو بالكلب ؛ وجمه النظام الدقيق ، فكان يشيد

کان الناس يضبطون ساعاتهم على موعد خروجه ؛ وصدق فى القول حتى لم يأخذ عليه طالب ولا أستاذ كذبة ، وحدثنى أنه وهو طالب في إنجلترا دخن يوماً سيجارة في حجرة لايسمح فيها بالتدخين ، فلما أتم تدخيبها دخل مراقب المدرسة

بذكر وكانت، إذ كان يرى أداء الواجب لذاته ، وإذ

الحبجرة عليه وعلى صبه فقال : إنى أشم رائحة دخان فمن الذى دخن : فسكت عاطف ؛ ثم كور المراقب القول وكرر عاطف، السكوت ، ثم خرج المراقب فنظر الموجودون إلى ه عاطف، نظرة ازدراء ، فعاهد الله من يومه ألا يكذب ؛ ورجولة تامة فهو يكره سفاسف الأمور وتواقه القول ، إذا

تدنى محدثه رفعه هو إلى مستواه ، فكان بذلك مهيباً جليلا . إن عيب عليه شيء فهو قلة مجاملته حتى حيث لا تضر المجاملة بالخلق ، وصراحته التي قد تجرح ، في موقف لا يدعو إلى الصراحة فيه دفاع عن حتى ، ثم نظامه العسكرى في غبر ترفيه . رحمه الله فما أكثر ما نفع وأصلح .

(YE) ودق جرس التليفون يوماً عنزلى فى مصر الحديدة وأنا قاضي بمحكمة الأزبكية سنة ١٩٧٦ ، وإذا المتكلم صديق

اللكتور طه حسىن يطلب إلى مقابلته ، وذهبت لمقابلته فإذا

هو يعرض على أن أكون مدرساً بكلية الآداب ، فترددت غليلا ثم قبلت ، لنفوري من القضاء وحبي للتدريس ،وذهبت إلى الكلية حيث قصر الزعفران الآن ، فوجدت شيئاً جليداً على"، لاهو كالأزهر ولا كمدرسة القضاء . أساتذة كأنهم عصبة أمم ، هذا إنجليزى وهذا فرنسي وهذا بلجيكي وهذا ألماني وقليل من الأساتلة المصريين ، وليس فهم معمم إلا أنا ، وعميد الكلية بلجيكي ، والطلبة أحرار ، عضرون الكلية أو لا عضرون ، وعضرون النوس أو لا عضرون ، وأنسام الكلية متشعبة قسم للفلسفة ينزعمه الفرنسيون، وقسم للإنجلنزية يتزعمه الإنجليز ، وقسم للغات القديمة ، وقسم للجغرافيا ، وآخر للتاريخ . . . والطلبة موزعون على الأقسام ، ومن الطلبة عدد كبير يقضى سنة في كلية الآداب إعداداً لكلية الحقوق ، وقد قضيت زمناً حتى أفهم كل ذلك ، وأحسست أن الحو مبعثر ، ليس هناك ارتباط وثيق بين الطلبة بعضهم وبعض ولا الأساتلة بعضهم ويعض ، لاكاللك كنت أرى في مدرسة القضاء ، وأن الدراسة كالحرب المائعة ؛ فتبعش الأقسام في الدراسة وتبعثر الأساتلة في الحبْسَية جعل نسيج الكلية مهلهلا ، وأقرب معنى حدث في نفسي أنني في أزهر بتبعة ، ولللك لمآلف هذه الأوضاع إلا بعد عهد طويل . وصلمني أول أسبوع أنى أحست حركة تلمر بين

العميد البلجيكني والأساتذة لأسباب لا أدربها ، وجاءتني بعد ذلك عريضة موقع علمها من بعض المدرسين والأسائذة يعلنون فها ثقتهم بالعميد لمزاته وكفايته ، فلم أشأ أن أوقع علمها لأن الثقة إنما تبنى على المعرفة وأنا لم أعرفه ... وإدارة الكلية في يد مجلس لها ، ولستعضواً بالمحلس إذ لايكون عضواً إلا أستاذ أو مىباعد أستاذ ، أما مدرس مثلى فلا ، فكان امتناعى عن التوقيع سبباً في امتعاض العميد منى وتقديره لي معاً ، وأخذت أهي نفسي للبيئة الحديدة على مضض حتى فهمت الأوضاع واستقامت الأمور ، وكان الطلبة كلهم ذكوراً ليس فهم فتاة . وشاهلت مرة ثلاث بنات فى قسم الفرنسية علمت أنهن نصف مصریات ، أبونهن طبیب مصری کبیر (۱) وأمهن ألمانية، فساءلت نفسى: هل أعيش حتى أرى طالبات مصريات صميات في الكلية ! ولكن الزمن كان أسرع مما توقعت ، فامتلائت الكلية بالبنات بعد قليل.

ها أثناء أطلق كتب الفقه ، وأصود إلى كتب اللغة والأدب والنحو ، ودرّست فى أول سنة درسن : درساً أقرأ فيه الكامل للمبرد ودرساً أقرأ فيه البلاغة . ومن قديم لم تعجبى البلاغة العربية ، فبحثت فى المكتبة الإنجليزية عن كتب فى

⁽١) هو المرحوم الدكتور على ابراهيم حسن .

البلاغة فأنا أقروها وأقارن بينها وبين ما كتب فى البلاغة العربية وأختار خبرهما وأوفق بين مصطلحاتهما ، وأكثر ما كتب أكره العراسة فى الفصول الكبيرة العلدة كلية لمنقوق فأشعر إذ ذلك أنى أدرس فى الهواء لا رابطة بينى وبين الطابة ، ولا أستطيع الإشراف عليم إشرافاً جنياً ، ولا أتبادل معهم عواطفهم ولا أحسن توجيهم لكثرة عدهم ، ولذلك تخلصت من هذا الدرس أسرع ما مكن وجيهمت أن أدرس فى فسؤل محصورة لعدد محصور .

وقبل بدء الدواسة فى السنة الثالية دارت مناقشة طويلة بينى وبين صليتي لى أستاذ فى كلية المفتوق. (7 . قال يوماً : لماذا تصر على ليس العامة ؟ والعامة درنز لرجل الدين والست الآن رجل دين . إنما ألت تعلم اللغة العربية والأدب العربي كما يعلم الفرنسي اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي ، وهذه أمير مدنية لا دينية ، ثم إن ليسك العامة فى وسط كله برانيط وطرابيش بجعلك غربياً فى بيشك الغم ما قال . وقد فكرت فى الأمر طويلا فهلا الذى قال حق ، ولكن إلف العامة وإلف الناس فى معما أعجلى من التغير ، فا زال يلح على .

⁽١) هو الدكتور السبوري .

ما كنت ألاقية في لبسي العامة من عناء ، فعامة الناس في مصر ، وخاصة في المدن ــ مجلون العامة ظاهراً ولا مجلومًا باطناً ، ويوقرون الطربوش غالباً ويستخفون بالعامة تخالباً . ويتغلغل فى نفوسهم مبدأ مقرر ، وهو أن صاحب الطربوش محترم إلا إذا ظهر عكس ذلك ، وصاحب العامة محتفر إلا إذا ظهر عکس ذلك ، وكم حدث لى من فصول كرهت من أجلها العامة ؛ ذهبت إلى فندق مرة فقال لى صاحبه ليس عندی مکان خال ، وإذا بمطربش یأتی بعدی فیخلق له المكان ، وأذهب مرة إلى مكتب الىريد فأقف أنا ومطربش أمام الشباك وقد أتى المطربش بعدى ، فيقدمه رجل البريد على وبجيب طلبه فأثور عليه وأطالبه بالعمل بالترتيب . وأتبيأ مرة لركوب الدرجة الأولى فى الترام فيقول لى الكسارى : تعال هنا ــ مشعراً إلى الدوجة الثانية ــ فتلك الدرجة الأولى . وأذهب مرة إلى كازينو في ضاحية من ضواحي الإسكندرية ومعيصديق مطربش فيسمح له بالدخول وأمنع فأعود معه مكتئبًا خجولا ، وهكذا وهكذا . كل هذا رجح عندى رأى صديقي فذهبت إلى الحياط وفصلت بذلتين وشريت طربوشاً . وعدت إلى هذا النوع من اللباس بعد سبع وعشرين سنة منذ كنت تلميذاً في ملوسة أم عباس . وقد كنت نسيت رباط الرقبة كيف يكون، فكنت ألحاً إلى من يربطه لى إلى أن تعلمته ، وانهزت فرصة افتتاح الدراسة في العام الحديد فلحيت مطربقاً ، وكنت أتمثر في مشيى في الشارع وفي الكلية خجلا من الناس ، ومهم من يستحسن ومهم من يسهجن .

وقالت لى سيدة إنجلزية زوج صديق لى : إلى كنت أفضل لبسك العامة . فقلت لها : لك الحق وإنما تفضلين العامة على العط الذى تفضلين به العارف القدمة فى حان الحليل على محازن البيع فى شارع فواد . وعلى كل حال كنت يذلك أكثر اندماجاً فى الوسط الحاممي وأشد انسجاماً.

وتعلمت من هذا الوسط أن مبزة الحامعة عن المدرسة هي البحث ، فالمدرسة تعلم ما في الكتب والحامعة تقرأ الكتب لتستخرج مها جديداً ، والمدرسة تعلم آخر ما وصل إليه العلم والحامعة تحاول أن تكتشف المحهول من العلم ، فهي تنقد ما وصل إليه العلم وتعدله وتحل جديداً عمل قديم ، وسهدم رأياً وتبنى مكانه رأيًا ، وهكذا ؛ هذه وظيفتها الأونى والأخرة، فإن لم تقم مهاكانت مدرسة لا جامعة . هذا ما فهمته في السنة الأولى من تدريسي في الحامعة ــ فهمته مما سمعته عن أساتلة من الأجانب قاموا ببحوث مختلفة جديدة ، كل في فرعه ومن مخالطتي في الحامعة لبعض المستشرقان أتعرف منهم ما يعملون ، ومن قليل من الأساتلة المصرين يتبعون خطتهم ويسيرون على مهجهم ؛ لذلك بدأت في هذه السنة أجرب حلى قالبحث ، فاخترت درساً من الدورس أعث فيه عن العاجم اللغوية ، كيف بدأت في اللغة العربية ، وكيف تكونت ألأول مرة ، وطريقها في حم الكالت ، وتعاورها في المصور المختلفة وتغير أساليها على تعاقب العصور ، والأخطاء التي وقعت فها وحاجتنا المي معجم جديد وما ينبغي أن يكون عليه ها المحجم ، وأعملت في ذلك سنة كاملة كانت بدء تجربي في المحت ، أشجها عث أخر قصر في مكاظ والمربد وتصويرهما حسياجاه في الكتب وأثرهما في اللغة والأدب .

وكان ذلك تمهيداً لمشروع واسع في البحث وضعناه نحن الثلاثة الدكتور طه حسن والأستاذ عبد الحميد العبادي وأنا ، خلاصته أن ندرس الحياة الإسلامية من نواحها الثلاث في العصور المتعاقبة من أول ظهور الإسلام ، فيختص الدكتور طه بالحياة الأدبية والأستاذ العبادى بالحياة التارعية وأختص أنا بالحياة العقلية . فأخلت أحضر الحزء الأول الذي سمى بعد و فجر الإسلام ۽ ، وصرفت فيه ما يقرب من سنتين فرسمت مهجه ورتبت موضوعاته ، وكنت إذا وصلت إلى موضوع أجمع مظانَّه فى الكتب ، وأقرأ فيها ماكتب على الموضوع وأمعن النظر ، ثم أكتبه مستنالا بالنصوص الى عثرت علمها حتى أفرغ منه ، وأنتقل إلى الموضوع الذي بعده وهكذا . وكانت

أشهر ، إذ كنت أجم الكتب الى يظن أنها تبحث في الموضوع وأحملها على دفعتين أوثلاث إلى ماثلة وضعتها في حديقي خلف بيني في مصر الحديدة ، وأبدأ العمل في الساعة الثامنة صباحاً وأجلس على كرسي أمام الكتب أقلها وأستخرج نصوصها وأستخلص عن كل ذلك ما أكتبه إلى ما بعد الساعة الواحدة ، جلسة واحدة أنسى فها نفسى وأنسى كلُّ شيء حولى ، وهكذا أفعل فى أيام المُعل الَّتي لايكون على فها دروس في الحامعة حتى ينتهي الحزء . وقد تم علما الحزء الأول من فجر الإسلام في آخر سنة ١٩٢٨ ، ولقد لقيتٌ من حسن استقبال الناس لهذا الحزء وتقديرهم له واهتمامهم به نقداً وتقريظاً ما شجعي على المضيُّ في هذه السلسلة ، وقد عاقت زميلي عوائق عن إخراج نصيهما ، فاستمررت أنا في إخراج ضحى الإسلام ، في ثلاثة أجزاء وترقيت في مهج التأليف في ضحى الإسلام ، فقد رتبت موضوعاته الى تستغرق ثلاثة أجزاء وأحضرت ملفات كتبتُ على كل ملف اسم الموضوع ، ملف عليه اسم المعتزلة وآخر الحوارج ، وثالث أثر الحوارى في الأدب ، ورابع الثقافة الهندية . . الخ . ثم حَشْرَت أمهات الكتب التي تُبَحَثُ في هذه الموضوعات كالأغانى والحيوان للجاحظ وكتب ابن قتيية ورسائل الحاحظ وكتب ابن المقفع ونحو ذلك أقرؤها كلها فإذا وصلت إلى (10)

أكثر الأوقات فاثدة الإجازة الطويلة التي تبلغ أكثر من خسة

نص يعلق بالمسترلة كتبت فى ورقة صغيرة معزى النص ، ورقم الصفحة فى الكتاب ووضعها فى ملف الموضوع ، ومكلا حتى أفرغ من هذه الكتب كلها ، وهذا دور التحضير ، فإذا جاء دور الكتابة استخرجت ملف الموضوع وأعلت النظر فى الحلافات ورتبها حسب العرتب المنهل وفكرت فها وبدأت أكتب ، وكلا عنت فكرة جديدة رجعت إلها فى مظاها . حتى يتبي الموضوع ، فأنقل إلى ما بعده ومكلا ، وعلى هذا التحط أخرجت الحرد الأول والثانى والثالث من ضعى الإسلام فى نحو ست ستين . ومكلا ،

وإلى جانب ما درسته فى هذه الموضوعات درست بعض الكتب فى النصوص الأدبية كطبقات ابن سلام ، وطبقات الشعراء لابن تتبية .

وعلى أثر قرائق كناياً فى اللغة الإنجلزية فى الثقد الأدب استحسلت الموضوع وفكرت فى تدريسه ، أستمين على ذلك نما وقع فى يدى من الكتب الإنجلزية وما أهرفه بما كتب فى اللغة العربية كالموازنة بين أني تمام والبحرى ، والوساطة بين المنابي وخصومه ونقد الشعر ونقد الشر القدامة ، وظللت سنين أدرس هذا الموضوع وأكتب فيه مذكرات . وكانت هذه أول دروس باللغة العربية النقد الأدبي فى كلة الآداب.

(Ya)

هيأت لى الحامعة فرصة حيلة لرحلات خارج القطر ، وقد كاد ينقضي شباني ولم أبرح القاهرة إلا حن عينت مدرساً بطنطا والإسكندرية ، وحن عينت قاضياً في الواحات الحارجة ، أما الرحلة خارج مصر فلم تخطر لى على بال ، وماكنت أظن أن الزمن سيسمح سها . وقد هيئت لى مرة فرصة السفر إلى باريس ، وذلك أن أحد باشاوات القاهرة وأغنيائها أراد أن يرسل ابنه إلى باريس ليتعلم هناك ، وأراد ألا ينمي ابنه اللغة العربية ، فعرض على أن أصحب ابنه وأقم معه وأعلمه اللغة العربية وأدرس أنا اللغة الفرنسية فالقانون ، وأعجبتني الفكرة ولكنها زهرة محفوفة بشوك ، فن الثقيل على نفسي جلمًا أن أكون موظفًا عند باشا ونفقي عليه ، وابنه سيدى يستدعيني للدرس إذا شاء ومهجرني إذا شاء . ومع ذلك استشرت عاطف بك في الأمر فغضل الرقض فرفضت ، واختبر غبرى لهذا العمل فدرس القانون ورجع عاميًا في المحكمة الشرعية والمختلطة ، ولو قبلت لتغير وجه حياتى .

على كل حال لم تتح لى فرصة السفر خارج مصر إلا سنة المعرف و استدعائى وم استدعائى المعرف و و المعرف المعرف و المعرف المعرف و المعرف المعرف المعرف و المعرف المعرف المعرف و المعرف ا

ألا بجرح شعور الأستاذين بإعطائهما أجراً على عملهماً العلمى وإنماً هي أجرة السفر وما إلها – فقبلت .

وضجعى على القبول أنى منذ الصغر أسمع عن استانبول وعظمتها وأسهها ، ولها صورة عظيمة فخمة فى نفسى ، فكل حن يذهب الخدييو عباس إلى استانبول ويعود من استانبول، وأعيان،مصر يفخرون بسفرهم إلى استانبول ، وهوفى فى شعره يشيد بذكرها . ناهيك عن الباب العالى والقصر الشاهافى والبشور وعمر مرمرة والسلطان عبد الحميد فى قصر يلدؤ ونحو ذلك – كل هذا شوقى إلى روئها .

أضف إلى ذلك ما وصل إلينا حديثاً من ثورة مصطنى

من أثر ، فكنت أسمع ذلك وأشتاق إلى معرفة كنه هذا الانقلاب ومداه وصلاحيته .

هذا إلى ما أحتقده في الرحلات من فوائد ، فأنا أري أن الشهد لاتحكن معرفته معرفة حقة إلا بالمقارنة ، فالأبيض إنما يعرف بياضه مقارنته بالأسود والأحضر والأصفر ، والأمة لايعرف أنها متاحرة إلا بقياسها بأخرى متقدمة ، والنظام لايعرف أنه فاصد إلا إذا عرف أو على الأكل شخيل بابت نظام صالح ، وهكذا فا دعت في مصر ولم أر غيرها لم أستطم الحكم الصحيح علها إلا عن طريق الكتب ، وهي أو جدى من المشاهدة .

وما أكثر من رأيت من الشان يركبون البحر ويعودون إلينا ممثلين إعجاباً ما رأوا من مدنية وحضارة وعلم ومناظر طبيعية وغير طبيعية ، ويماثون ألواههم بالكلام عما شاهدوا، والإحباب عا رأوا ، والاحتقار لما يرون في مصر ، غلى أي حد صدقت نظرتهم ولملى أي حسد صبح حكمم ؟ هلما ما لا أستطيعه إلا أن رأيت ما رأوا . وكم قرأت من كتب في الرحلات ، ولكن الرحلة إذا تحولت إلى كتاب ذهبت حياتها وقل عبرها وأصبحت عقلا لا قلباً ، ومعلومات لا إحساسات ، والرحلة الحقة ماجددت النفس وأحيت القلب ، وقد مكتت فى رحلنى هذه إلى الأستانة أربعن يوماً . أعلنا الباخرة رشيد يوم السبت ٢ يونيه سنة ١٩٧٨ ، وقد اعترمت من يوم أن سافرت أن أدون لى مذكرات يومية ، فكت أسحل قبل أن أنام ما فعلته كل يوم مورخو بتاريخه ، ولا أطيل على القارئ بذكر هذه اليوميات إلاعلى سييل المثال . لم أر البحر قبل إلامن شاطئ ، أما داخله وعظمته وتقلباته فلم أرها إلا اليوم ـ رأيت البحر عظها حميلا أنيساً في البار،

لم أر البحر قبل إلامن شاطئ ، أما داخله وعظمته وتقلباته ظلم أردما إلا اليوم ــ رأيت البحر عظيا حيلا أنيساً في النهار، ورأيت جليلا مهيباً موحثاً في الليل ، ورأيتي أشعر نحوه بللة أنية أو ألم لذيذ ، كشأتى عند روئية أى منظر طبيعى جليل ، كغروب خمس أو جبل ضخم أو أمام السهاء في ليلة تلمح نجومها . ولعل سبب اللذة ما أشعر به في هذه المناظر من حمال، ولعل سبب الألم ما أشعر به نحو نفسى أمام هذه المظاهر من ضعة .

كأن البحر استدرجنا ، فهر فى اليومن الأولين هادئ وديع ، فلم ألفناه كشر لنا عن أنيابه وهاج فى اليوم الثالث فأصابى دوار وما يتبع الدوار ، وأطلت الرقاد فى سريرى خاضهاً مسلسلماً ، وفى اليوم الثالث نزلنا أزمر وأعلنا صيارة تحولنا بها شوارعها مع بعض ركاب السفينة . وفى اليوم الرابع وصانا لمل الأستانة .

ِ تجولنا فی أنحائها ، وسکتا فی بیت من بیونها ، وصلمت

في أول الأمر عند رؤيها فلم أحد لها من الحلال والروعة ما سبق أن رسمه الحيال ، إنما أيقنت مجالها وروعتها لمسا شاهدت ضواحها ، وركبت البحر إلى أطرافها ، وأعجبي في الأتراك خلقان لطيفان : نظافتهم وهدومهم ، فأما النظافة فقد تلخل بيت الفقير الذي يعيش أكثر أيامه على البقول الحافة فتراه قد فرش فرشاً بسيطاً ولكنه تظيف ، وقد تفرش الحجرة بالحصر ، ولكن لايسمح التركى لنفسه ولا لضيفه أن يدوس علمها بنعله ، وقد ركبنا القطارات والترام وأكلنا فى مطاعم المدينة على اختلاف أنواعها من الدرجة الأولى إلى الرابعة ، وجاسنا في مقاهي الصَّناع والحمالين فما وجدنا في كل ذلك إلا نظافة محمدون علمها ، وأما هدومهم فقد أمضينا أربعين يوما لم نجد فها نزاعاً في شارع أو خصاماً فى ترام . وتنخل المقهى مملوءًا بالناس ، فإذا أتحفست عينيك حسبت أن ليس به أحد ، فهم في الحق كما يقولون في هذين الأمرين إنجلنز الشرق . ولعل ما لفت نظرى إلى هذين الحلقان سووهما في مصر ، فعنايتنا بالنظافة ضعيفة ، وإذا رتبت الأمم في النظافة لم نجد أنفسنا في أعلى القائمة ولا أوسطها ،ويفوقنا فهامن الشرقين اللبنانيون والسوريون، وكذلك الثأن في الهدوء ، فبلدنا حرمت هذا الهدوء في رأيت مذكراتى مملوءة بالذهاب كل يوم صباحاً أوصباحاً ومساء إلى مكتبات الأستانة ، وقد كان هذا عملنا الرسمي في الرحلة وما أثقل الرصيات ! إنها عمل آلى لا دخل للقلب فها وإن استفدنا كثيراً منها ، فقد قلبنا الكتب وتغلغلنا في المكتبات وفتحت لنا منها ما لم تفتح لغيرنا ، ودوَّنا أسهاء الكتب الفيمة الى عثر نا علمها ووصفناها وقيدنا أرقامها ، ولما عدنا إلى مصر قابلناها مما في دار الكتبواستبعدنا الموجود وكتبنا تقريراً مما عَبْرنا عليه من جديد ، وأودعنا منه نسخة في دار الكثب لتستفيذ منه وقدمنا نسخة أخرى لسمو الأمىر صاحب الفضل على الرحلة . ولكن ليست هذه هي الرحلة فلا أطيل على القارئ يتفصيلها.

القهوة وفى الشارع وفى النرام وفى كل مجتمع حتى فى البيت .

إنماكان أهم ما في الرحلة يوم تخرج لا لغاية ، ونتجول في الشوارع لا لغرض ، ونزور القرى والضواحي ليفتح قلبنا ، ونرورالقرى والضواحي ليفتح قلبنا ، ولا يعرفنا أحداً أحداً أحداً ، فيمجينا منظر تقف عنده ما شئنا ونسرحي تتبيب وتركبحي تمل وقيد نسم كلمة عابرة من رجل تدلنا على الذي ه الكير. رزا مرة مسجد السلطان أحد وهو مسجد كبر عظم ،

وقابلنا بوابه فوقف يرثى لحاله وحال الدين في العهد الحديد ويقول بلسانه التركى : بدأ الإسلام غريباً وسيعود كماكان : يقولها ويلتفت عن يميته ويساره خوفاً من أن يسمعه أحد يـ ورأيت شخصيات أصجبنى ــ رأيت رجلين ألمانيين مستشر قين(١) يعيشان للكتب العربية وللعلم العربي ، لا للـة لهـا في الدنيا إلا هذا ، صباحهما في المكاتب ومساوهما على مكتبهما يقرآنو يصححان . أحدهما محضر محناً في المقامات ٢٠٠)، فيجمع المقامات الى كتبت من عهد البديع إلى البوم ، ويصنفها ويتفهمها ويعلق علمها . والثانى^(٢) مشغوف بكتب المذاهب الدينية ، فهو ينشر كتاباً لأبي الحسن الأشعرى() ويرى فيه الأمرّين في تصحيح حمله وتفهمها ، ويعرض علينا ما يقف فيه ، فنطيل النظر لتفهم العبارة ، وقد نوفق وقد لانوفق ، وكل مهما صبور أشد الصبر ، يتعبد بعمله كما كما يتعبد الراهب في صومعته .

وهذا وإساعيل أفندى صائب(ه) و رجل مس وقور طيب القلب يعرف كل ما في مكتبات الأستانة من كتب ،

⁽١) هو الأستاذ ريتر والأستاذ ريشر .

 ⁽٢) هو الأستاذ ريشر (٣) هو الأستاذ ريشر ...
 (٤) هو كتاب مقالات الإسلاميين وقد نشره أخيراً في استامبول ...

⁽ ه) تولى أغيراً – رحه أنه – من مكتبة نمينة أردمت في أنقرة .

وما هو قيم ، وما هو ليس يقيم ، ويقت نفسه لحلمة كل من أراد منه علماً سها الموضوع ، زاهد في الدنيا راض بالقليل ، عرض عليه أن يكون أستاذاً للأدب العربي في جامعة استانيول بمرتب كبر فرفش ، لأن هلما المنصب منصب مدنى يفسطر صاحبه في العهد الحليد أن يلبس البدلة والقيمة ، وهو حريص جد المرص على أن يكون شيخاً معمماً ، والعمة لا يسمح با إلا لرجل له عمل ديني رضيء غهو يفضل العمل الديني القليل الأجر على العمل المدني الكبر

وهذا الشيخ ورشيد الحواصلي ، سورى الأصلي عاش فى الأستانة زمناً طويلا ؛ وصاحب السيد حمال الدين يوم كان فها وهمم الكثير من أحاديثه ، ورأى الأستانة في عهدها القديم وعهدها الحديد ، وعرك الدهر وعركه الدهر ، وهو إلى جانب ذلك تاجر في الكتبماهر ، يعرف كيف يبيع وكيف يشترى وكيف ينتهز الفرص ـــ وجدناه فرصة لنا نعرف منه أحوال الأستانة قديمها وحديثها والانقلابالحديث وموقعه فى نفوس الناس ، إلى آخرما عرفنا من شخصيات . خبر أوقاتنا ما نخرج فيه من الأستانة إلى الضواحي ، فيوماً تركب وابور البحر في البسفوريل شرشر صو، وكانت رحلة ممتعة رأينا فمها حمال البسفور وما حوله ، والمساكن مُنتَّرة في الحبال المزروعة على شكل مدرج ، والحبال مكسوة بالأشجار ، أشجار الكريز ، والبندق ،والحوز ، وعيون الماء تقيع فها ، ليخرج صها ماء بارد علدب زلال للذة الشاريين، وفي الطريق بلاد بمر علها وابور البحر ، فيقف عندها ، فنجد سوقاً نظيفاً فيه ما يحاج إليسه الإنسان من فاكهة نظيفة وشطائر وبقول ونحو قاك .

الأطفال الصفار والرجال الكبار في غاية النظافة ، وأكثر المبيعات تعرض من الداخل ، فالحزار مثلا لحمه في داخل دكانه

ومرة ركينا باخرة إلى جزيرة الأمراء ؛ وهي جزر ثلاث ، لممينا إلى أكبرها ، وهي جبل مدرج محيط به المماء ، كسي بالألهجار والنبات ، بني الناس فيه مساكن ظريفة على البحر ، وقد صعدناه إلى قمته وتفدينا هناك ، ومعنا تفوسنا بالنظر الحميل والحو الحميل .

والأثراك حريصون على أن يقضوا يوم الحيمة والهواحي
والأثراك حريصون على أن يقضوا يوم الحيمة والهواحي
إذ هو يوم السطلة الرحمية ، نغلن فيه الحوانيت وتعطل
الأعمل ، فيشرجون زوافات ووحداناً إلى المنازه ومعهم
أكلهم ، وقد يكون معهم موسيقام ، مرحض مهيجين .
وهرة خرجنا والحر صحر جمل ، فلم وصدانا إلى ضاحة من
الفيواحي أمطرت الساء مطراً خزيراً على المتزهن ، فجروا
الشواحي أمطرت الساء مطراً خزيراً على المتزهن ، فجروا

يسخرون من الحو الذي تفرجم ، ويضحكون من الساء التي تضحك مهم ، فكان يوماً حيلاً ومنظراً رائعاً . والشاء "فنين بالحربة الحديدة والسفور الحديد ، فهن يمرحن ويبالغن في المرح ، والفتيات يرقصن حتى في الشارع ، ومنذن في المقاهر ، وكانيد سماء خيد حد تعميد بعد .

عرحن ويبالغن في المرح ، والفتيات يرقصن حتى في الشارع ، ويغنىن فى المقاهى ، وكأنهن سحناء خرجن من سمنهن بعد طولُ العذابِ ، ورأين أهلهن بعد طول الغياب ، إلى آخر ما رأينا من مناظر طبيعية وغير طبيعية ، وفنية وغير فنية . ومن خبر المصادفات أن رأيت في الأستانة وعلى بك فوزى ۽ أستاذنا القدم في مدرسة القضاء ، وكان قد استقال من منصبه الحكوى ، وخرج من مصر لأنه لم يطق أن يرى الحندى الإنجلزي محتل بلاده ، والحرسون اليوناني فىالقهوة يتمتع بامتيازات لا يتمتع هو بها ، فخرج من وطنه هاربًا ، وطوَّف بالبلاد وحطَّ رحاله في الأستانة ، يقنع نخمسة وعشرين جنها معاشاً له ، يصرف أقلها على نفسه وْأَكْثَرُهَا عَلَى الْفَقْرَاءْ مَنْ حَوْلُهُ . ظَلْلَتَ أَعَتْ عَنْهُ فِي ٱلْأَسْتَانَةُ طويلا حتى وجدته ، فوجدت لقيني ، لأنى أعلم أنه أقلىر الناس على أن يشرح لى الانقلاب الحديث فى تركيا ونتائجه وما فيه من خىر وشر .

لقد أعلم أن قد حدثت فى تركيا انقلابات اجهاحية خطيرة تثير اهيامنا ، لأن تركيا أول بلد إسلامى نزعت هذا المذع وجربت هده التجارب ؛ فقد خلصت الخليفة وألفت الخلافة . وحرمت الخليفة المخلوع وأفراد أسرته وأصهارهم من الإقامة في الحمهورية التركية ، وحولت الخلافة ليل همهورية ، وحولت كثيراً من أملاكهم ومباني القصور وملحقاتها لمل الأمة ، وذهب المقلاء في ذلك مذاهب شتى ، منهم من محيد هذا العمل ومنهم من يقده .

وألغت وزارة الأوقاف ، وجعلت تنبيرها لرئيس|الأمور اللبنية وهيئة علمية استشارية بجانبه ، وألغت المحاكم الشرعية ، ووحلت القضاء .

وألفت الممارس الدينية ووحدت المدرسة ، وقد كانت الممارس الدينية كثيرة منتشرة متترحة في البلاد ، وكان بعضها يتيع دزارة الأوقاف وبعضها يتيع دزارة الشئون الشرعية ، فيصلها كلها تابعة لوزارة المارت ، تعلم تعليماً مدنياً واحداً، ومن شاء أن يعلم ابنه تعليماً ديناً فليمكنل بلملك على نفقته ، وقصرت التعليم الديني على كلية اللاهوت التي تتيع الحاممة ، وهذه هي التي تخرج رجال الدين .

وألنت الطرق الصوفية وأطلقت الزوايا والتكايا ، وحرمت الألقاب الصوفية من درويش ومريد وأستاذ وسيد وشلبي ونقيب . . الخ ، وحرمت العرافة والسحر والتنجيم وكتابة التعاويذ والأحجبة وأعمال كشف الغيب والإخبار بالمستقبل ، وعاقبت كل من يثبت عليه شىء من هذا بالحبس مدة لاتقل عن ثلاثة أشهر وبغرامة لاتقل عن خمسن لبرة ، وسوكت الزوايا والتكايا إلى مدارس مدنية .

وحددت الزى الديني ظم تسمع به إلا الطائفة محاصة ، كرئيس الأمور الدينية والأثمة والخطاء والوحاظ المينن من قبل رئيس الأمور الدينية ، أما من حداهم فيحرم عليهم ليس العامة والنزق بزى رجال الدين .

وحددت بوم الحممة يوم عطلة إجباري⁶⁰⁷ تعطل فها المصانع والمخازن والمتاجر ونحوذلك . ومن لم يقعل يعاقب ، واستخت من ذلك الأفران والحزارين وبائمى الحضر والنحان والصيدايات وبعض المؤسسات . وألفت التقوم العربي وحصت التقوم الغربي .

ومنعت الإسراف في الحهاز والزواج فلا ينتفل جهاز علائية . ولا تقام أقراح أكثر من يوم واحد ولا تقام مآدب عامة في الأقراح . وسنت قانوناً مدنياً عمدت بدل مجلة الأحكام الشرعية وبدل الأحوال الشخصية الكيسته من القوانين الأوربية . . منعت فيه مثلا تمدد الزوجات وخولت لكل من الزوجين الحق في وفع قضية الطلاق لأسباب معينة .

(١) غير بعد ذلك إلى يوم الأحد .

سياسياً واجياعياً ومدنياً ، وفتح لها بجال الكسب والتوظف في الوظائف . ولم يكن السفور بقانون ، وإنما كان دهوة دعا إلها مصطفى كال وألح فها ، فاستجاب المرأة إليه ، أما مساواتها بالرجل اجياعياً فقد شرعت في القانون المدنى ، فسوى بينها وبين الرجل في المراث ، واعتبر الزواج شركة تألف من جزأين متساوين . وأخيراً شرع المرأة مساواتها بالرجل في الحقوق السياسية ، من إعطائها حق أن تنتخف

وحررت المرأة من حيث سفورها ومساواتها بالرجل ؛

وتُنْشَخَب . وعنى بتعليمها ، وتُوسع فى ذلك توسع تعليم الذكور . وفصل الدين عن الدولة ، فلم يستخدم الدين فى التشريع ولا فى الحكو فى الإدارة ، ونُنْحُى رجال الدين عن أى تدخل فى الشيرن الدنيوية . وغرت كتابة اللغة التركية من الحروف العربية إلمه

وغيرت كتابة اللغة البركية من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية .

هذا أم مظاهر الانقلاب الذي حدث في تركيا ؛ والذي أردت أن أفهم أثره وأطيل التفكر فيه ، أما يصلح لمصر وأما لا يصلح ، وهل تستطيع أن تسير في ملما الإصلاح إلى تخر الحطوات أم لا ؟

ولأعرض الآن بعض مذكرائى اليومية التي كتبتها :

الاثنين ١٨ يونيه سنة ١٩٢٨ :

ذهبنا صباحا إلى طوب قبو سراى وعِمثنا فى مكتبتها وعُمرنا فيها على كتب قيمة ، وفى المساء قابلنا على بك فوزى ومكننا معه نحو ثلاث ساعات تحدثنا فيها فى شئون نختلفة .

سألته عن الحالة الاجتماعية في تركيا ، فقال : بحب أن تركيا والقلود الحادث في تركيا مراقبة دقيقة ، فمصر مرتبطة بركيا ارتباطا كبيراً من الناحية الاجتماعية ، وكثير من عادات المصريين وتقاليدهم مادوذة من تركيا ، فإذا تشرت تركيا يوشك أن تنظر مصر ، أضف إلى ذلك أن الأستانة هي الموطنة المن يشتم منه الملدنية المنزيية إلى مصر : ورأى أن التيار الغرى الايمكن مقاومته ، فخير أن نستمد السير معه قبل أن يجرفنا رغم أنوفنا .

إن أكبر مظهر للانقلاب التركى هو السفور ، وقد ألماد الأمة التركية من حيث إصلاح الزواج ، فكل من الزوجين يرى صاحبه ويأنس به قبل عقد الزواج ، ثم إن السفور مكن المرأة من معرفة كثير من شئون الدنيا وكانت نجهلها . والسفور في صالح المرأة ، فالحجاب كان محيط المرأة مبالة تمكن الرجل من الإمعان في التخيلات والحرى وراء التصورات ، ولذلك كثر الغزل في الأدب العربي وأمعن الغَزَ لون في التخيلات . وسألته عن القبعة فحيلها ، وقال إنها أفضل من الطربوش للرأس والعنن ، وإنه يكره الطربوش ولا يحس له طعماً ، وحبـَد تقليم الحكومة لأظفار رجال الدين لأنهم كانوا نصراء الرجعية وأداة في يد السلاطين الظالمين ، ينكلون بالأمة بواسطتهم ، وكان سلطانهم كبراً على الناس ، وقد استخدموا هذا السلطان في غير مصلحة الأمة ، وقال إنه كان يندس بن رجال الدين من لا يتصلون بالدين ، وكثير من الناس كانوا يلبسون العامة ويغررون ﴿ الناس ، فالمتسول والمنج وكاتب الأحجبة والدجال كل هؤلاء كانوا يلبسون العامة ويتزيون زى رجال الدين ، فما فعلته الحكومة التركية من تحريم لبس العامة إلا لرجال الدين الرسمين عمل نافع قطع دابر كثير من وسائل التخريف والتدجيل . ولا بذ لكل إصلاح من ضحايا ، ولابد عند منح الحرية أن يعقبها إفراط ، فالتشديد على رجال الدين استتبع بعض أخطاء ،

بإصلاح ذلك . قال : ومن الإفراط فى النموة الدينية مَا قرأته البوم فى يعض الحرائد التركية من دعوة إلى تنظيم المساجد والصلاة

وسفور المرأة استتبع بعض الزلات ، ولكن الزمن كفيل

تنظيا يتقق مع المدنية الحديثة ، فالرجل يليس الحرمة ويصعب عليه خطعها والرجل يليس القبعة ويصعب عليه أن يسجد بها . قال : وقد دهش العالم الغربي من ثورة تركيا وتمام هلما الانقلاب الحطير من غير صفك دم ، وقال : إن كثيراً من الأوربيين نقموا على هذا الانقلاب لسيين : فبضهم كرهه لأنه كان يعد الأثراف في مليسهم وعاداتهم وتقاليدم متحاً يستمتم به ويذكره بالقرون الوسطى ، وكثير منهم كرهه لأنه سلبه الامتيازات التي كان يتمتع بها في العهد

السابق . سألته : هل يعتقد أن تركيا ستستمر في سيرها في طريق

مضيا ؟ فقال : إن كل الظواهر تدل على ذلك ، فالحيل الحديد يؤيد الحركة وعافظ علها ، والناس حيماً أسعد حالا في ظل هذا العهد منهم قبله .

وانتقلنا من هذه الأحاديث الاجتماعية إلى أحاديث شخصية فسألته : هل لايز ال عن إلى مصر ؟ فقال : إن حينت شديد، ولكته يفضل الإقامة فى تركيا ، فقد جرب وفاه الأصدقاء فرأى فى مصر ما آمله ، وحير له أن يكون بعيداً فيقاطعوه من أن يكون قريباً منهم ويقاطعوه . قال : وقد نضلت تركيا لأنه بلد إسلامى مستقل ، وفيسه الصلو الرحب الشرقى . والأورق _ على العموم _ متفده فى المدنية ويفوقنا فى كثير من الأمور ولكن" فيه جانباً وحشياً _ وقد عشت فى إنجائرا وفرنسا وألمانيا فلم أجد هذا الصدر الرحب الحنون اللى أشعر به فى إقامتى فى تركيا ، وإذا كنت فى الأستانة فوطنى الحى الشرق منها وأكمل فى مطم شرق ، ولا أذهب إلى الحى الأورى إلا نادراً ، ويسرفى أن أكون فى حى مملوء بالأنف.

سألته : هل هو رانس من خطته الى اختطها فى امتناهه عن الزواج ؟ فقال : إنه آست على هذه الحطة ، ويود لو عاد إلى الشباب فتزوج ، فالزواج هو اللدى يعث الأمل فى الحياة ، وأنا الآن ــ من غير زواج ــ فى شيخوخة بائسة تنظر الوفاة .

وانقل الحديث إلى الأدب التركى ، فقال : حسلا لو تعلم التركية لا لأن أدبها أوسع وأرق من الآداب الأخرى الشرقية ، ولكن لتروا كيف استخدم الأثراك لغم وأدمم في إصلاح مشرم الاجماعية والطلبة والنفسية — لا أمل في إصلاح مصر ما دام مناك لفة للمام ولفة للكلام ، فإما أن ترقى لفة الكلام وإما أن تنحط لفة العام حتى تتحدا ، وحيافك فقط يكون الفكر الصحيح واللغة التي تستمد روحها من الحياة الواقعية .

الحميس ٥ يوليه:

قضينا الصباح فى المكتبة السليانية ، وبعد الظهر زرنا فرّاد بك كويرلّى تلبية لدعوته فى منزله قرب مسجد السلمان أحمد .

بيت قدم عظم يظهر أنه بيت الأسرة ، في غاية من التظانة والنظام ، فرشت سلاله بالسجاد الفاخر ، ووصلنا إلى حجرة كبرة صففت في جوانها دواليب الكتب على أحل وضع ، ووضعت في وسطها مائدة كبرة للمطالعة .

استعلنا فيا فؤاد بك وهو شاب في نحو الثلاث من عره علوم نشاطا وأدبا ، يلمع في حيد الذكاء ، وقد كان عضر موضوعاً لموشمر المستشرقين . تحدثنا في جامعتا وجامعتم والثشرات والكتب التي تنفرها المامتان ، تم تكلمنا عن المستشرقين وما يودونه من جنمة العلم لولا لعب السباسة يعقول بعضهم ، وانتقلنا إلى الفرق الإسلامية وصعوبة الوصول فيا إلى حقيقة ، لأن اللذي يكبون فيا إما مرميد غال أو معارض غال ، ومالتي : هل الإسلام شجع الصوفية أو ناهضها ؟ وكان من رأى أنه شجيها .

وكنت أعلم أن فؤاد بك أحد دعاة الإصلاح الديى والاجباع القام الآن في تركيا ، فأثرت هذا الموضوع مرتن لأطم ما عنده وعند أصحابه من قواعد بينون عليها إصلاحهم. فكان فى كل مرة يغلق هذا الباب فى مهارة ، وينقل الحديث إلى موضوع آخر .

الأحد ٨ يوليه :

ذهبنا صباحا إلى مكتبة وشهيد على ، فوجدنا المكتبة غنية بالكتب القيمة المخطوطة ، ولكن ــ مع الأسف ــ وجدنا الرطوبة قد أثرت فيها بشكل ِ عرضها للتلف ، وعلمنا أن سبب ذلك أنها أغلقت أربعة عشرة سنة لأن جاسوساً أخمر السلطان عبد الحميد أنه مجتمع فيها قوم يتكلمون في السياسة . وكان أمعن المكتبة أفغانياً فتحدثنا عن السيد حمال الدين الأفغانى واستفسرنا منه عن موقع قبره فى الأستانة ، فأرشدنا إليه ، فلـهبنا عصراً إلى جهة يقال لها و متشكه ۽ ، وصلنا إلىها بالنرام وتصل لها الباخرة أيضاً لأنها قريبة من محطة و برجه سراى ۽ قريباً من مدخل البسفور . رأينا مقدة قريبة من البحر تبلغ نحو خسين متراً في مثلها ، وقد سورت بسور له باب ، سألنا البواب عن مقبرة الشيخ حِمال الدين فلم يعرف، ولكنه أحضر لنا شيخ المقرة فسألناه فدلنا على القبر. تمرعادى ليس فى ضريح ولاحوله بناء ، ويظهر أنهم عند دفنه تعملوا ألا يشيدوا بذكره ، وأن يدفنوه كما يدفن أى رجل عادى، ولكن أخيراً وضع على القبر تركية من الرخام حولها سود صغير من حديد وقرأنا على التركية امم الشيخ جمال الدين وتاريخ ولادته ووفاته ، وفى ناحية أخرى سطران تركيان ترجمها : ﴿ أنشأ هلا المزار الصديق الحميم للمسلمين فى أتحاء المالم ، الرجل الحمير الأمريكانى المستر تشارلس كرين سنة ١٩٢٧

وقفنا عند قبر الأستاذ نستحضر حياته وثورته وجهساده وأنه أول من بلو نواة الإصلاح فى مصر ، فتأثرت تفوسنا يذكراه وقرأنا له الفائحة وترحمنا عليه ، وفارتناه ونفوسنا مملومة بالذكريات .

وقدكنا سألنا الشيخ الأفغانى ــ خازن مكتبة شهيد على ــ عن قبر عبد الله ندم فأعبرنا أنه فى جهة د بكطاش ۽ ولكن لايدرى بالضبط موضع دفته .

الخميس ١٢ يوليه :

ذهبنا صباحا لمل القنصلية الصرية وودعنا من فيها ، ثم ذهبنا ليل جامع بايزيد وتغنينا في مطهم بجواره بدعوة من عمل بك فوزى ثم ودعناه ودامًا مؤثراً ، فقد كان الرجل قد وجد فينا أنساً من وحشته ورائحة من وطنه في غربته . فلما فلممت عيى عند سماع هذه الحملة .
والرجل – من غير شك – شخصية غربية لم أر مثلها ،
يحب بلده مصرمن صسم قلبه ، وعب المسلمن ويرثى لحالم ،
ويتدين تديناً مزيماً من قلبه وعقله . فهو يصوم مثلا على
طريقة شاصة ، فيفطر على كوب من اللبن عند شروق
الشمس ، ولا محرم عليه الماء ، ويبي على ذلك إلى موحه
الإنطار ، فيفطر ، ويعى بصيامه عدم كثرة الأكل ،
والامتناع عن أكل الأشياء الدسة ، والامتناع عن الأقوال

استأذناه فى السفر قال : إنكم إنما تستأذنوننى فى فقد حياتى ،

وبما دعاه إلى ذلك أنه كان يسكن فى استامبول ، فوق حاعة من الإفرنج ، محشى إن هو تسحر فى رمضان أن يزعجهم محركاته ، فهو يصوم هلما الصيام الذى ذكرنا من غير سحور . غير سحور .

والأعمال المؤذية .

أهدانى يوم وداعه عبلة إنجلزية كان يصدوها عنايت-نان فى سويسرة فى التصوف ، يدعو فيها إلى التصوف العام من غير تغيد بتفاصيل دين خاص ، ولذلك كان من أعضائها المسلم والهودى والتصرافى :

وقد أخبرنى على بك فوزى أنه عرض عليه بعد وفاة

حنایت خان أن یرأس هذه الحممیة فأبی ، لأنه لابحب أن يتقبد بالتقاليد والشمائر على أى شكل كانت .

منشأ عذاب هذا الرجل وشقائه ، وقة إحساسه ودقة شعوره إلى حد بالغ .

السبت ۱۴ يوليه:

ذهبنا عصراً إلى و يلدز ، قصر السلطان عبد الحميد ، وقد كان كعبة القاصدين وماهب السياسين وعباً الدساسين، تصدر عنه القرارات الهامة التي تحرك العالم الإسلامي وترسم خططه وتقرر مصيره . يلتق فيه دهاة الغرب يدهاة الشرق ، بالدجالين والمخرفين ، بالمصلحين والمقسدين ، وتسرح فيه الغانيات الحميلات والماليك السود والبيض ،

مرای کیرة علی البسفور ، أقیم علیها من جانب البحر سور ویلی السور شارع وعلی جانبی الشارع أقیمت أمکنة للحرس ، ثم السرای .

کان دلیلنا عبد الله أفندی رجلا سودانیاً طویل القامة ، م فی السرای أربعن سنة ، وهو یترحر علی الأیام

خدم فى السراى أربعن سنة ، وهو يترحم على الأيام للاضية ، أيام العز والهيد ، ويأسف لضياعها وضياع الإسلام .. سراى فخمة ، وحدائق لايرى الطرف متباها ؛ وتمثى من أولها صاحداً نحو للث صاحة حتى تصل إلى باب البناء ، هذا بناء أعد ً الضيفان والزائرين ، رأينا منه حجرة كانت معدة لأكل الضيوف في عهد السلطان ، وهي حجرة بديعة في حليبها وحمال صنعها ، قد عرِّيت من أثاثبها فلم يبق فها إلا مرآة كبرة ، وأشار عبدالله أفندى إلى حجرة أخرى أكبر منها تسع أضعاف ما تسعه الأولى ولكنها مغلقة ، وأخبرنا أن كل أثاث السراى قد نقل ، وأن بناء الحريم الذي كان يسكنه السلطان قد احترق أيام الحرب.

ورأينا فسقية كبرة في الحديقة قال لنا عبد الله أفندي : إنه منذ أيام قليلة زارنا الخديو عباس ، ووقف عند هذه الفسقية ، وحكى لنا أنه حين ولي على مصر حضر إلى الأستانة وجلس مع السلطان عبد الحميد بجوار هذه الفسقية هو وأمىر بلغاريا ، وإذ ذاك أنعم عليهما السلطان ، ثم ترحم على تلك الأيام ، وظهر على وجهه الحزن والأسف ، وهُكذا الدنيا وهم خادعٌ وظل زائل .

الاثنن ١٦ يوليه:

قررنا السفر والعودة إلى مصر ، فأخذنا السيارة إلى الحمرك ومنه ركبنا السفينة واسمها والروضة ، فكانت مدة إقامتنا بالأستانة نحو أربعين يوماً.

فلأنظر نظرة عامة فى الرحلة ، أنفقنا نفقات كثيرة

يصحبا دليل سورى أثقلنا بأحاديثه وتكاليفه فاستغنينا عنه . كان جو الأسناتة فى الأربين يوماً حيلا ، فلم تشعر فيه عر القاهرة ، بل كنا أحياناً فشعر بالمرودة ، ولكن حدثنا بعضهم أن الحر فى هذه السنة كان خيفاً أقل من المعاد ، وفي بعض السنن يكون شديداً لايطاق فى بعض الأيام . وقد أفادتنى هذه الرحلة اتساعاً فى أفنى ، فأصبحت أنظر يلى مصر وحواديا وشتوبا من على كأنى فى طيارة ، يلى مصر وحواديا وشتوبا من على كأنى فى طيارة ، وطينى وأنا فى الأستانة الماطفة الدينية ، لا من ناحية كرة الصلاة وعوها ، ولكن من ناحية الشعور القلى

فى الأيام الأولى ، لأننا كنا نجهل كيف نعيش ، وكان

أحسست عند مقارنتي لرفقائى فى السفر أنني أكثرهم تحفظاً وأقلهم مرحاً وأشدهم حنيناً إلى أهلى ووطنى ، واعترمت أن أنصف أهل وولدى عند عودتى ، فأكون معهم ألطف وأعطف وأرق وأحسن معاملة وأكثر مرحاً.

فكرت أن أبحث عند عودتى مشروعاً مفيداً وهو إنشاء مطبعة أنشر فيها خير الكتب القيمة التى عثرت عليها فى الأستانة فيكون عملاً مرعاً مادياً وأدبياً .

قلت فى نفسى : إن الأربعين يوماً التى قضيتها فى الأستانة موضوع لرواية جيدة بل روايات ، ففها المناظر وفها الأشخاص ، وفيها الأحداث ، ولا ينقصها شيء إلا المرأة والتحرير الروائى .

لاحظت كثرة الشيب في رأسي ، فبدأ شعورى بكىر مني ، وزاد هذا الشعور ماكان يبدو على بعض الشبان من تقديمي أمامهم في السر ، وإخلاء أماكنهم ليجلسوني ، وكان كل هذا إكراماً لاذعا.

لتمنيت أن تنقلب السفينة طائرة .

وخُتمت هذه الرحلة عأساة سمّاها أستاذنا على بك فوزي لما علم مها ﴿ آية الكرسي ؛ ذلك أنه قبل وصول الباخرة إلى الإسكندرية بيوم صعدت فوق ظهرها وأردت الحلوس على كرسى من قاش من النوع المعروف الذي يقفل ويفتح ، وكان كرسياً قديماً ، فتحته وأخلت أجلس عليه مستنداً بيدى على خشبتيه الحانبيتين، فانفلتت خشبته الخلفية ووقعت إصبعي الحنصر من اليد العني بن الحشبتين الحانبيتين فانقطع طرفها العلوى وتدلت لحمته وسال دمه ، وذهبت إلى طبيب الباخرة فأعاد اللحمة المدلاة إلى مكانها وربطها ربطاً محكماً . واستثارت الحادثة عطف كل من كان في الباخرة . ولماحضرت إلى مصر ذهبت إلى الحراح فأمر بالكشف بالأشعة على عظمة الإصبع فوجدت والحمد لله سليمة ، ولم يلتمُ الحرح إلا بعد علاج طويل وقد ترك أثراً في إصبعي بيّناً .

[كتب عل السفيئة (الروضة) في ١٦ يوليه سنة ١٩٢٨]

وانتهزنا فرصة إجازة نصف السنة ، فدبرنا رحلة إلى الشام في خمسة عشر يوماً والزمن شتاء والمرد قارس ، فخرجنا من مصر في ديسمبر سنة ١٩٣٠ في رهط من الطلبة والأساتلة، وعهدت إلى الكلية الإشراف على الرحلة ، فها نحن نرحل من القاهرة إلى القنطرة ونعبر القنال ، ونخترق صحراء سينا بالقطار ونمر على غزة ثم على بعض المستعمرات الصهيونية ۽ ونستمع إلى بعض الأحاديث عن منشآتهم في مستعمراتهم ، فنستشعر الحوف من الستقبل ، حتى نصل إلى محطة والله"، فنستقل قطاراً آخر إلى بيت المقدس ، وبن الله والمقدس نستمتع بالمناظر الطبيعية من جبال ووديان نشأت ـــ ولا بد ـــ من ثورات أرضية عنيفة فعلت أفاعيلها القاسية فرفعت بعضها إلى أعلى وسميناه جبلا ، وخفضت جزءًا آخر وشميناه وهدة أو واديا ، وهي مناظر تملأ القلب روعة وهيبة ، حتى نصل إلى المقدس فيستقبلنا بعض علمسائه وأدبائه ، وعلى رأسهم المرحوم إسعاف بك النشاشيبي ، ويبالغ في إكرامنا ،ونلتني بالأستاذ السيد الحسيني مفتى فلسطىن فيوحى إلى منظره بقوة إرادة وتصميم عزم ونفس لا تهدأ حتى تتسلط. وأنهز الفرصة فأجتمع بروساء بعض الأحراب في فلسطين ، فأستمم إلى أحاديثهم وأعرف كيف يتنازعون على المصالح الشخصية لا على المبادئ العامة ، فأرقى خلفم وأتوقع من ذلك الشر لبلاهم — وتزوو بيئت لحج ، ونرى كيف تتنازع الطرائف المسلمية المتنافظة على الأمكنة وكيف يتنامسومها شيراً فشراً ، فأهجب بسياحة الإسلام وحسدة الأرض كلها مصل ، والأرض كلها لق. ونلحبالى قربة الخليل ونزور مسجده ولعجب بيئاته الفسخ ونرى فيه مظهراً من مظاهر البناء الرومانى وطابعاً من طوابعد .

ونزور المسجد الأقصى فنعجب بفنائه ، وننتقل إلى الصخرة ونقف تحت القبة العظيمة ، وننظر إلى الأبنية الجليلة الى بناها صلاح الدين . ونرحل بعد ذلك إلى البحر الميت ، ويقص علينا الدليل ما محوى هذا البحر من ذخائر كيمياوية سيستغلها العلم الحديث ، وينتفع بها مستخرجوها ، وتعود هنا أيضاً فنستشعر الخوف من الصبيونية المقبلة . ونسر إلى أرعا ، ونهر الشريعة، ونرى الحسر الذي يفصل بن فلسطن وشرق الأودن ، ثم تمر على نابلس ونصل بعدها إلى الناصرة بلد المسيح عليه السلام . ثم نصل إلى طبرية ونشعر بالدفء الذي يطرد ما حزناه من برد ، ونعجب بما حولها من جبال عالية تتفجر منها مياه حارة أنشئت حولها حامات ، ثم نسر بعدها إلى

م ۹ (حیاتی)

دمشق ، ونحن متطلعون إلى رؤيَّها ، نحمل ذكريات من أحداثها من عهد أن كانت مركز الخلافة الإسلامية في عهد معاوية ، والخلفاء الأمويين من بعده وتتجول في أنحائها ونزور مصانعها ومساجدها ونخرج إلى ضواحبها ننعم بجالها ء ولكن كانت دمشق وسوريا كلها إذ ذاك في حوزة الفرنسيين، وهم محشون من طلبة الحامعة وأساتلها لأنهم يعتقلون أنها بورة أفكار وطنية ثورية ، فخشوا أن نلتني بأمثالنا من الناقمين على الاستعار ، فأحاطونا بسياج لطيفاللمس في شكل إكرام ، فكناكلما سرنا احتاط بنا موظفو الحكومة يستقبلوننا ويطلعوننا على ما أحبوا لا على ما نحب ، وهذا ظن ظننته ، دل عليه ما رأيته .

ونزور المسجد الأموى بدهش فنسحر بعظمته وجلاله ، وسعه وحماله . وضريح شيخ الصوفية عمى الدين بن العربي، وقمر صلاح الدين الأيوبي وأستاذه نور الدين عمود زنكي، وتقفى سبرة لطيفة في نادى الموسيق بدهشق.

ثم نرک القطار الی حلب ، ونزورها ویستمیلنا رجال المارف آیشاً فتنجول معهم فی المدینة ، وقد آعجیتان نظافیا وجد أهلها ، ونری استحواذ الأرمن علی أهم الصناعة فیها ، ونزور الحامع الأموی فیها آیشاً کما نزور تلمیها العظیمة ، وتثور فى نفوسنا ذكريات سيف اللولة فى حلب ومجلسه الأدبى الفخم يصول فيه المتنبى وبجول .

ثم نقصد إلى زيارة أني العلاء المعرى في معرة النمان ، فنرى بناء متواضماً محتوى على فناء صغير وحجيرتين ، وفي إحدى الحبيرتين قمر كتب عليه : أبو العلاء أحمد بين عبد الله. ابن صليان المعرى . فتقت على قدره طويلا نذكر لزوسياته وسقط زنده ، وزهده واحتفاره الدنيا وضيمها ، وجزأته التي ليس لها مثيل في نقده اللاذع التفاليد والأوضاع .

ونمر عماه ونحمر قها ونسر بنواعدها ، ونصل الدبيروت فنزور (كلية المقاصد) الإسلامية والحاممة الأمريكية وملوسة الآباء اليسوعين ، ونمود على الباعزة إلى الإسكندرية .

كل هذا في خسة عشر يوماً حتى لكأننا نرى هذه الأماكن من طيارة ، أو نستعرض فلماً سيهائياً سريعاً .

لقد استفنت من هذه الرسلة روية هذه البلاد وأهلها ؛ وعرفت طرفا من حياتها الاجتباعة ومشاكلها السياسية ومناظرها الطبيعية ، ولكن عكر صفوها أنى لم أستطم أتشاها الانفراد بضمي ، وأنا أكره اليوم الذي لاتتاح لى فيه فرصة

الوحدة والعزلة ، أحلم فها وأتأمل . والرحلة فى نظرى لاتكون لها قيمة حقة إلا إذا تشمع القلب لما يرى ، وجال الخيال فى ذلك جولته ، ومزج

الإنسان ما يرى بنفسه . ولم أتمكن في هذه الرحلة من ذلك كله ، فاعتزمت في هذا المأزق أن أجتركما عبتر الحمل ومخزن مريعاً ما يأكل ، ثم بمضغه وبهضمه بعد ذلك على مهل. وكان مما أتعيني في هذه الرحلة كثرة ما أدعى إلى الأكل وكثرة ما يلقى من الحطب على الموائد ، فلا يزال الشرقيون يتصورون الكرم أكلا وخطابة ، وكلما كثر الأكل وكثرت الخطابة كان.عنو أن الكرم . وإنى لأرجو أن يتحول هذا الكرم فى المستقبل إلى اقتصاد فى الموائد وتوسع فى الإفادة بالمعانى ؛ وخاصة مع رجال العلم . وزاد العبء على أنني كنت الحطيب الوَّحيد غالباً ، فكلما دعينا إلى مأدبة خطب صاحبها وطولبت بالرد عليه ؛ لهذا مُكثت هذه الرحلة بالرسميات، والرسميات عدو الرحلات ، ومضيعة لهجتها ؛ ومع هذا فالأديب والفيلسوف من طبيعتهما أن مختزنا ف أنفسهما كل ما يقع تحت حسهما فی وعی أو من غُير وعی ، ولا يدری أحدهما متى يتتفع سلما وكيف ينتفع ، ولكنه سينتفع حمَّا على كل حال .

ولا بأس هنا أن أذكر رحلة أخرى رحلتها إلى بيت المقدس كانت عجية حقاً مربكة حقاً ذلك أنى تلقيت يوماً خطاباً من جمية الشيان المسيحية فى القدس ، تطلب منى محاضرتين فى أى موضوع أختاره ، وحددّت لى موعداً بعد شهر تقريباً ، فقبلت الدعوة واخترت موضوعاً هو : و ما الذي يعوق المسلمين اليوم عن المشاركة في بناء المدنية الحديثة ؟ ، وعكفت على كتابة المحاضر تن حي أتمسهما وسيأت السفر ، وإذا بتلغرافات تردعلي" من حميات الشباب المسلمىن فى القدس ويافا وحيفا وغيرها تحذرنى من الحضور من غبر أن تذكر سبباً ، فلم أعبأ بذلك ، وسافرت ، فلما وصلت إلى القدس لم أجد من يستقبلني إلا مندوباً من جمية الشبان المسيحية وأستاذاً في القلس كان طالباً لي في كلية الآ داب(١) ، فدعاني مندوب الجمعية إلى النزول في بنائها فاعتلموت ، ودعانى الأستاذ تلميذى أن أنزل في بيته إذ كان يسكن عفرده فقبلت ، وقد أسر إلى صاحبي بأن الأستاذ المقي وإسعاف بك النشاشيبي والأستاذ الثعالبي يعتذرون إذلم يقابلونى ويطلبون إلى أن أقابلهم ، فقابلت الأستاذ إسعافاً فشرح لى الموقف وقال : إن مركز جمعية الشبان المسيحية متهم الآن بأنه مركز تبشر للمسيحية ومركز تبشر للاستعار الإنجلزى ، وقد ثبتت عليه بعض الأحداث فقاطعه المسلمون من أجل ذلك ، وقد أرادت الحمية أن تكسر هذه القطيعة وتبطل الإضراب بدعوتك لالقاء هذه الحاضرات. فقلت: كان

⁽١) هو الدكتور إسحاق موسى الحسيني .

عليكم أن تخبرونى بهذه التفاصيل من قبل حين أعلنت الحرائد . عن سفرى ولنتدبر الآن في الحل . فطلب أحدهم إلغاء المحاضرات فأبيت ، وطلب آخر أن ألتي المحاضرات نفسها في حمية إسلامية ، فقلت إن هذه المحاضرات قد أصبحت ملكاً للداعي إليها . وأخراً اتفقنا أن ألتي محاضرة في موضوع آخر في حمية إسلامية قبل إلقاء هاتين المحاضرتين ، وأعددت العدة لإلقاء محاضرة في نادى مدرسة روضة المعارف . وكان عنوانها ۽ تفسير آية إن الله يأمر بالعدل والإحسان ۽ . وقد بدأت المحاضرة ببيان وجهة نظرى فى المحاضرة الى أتيت من أجلها ، مستنداً إلى أن المسئول عن ذلك هم لا أنا ، إذكان الواجب علمم أن مخروني مقاطعهم قبل حضوري . ثم إن موضوع المحاضرة التي سألقها يدور حول الإشادة بالإسلام والمسلمين ، وأن السبب في أنهم لم يبنوا في المدنية الحديثة معالبانين لا يرجع إليهم ولكن يرجع إلى أن الاستعار الأوروبي يأتى رقبم ، ويعمل على إضعافهم لاستغلالهم . ولو أنصف الأوربيون لمهدوا للمسلمين سبيل القوة حيى يقفوا على أرجلهم ويبنوا فى صرح الحضارة معهم . ومثل. هذا الكلام إذا ألتي في جعية مسيحية كان له الأثر الأكبر ثم هبوا أنه قد دعى قسيس مسيحي التبشير بدينه في مسجد إسلامي ألا ترون أنه يعد ذلك فرصة عدىمة النظير . وأخبرآ

مأتى عاضرتى فن لم يقتع عا قلت وشاء مقاطمة المحاضرة ظيفمل ، ومن شاء أن يسمعها ثم يقاطع فليفعل ؛ ثم بدأت بن عاضرتى عن العدل والإحسان ، ومع هذا البيان خرجت جرائد بيت المقدس تندد بى وتطالب بعدم القاء المحاضرة ومقاطعى إن ألفتها – وحين ذهبت الإلقاما كان يعض الشبان فى مفترق الطرق محرضون من توسحوا فيه اللهاب إلى الجمعية على عدم اللهاب ، ولما ذهبت وجدت – مع الأسف – القامة الكبرة الفسيحة محلومة بالمستمعن .

وانهت المحاضرتان بعد أن لقيت فهما من العناء الشيء الكتبر ، ولم أستمتع بطبيعة ولا منظر ، فكان درساً قاسياً لا رحلة هادئة .

(YV)

وفي السنة التي تلها رتبت كلية الآداب رحلة للى العراق إجازة نصف السنة ، اشترك فيا بعض أساتلة الحقوق وكلية الآداب وبعض الطلبة وعهد للى "أيضاً الإشراف علها ، وكانت الرحلة أشق وأعنف، اجترنا فها الطريق اللك اجترناه في الرحلة السابقة للى دمشق تقريباً ، ثم وكينا السيادات من دمشق إلى بغداد في نحو سبع وعشرين سامة ، قطعنا فها بادية الشام ، وهي بادية منبسطة فسيحة الأرجاء جنباء ليس فها إلا قليل من الأعشاب ، سرنا فها ليل مار لا تسريع في

الطريق إلا قليلا لنأخذ أكوابا من الشاىأو أقداحا من القهوة ، وسىر السيارات فى الليل المظلم والىرد القارس والريح العاصف مهيب محيف ، إلى أن لاح لنا نهر الفرات فبلعنا ريقنا بعد أن جف من منظر الصحراء ، وعبرنا جسراً على نحو ماكان فى عهد الرشيد والمأمون سُفُن ضم بعضها إلى بعض ، فكانت جسرًا ، ووصلنا الأنبار وتسمى الآن الفكوجة ، وكم نبغ من الأنبار هذه نوابغ فى العلم والأدب يلقب كل منهم بالأنبارى ، وظلمنا نسير فيا بن السرين دجلة والفرات أكثر من ساعة فى أرض طيبة خصبة ، ولكنها مهملة مهجورة تنتظر اليد العاملة والرعوس المفكرة والأموال المدبرة حتى وصلنا بغداد ــ قارنت بن بغداد الرشيد والمأمون وبغداد العهد الحاضر ، وخصب العراق ومزارعه في الماضي والحاضر ، فحزنت ، ولم أستطع أن أكمّ حزنى فكنت قليل الذوق في أول حفلة أقيمت لنا عقب وصولنا ؛ إذ طلب منى الكلام فتكلمت فيا كان بن بغداد في القدم والحديث ، وفيا مررنا عليه من أرض جيدة النربة ، ولكنها جرداء كالصحراء ، ودعوت إلى أن يَهْض أهل العراق فيستغلوا كنوز الذهب في ديارهم ، والمياه المتدفقة في أراضهم ، ولم أكن في هذا الحديث لبقاً ، إذ نيس هذا الكلام مما يصح أن يكون تمية القدوم ، ولكن كان هذا أثراً للصلمة التى صلمناها صند روية ما بين الأنبار وبغداد . وقد أمكننى فى خطبة أخرى فى حفل آخر أن أتشارك هلما المطأ ، فأشيد عا فعل العراقيون من جهد جبار فى إصلاح الأحوال ، وكلا القولين حق ، ولكن ما كل حق يقال .

كبولنا فى بغداد وزرنا الإمام أباحثيفة فى مسجده بالأعظمية والإمام الكاظم والإمام الحواد فى الكاظمية ، والمتحصالعراق الغ ، وأنسنا بلقاء الشاعرين الكبرين حيل الزهاوى ومعروف الرصافى واستمعنا لمل شهرهما فيا ألمم لنا من حفلات . وقد أكرمنا العراقيون إكراماً فاق الحد ، فظما خلت لبلة من دعوة وكنا فى رمضان ، حى لقد دعينا ليلة واحدة لمك

ثلاث دعوات اضطررا إلى إجابياً.
وقد دعانا المرحوم الملك فيصل إلى الإنشار على مائدته
ووجه إلى السؤال الآقى: هل من مصلحة بلد كالعراق أن
يكثر من التعليم اللى و ولى أدى ذلك إلى كبرة الماطلين من
التعليمين ، أو أن يتتصر في على قدر ما تحتاجه الحكومة من
موظفين؟ وهذا السؤال يستيم سألة أخرى نتيجة الحبواب،
وهي : هل ننقى" هنا معارس عالة يكثر فيها الطلاب
أو تكفى بإرسال بعثة إلى أوروبا بقد ما تحقي على إنشاجه من غير
داع إلى إنشاء معارس عالية منا ؟ وقد وفقى الله فأجبت
بأن مصلحة الأكدة فى كثرة المعلمين تعلماً عالياً وإنشاء المدارس

الهالية لم فى البلاد نفسها ، ثم إرسال بعثة من النابض ، وقد وأن التعليم الهالى كله خبر وبركة مهما كانت التتاجع . وقد مطلت بعد أن هلمين الرأين كانا يتصارعان فى العراق ، وأقى هذا السؤال من الملك فيصل تتيجة لهذا السراع . ولحبت فى العراق الانتسام بين الشيعة والسنية ، وقد زرت النجف وكربلاء وفرخم ، وهى حصون الشيعة ، وقد أن المناب في المناب أو من حصون الشيعة ، أن عالب ، ورأيتا الهامة فى كربلاء يضربون صدودهم ضرباً شديداً حي ليدوا أجسامهم حزنا على الإمام ، ومهم من يضربون المضورهم من يضربون المضروم المسابق المسابق المنابق المسابق المشابق المسابق المسابق المشابق المسابق ال

بسلاسل من الحديد ، والقساء يولولن على نحو ما كان معروقا من عمل الشيعة في القاهرة إلى عهد قريب . وقد أسفت المقد المثلث وخيات سعولية ما يسمل في هذا اللب علماء الشيعة ، وفيم فضلاء أجلاء مسموعو الكلمة يستطيعون أن يطلوا كل هذا بكلمة مهم ، ولكن لا أدرى لماذا لا يفطرن . وهذا الخلاف بين السنية والشيعة في العراق جرَّ عليه كثيراً من المسائب والحن — وبقدا جهود ضاعت فيا لا يفيد ، لو صرفت في خير الأندة وتقديها — يقتلم النظر عن سني

وشيعي ـــ لعادت على أهلها بالحبر العمم ولأن كانت الحصومة

بين أصحاب على" وأصحاب معاوية معقولة في زمنهما أو بعد رَمْهِما بقليل ، فلم تَمُّد معقولة الآن ، إذ ليس هناك اليوم نزاع على خلافة ولا إمامة ، وإنما هو نزاع على أمهم أفضل أبو بكر وعمر أم على ؟ وهذه لا يبت فها إلا اقد ، ومن · السخافة أن نضيع أوقاتنا في مثل هذا الكلام ، وكل العقلاء متفقون على أن كلاً من الثلاثة رجل له فضله ومزاياه ، والله وحده هو الذي يتولى مكافأتهم على أعملهم ، ويزنهم بالميزان الصحيح ويقدرهم التقدير الحق ، وما عدا ذلك فالحلاف بن الشيعة والسنية كالحلاف بين حنى وشافعى ومالكى لايستدعى شيئاً من الخصومة ؛ ولكنّ أفسد الناس ضيق العقل وعواطف العامة ومصالح بعض رجال الدين وصبغ المسائل السياسية بالصبغة الدينية .

ولما أخرجت كتاب و فجر الإسلام ، كان له أثر سي ف نفوس كتر من رجال الشيعة ، وماكت أقدر ذلك ، لأني كت أظن أن البحث العلمي التاريخي شيء والحياة العملية الحاضرة شيء آخر ، ولكن شيعة العراق والشام غضبوا منه وألفوا في الرد عليه كتباً ومقالات شديدة اللهجة لم أغضب مها . ولما لقبت شيخ الشيعة في العراق الأستاذ آل كاشف الفطاء عاتبي على ماكتب عن الشيعة في فجر الإسلام . وقال: إني استنت في كتبت على الحصوم ، وكان الواجب أن أستند إلى كتب القوم أنفسهم ، وقد يكون ذلك صحيحاً في
يعض المواقف ، ولكني لما استندت على كتبهم في وضحى
الإسلام ، ونقدت بعض آرائهم نقداً عقلياً نزيهاً مستندا على
كتبهم غضبوا أيضاً ، والحق أنى لا أهل تعمياً لمنية ولاشيعة،
ولقد نقدت من مذاهب أهل السنة ما لايقل عن نقدى لمذهب
الشيعة ، وأهليت من شأن المعرفة بعد أن وضعهم السيون
في الدرك الأسفل إحقاقاً لما اعتقلت أنه الحقي .

وقد حدث وأنا في بغداد حادث خطىر ، فقد دعينا لنشهد مجلساً من مجالس العزاء يقيمها الشيعة في ليالي مقتل الإمام على ، فذهبنا إلى والحسينية ، بالكرخ - ضاحية من ضواحي بغداد ـــ فرأينا داراً واسعة احتشد فيها عدد لايقل عن أربعة آلاف ، وقد سرى في القوم أن وفد مصر حضر ، فازدحوا على استقباله ، وأخليت لنا ناحية جلسنا فما ، وخطب يعض الحطباء لتهنئتنا ورد علمهم الأستاذ عبد الوهاب عزام التحية عثلها ، ثم قام خطيب الليلة الأستاذ كاظم الكاظمي ، وهو خطيب طلق اللسان حسن التأثير في السامعين ،' فرحب بالوفد وبأخد أمين ، ولكنه عرَّج من ذلك على كتاب فنجر الإسلام وما فيه من تجن ّ على الشيعة وأكثر الحاضرين من عوام الشيعة الذين توثلهم هذه الأقوال أشد الألم، ولا عنعهم مانع أن ينكلوا بكل من يعتدى على

عقيدهم ، ولكن الحطيب ماهر ، إذ أحس هياج الحمهور وتحفزهم اقتبس حملة من فجر الإسلام فيها مدح الشيعة ، وهكذا ظل الرجل يلعب بعواطف الناس بنن مدّ وجزر وتهييج على وتهدئة ؛ فلما طال هذا وخشى بعض الحاضرين سوء العاقبة نصحنا ناصح أن ننسل من باب خلني ففعلنا ونجونا بأنفسنا ــ وقد علمنا أن الأمر بلغ الملك فيصل، فغضب على الحطيب وشاء أن يعاقبه ، ولكنا طلبنا من ناقل الحمر إلينا أن يرجوه ألاً يفعل ، فقد انتهى الأمر بسلام . وكان يوما أيوم ، يوم وسر من رأى، وقد شاء الله أن تكون وسيء من رأى، . ذلك أننا اعترمنا زيارة سامرًا ، وقد قبل لنا إنّ المسافة بنن بغداد : وسامرًا ، نحو ساعتين ، فقدرتا أن نزورها ثم نعود ونتناول الإفطار على ماثدة قنصل مصر فى العراق ، ولكن ساء سىر السيارات فلم نصلها إلا قبيل الغروب ، وأبرقنا إلى قنصل مصر أن مجعل إفطارنا صوراً ، ومررنا في الطريق على قنوات معطلة ، وأرض زراعية فسيحة مخرَّبة ، وآثار عمران عظيمة مهدمة ، وعبرنا نهو دجلة إلى ﴿ سامرًا ﴾ ورأيناها وأطلالها القديمة ، وشاهدنا جامع المعتصم فيها ، وقد بني على نمطه جامع ابن طولون عصر وخاصة منارته ، وشاهدنا بعض آثارها الباقية ، فلما حاولنا الرجوع وقد أظلم الليل ، قبل

لنا إن ذلك مستحيل ، لأن الطريق غير مأمون فألححنا على رئيس البلدية فقبل وأرسل معنا سيارة مسلحة تخفرنا .

وحدث أن أراد طالب معنا أن يعبر الحسر المقام على دجلة فسقط بين المركبين ، فبعث من أنقده وكانت الدنيا شتاء والبرد قارساً ؛ فأخرجناه والحمد فه سليا ، وغيرنا له ملابسه المبلولة ، وأشملنا له ناراً تدفئه ، وعلى هذه الحال البت الحادثة()

وكتا كلما سرنا سافة ارتطمت سيارة في الوحل فتُعطّلنا حتى نقذها ونصلحها ، وسمعا في الطريق أن لصوصاً قد سطوا على قوم بمرون أمامنا ، فداخلنا الرعب، ووصل الحمر إلى بغداد بأن السطو حدث علينا نحن في الطريق ، فخرج مدير شرطة بغداد بيمض الحدود لاستطلاع

⁽۱) كان مذا المعالب هر المرسوم الأساذ طرير فهمى نجل الأساذ ميد السلام فهمى جمعة رئيس مجلس التراب ساية . وكان مدا المعادث كان رئيسا المرادي فيها بهد فقد فعه الأسافة من هذا الله يستون ، بريد ان فيرات به في الديد ، وطالب القطار ، فركب سراد إلى بني سويف ، فعرات به الحديث . وكان المقدر ضم على أن يرس غيران ، فلك المحاف من الأول متم عليه أن يؤت في التائية ، فالله يرحمه فقد كان قايا فيها فيها لم يؤيف . ويجوب ياطني من الايساس برأيه ويجانف رأى حزب في أفق المسائل ، ويجهر ياطني

الحبر وإنجادنا فلقيناهم فى الطريق ، ولم نصل إلى بغداد إلا يعسد الفجر ، وفاتنا الفطور والسحور ، وكان يوماً خالداً الذكر فى حياتنا لا ننساه ، لما رأينا من بلواه .

وبومآ قررنا السفر إلى الموصل ووصلنا بالقطار إلى كرمكُوك وبتنا فها ورأينا منابع البترول وكيف تحفر الآبار ، وعاقنا المطر الغزير عن متابعة السبر إلى الموصل فعدنا من كركوك إلى بغداد وودعنا أهلها وأخذنا طريقنا إلى تدمر ، فجسنا خلالها ورأينا قبورها وآثارها ، ووقفنا على أطلالها ، ولفت أنظارنا حمال أهلها ، وذكرنا الزبَّاء وما قال العرب والإفرنج عنها ، وبتنا فها ليلة ، ثم قفلنا إلى دمشق ومنها إلى بىروت مخترقين جبال لبنان العالية وحولنا الثلج وعدنا إلى مصر سالمن . وقد انطبعت في نفوسنا صور شي من صور العالم العرق ــ فلسطن وسوريا والعراق ولبنان ــ كلها بلاد تتقارب فى الحياة الاجباعية وتقف على درجات من سلم واحد ، فكِلها تتوزع مزايا الشرق وعيوبه . هذه مصر تتقدم الحميم في مظاهر المدنية والحضارة والثروة ، وهذا لبنان تمتاز بجد أهله ونشاطهم وثقافتهم وتقدم المرأة عندهم ، وهذه الشام تمتاز بالنشاط والنجاح التجارى الذى عرف فهم من عهد الآرامين ، وهذا العراق يشعر بثقل . الدَّيْن القدم ، فيهض أهله ، وحاصة شيانه بتأسيس مهضة جديدة تستغل فيها موارد البلاد وتتخذ بعد ذلك أساسآ للهضة العلمية والاقتصادية ، وكل البلاد معيبة بالبطء الحكومى في تصريف الشئون ، وضعف الابتكار ، والحاجة إلى الأجنى النزيه فيرسم الخطط للإصلاح الاقتصادي والاجماعي، وكلها معيبة في نظام الحكم وعدم رعاية حقوق الشعب، وقلة شعور الشعب محقوقه وواجباته وإن اختلفت درجاتها في ذلك ، ولكل أمة من هولاء مشاكلها . فشكلة لبنان انقسام أهله إلى مسلمين ومسيحيين ، واختلاف نزعائهم بين ميل إلى فرنسا وكره لها ، ومشكلة القدس الحلاف بين زعمائه وأحزابه على الغلبة والرياسة ، مع أن الصهيونية تنخر في عظامهم ، ومشكلة العراق تقسم أهله بن سنية وشيعة وبدو وحضر ، وهكذا رأيت كل هذه المناظر واختزنها في نفسي وأثرت فى تفكىرى .

وسافرت إلى الحبجاز للحج سنة ١٩٢٧ مع يعتق الحاممة المصرية ، ولا أطيل في وصف الطريق والمراحل التي يقطعها الحلمة ، فقد ذكرت كثيراً قبل ، وكل ما أريد ذكره أن عادة الحجاج أن يضعرهم الشعور الليني ، فلا يشعروا بما تحملوا من متاعب ، ولا ما صادفوا في الطريق من عقبات ، ولا ما شاهدوا من فوضى وعدم نظام وتحودذك ، أو يشغرون با ، ولا ينطقوا

إلا مما رأوا من محاسن . أما أنا فقد تحرنى أيضاً الشعور الديبي ، وكان في الحج مواقف اهتر لها قلبي و دمعت لها عيبي ، وأروعها ــعلى ما أذكر ــمشاهدة الكعبة وطوافي وطواف الناس حولها ، ثم وقوفي بعرفات ، وعشرات الآلاف من الحجاج يلبسون لباساً أبيض بسيطاً كأنهم تجردوا من الدنيا وتعيمها وطرحوا زخارفها . ووجهوا قلومهم كلها إلى خالقهم يبتهلون إليه أن ينفر لهم ما تقدم من ذنهم ، وأن يعينهم على حياة جديدة ملوَّها الطاعة والتقوى ، ثم زيارتى للحرم المدنى في المدينة ووقوفي أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، أستحضر تارمخه ومواقفه وعظمته ، فكل هذه المواقف كانت حملة حقاً رائعة حقاً .

رب سيد عند النام الله من الأشا أروية المتاعب ومنشها وإدارة الحج وتقدير إحساما أواساما ، وتنوين ذاك مذكرتى ؛ فهذا الزحام يشد في أيام الحج وتضطرب حركة السر ، وخاصة عند نزوا الناس من حرفات الماء مثى ، وق الإبكان تنظيمه وترتيه بشى ، من العابة . وهماك قلة الماء في مي وصعوبة الحصول عليه ، وفي الإسكان ترتيب ذلك . وهناك عدم العناية بالنظافة حول الحرم المكمي والمدني وفي المساكن والشوارع . وهناك سوء الطريق بن جدة والمدية لمل كثير من أمثال ذلك ، أليمت لما ، وفكرت في وجوه الخلاص مها . وأيقنتأن إدارة الحجاز معاونة العالم الإسلامي لما تسطيع بجهد قليل أو كثير أن تتلاق مده العيوب وتربح الحجاج نما يلحقهم من أذى قد يصرفهم فى كثير من الأحيان عما حجورا لأجله ، من فرانح للمبادة واتصال باقد .

ورأيت من واجب الخاصة أن يدرسوا ما رأوا ويفكروا في العلاج ويقترحوا سبل الخلاص من الأدواء ويرفعوا صوتهم مها ، فذلك خبر من السكوت علمها . من أجل هذاكتبت تقريراً . عن كل ما رأيت من داء وما أصف من علاج ، ولم أنخس فيه الإدارة الحجازية فضلها فى بسط الأمن ونشر الطمأنينة بين الحجاج على أنفسهم وأموالهم ؛ ورفعت نسخة من هذا التقرير إلى وزارة الحارجية المصرية والحامعة ، وتحدثت مخلاصة ذلك في الإذاعة المصرية ، فكلمي المرحوم طلعت باشا حرب بأنه يريد مني أن أقابله ففعلت ، وكان من رأيه ألا أثير هذه المسائل الشائكة ، ولا أذكر هذه المعايب والمتاعب ، لأُنَّها تصرف كثيراً ممن يريدون الحج عنه ، وتسىء إلى الإدارة الحجازية من غىر داع ، فشرحت له وجهة نظرى في أن الإعلان عن هذه العيوب يدعو إلى إصلاحها ، ومادمنا ساكتين فلا أمل في الإصلاح ؛ وأخبراً تقاربت وجهة نظرنا واتفقنا علىأن أكتب تقريراً مفصلا لا أذيعه في محطة الإذاعة، ولا أنشره في الحرائد ، ولكن أقدمه إليه وهو يرفعه إلى

الإدارة الحجازية ويعمل ما وسعه فى التفاهم معها ، ومع الحكومة المصرية على بذل الجهد فى الإصلاح .

44)

أتيحت لى فرصة أخرى سنة ١٩٣٧ لأرى الغرب كما رأيت الشرق ، وأرى المدنية الحديثة كما رأيت مدنية القرون الوسطى، وأرى من يسمونهم المتقدمين كما رأيت من يسمونهم المتأخرين ، فيكون لى بدل العن عينان وبدل المنظر الواحد منظران ، فاخترات عضواً في مؤتمر المستشرقين الذي ينعقد في ليدن سهولنده ، وقررتالسفر قبل الموعد بنحوشهرين ، حتى أزور ما أمكنت زيارته من مدن أوربية ، فركبت البحر إلى مرسيليا مع صديقي الدكتور عبد الزراق السهوري ــ وقد حبر فرنسا خبرة طويلة ودقيقة وعرفأهلها وبلادها إذ أقام فها سنىن يدرس القانون ــ وزرنا مرسيليا وتجولنا فها وخرجنا إلى ضواحيها ، ثم سافرنا إلى ليون ونزلناها وأقمنا فُهَا ثلاثة أيام رأينا فها معالمها وجامعاتها وخرجنا إلى ريفها ، ثم سافرنا إلى باريس ونزلنا في أوتيل فوايو بجانب مجلس الشيوخ وأقمت فيه نحو عشرة أيام ، وقد وضع لى صديقي برناعجاً دقيقاً طويلا رتبه بإمعان وبعد طول تفكير ، لبريني أهم

رائعة ، ويريني المدينة والريف والعاصمة والضواحي ، فكان برنامجاً شاقاً صعباً ، كل يوم رؤية صباحا وروية مساء ، ولم يسمح لى أن أستريح ولو قليلا ، ولا أن أتلوق ما أرى ، وأنا رجل بطيء الحركة أحب أن أتحرك على مهل وأتلوق على مهل وأستطيم ما آكل ، وأحب أنْ أتغذى ثم أغفو قليلا بعد الغداء ، فلم ممكني من شيء من ذلك ، فيوما يريني ميدان الباستيل وشوارع باريس الكبىرة وكنيسة مادلين وميدان الكونكور ومنتزه الشانزليه ، وفى المساء نذهب لمشاهدة رواية في الأوبرا ، ويوماً نرى برج إيفل ونصعد إليه ، وتستمع للدليل يشرح لنا الغرض منه وكيفية تأسيسه ونزور الحامعات ويعض المدارس ، ويوماً نزور غابة . بولونیا وقصر فرسای وقاعاته ومتحفه ، ویوماً نزور معامل سيفر المشهورة بعمل الصيني ، ويوماً نزور اللوفرومتاحفه ، ونخرج إلى حديقة لوكسمبورج وسرابها وكنيسة نوتردام ، ويوما نزور موتمارتر وملاهية والمكتبة الأهلية ونلتى نظرة عامة على ما فها ، ويوماً نزور سوق باريس في الصباح المبكر لنرى منظراً غربياً في البيع والشراء ، ويوما نخرج لِل ضاحية بعيدة من ضواحي باريس نرى فيها ريف فرنسا وحماله، ويدعونا بعض أصدقاء الدكتور لنرىبيوتهم وعاثلاتهم

ما فى باريس من جد ولهو وعلوم وفنون وأبنية ضخمة وآثار

ونتعشى معهم الخ . . الغ . . كل ذلك فى عشرة أيام كنت فها متحركاً لا أسكن ، ونشيطاً لا أخمد ، وعجهداً لا أستريح إلا وقت النوم في أوتيل فوايُّو .

وأذكر مرة أننا نفذنا برناجنا الصباحى ثم تغدينا فى مطم وجلسنا بعد الغداء نشرب القهوة لنستعد لتتفيذ برنامج بعد الظهر ، ولكن السياء أمطرت في غزارة ، وأحسست حاجتي الشديدة إلى الاستقرار بعد الغداء فلم يسمح لى ، وأبي إلا أن يطبق البرنامج بكل دقة ، فكنا نمشى في المطر الشديد

لنصل إلى حيث نريد طبقاً للبرنامج ، وقد أتحمت من هذه الأيام العشرة بالمعلومات والمناظر والمعارض والأحداث حيى لكأنبي أشاهد رواية سيبائية دام شريطها عشرة أيام . واحتجت إلى سنين بعدها أهضم مَا أتخمت به ؛ ثم ودعَّت صديق ذاهباً إلى إنجلترا.

وأبرق إلى صديق لي(١) يُعد لي مسكناً في لندن ويستقبلي في محطتها ، ويصل القطار إلى كاليه ، وأعبر بحر المانش إلى دوفر ، وأركب القطار إلى لندن فيستقبلني صديقي ويريني مسكني فها ؛ حجرة واسعة لطيفة فها سرير ، مفروشة فِرشًا بِسِيطًا لطيفاً في بيت من بيوت الطُّبقة الوسطى وفي حي · كَذَلِك ، وتعد صاحبته ما أحتاجه من فطور وعشاء ، أما الفداء (1) هو المرحوم حسين يك سيد ستشار السفارة المسرية في لندن .

⁽¹⁴⁾

في المطعم ، وأتعرف في المنزل بفتاة إنجليزية من أصل ألماني سألبا أن تصحيي في الحروج إلى معالم لندن ومشاهدها فقبلت ، فزرنا المتحف العريطاني ، واستعرضت فيه بعض المخطوطات ، ودار بلدية لندن و جولد هول ، وبنك انجلترا وبرلمانها ؛ ومسلة كليوبترة ، وجريدة التيمس وميدان الطرف الأغر وتمثال نلسن وكنيسة و وستمنسر أبي ، وجامعـــة لندن وقصر سنت جيمس وحديقة هايد بارك والمتحف ألحرنى . . الخ . وكنت في لندن أشعر ببعض الحرية وبعض الاستقلال ، لمعرفتي اللغة الإنجابزية وقدرتي على التفاهم بها . عكس ماكنت في فرنسا ، إذكنت عالة على صديقي لا أكاد أستطيع الحركة إلا معه ، فإذا تخلى عنى لم يكن أمامى إلا الحلوس في قهوة ، أو السر في شارع من شوارعها الفسيحة كما يسر الأصم الأبكم ؛ والمسافر من فرنسا إلى إنجلترا يشعر بالفرق الكبر ، حن يطأ أول أرض إنجلزية ، فن ساعة أن يتلقاه الجالون الإنجليز ليحملوا أمتعته ويوصلوه إلى القطار يشعر بالهدوء التام والنظام الشامل وسعر الأعمال فيها كأنها آلة دقيقة منظمة كل جوء منها متسجم مع ما حوله . وأحببت أن أزور الزيف الإنجلزى فرتب صديقاى الأستاذ حافظ وهبه وزير المملكة السمعودية في لندن

والمرحوم الأستاذ أمين حال الدين مدير البحثات في لندن رحلة إلى وبلا في حربة الأستاذ حافظ بسوقها الأستاذ حال الدين ، فكانت رحلة محتمة حرفنا فها الريف الإنجازي ، وكنا نسبر على مهل ، فإذا جاء وقت الغداء تفدينا في مطم في الطريق ، وإذا جاء المساء عثنا عن بيت في الريف لقروى يضيفنا ، وما ذلنا في رحلتنا حتى وصلنا إلى كارنارفون فأتمنا فها أياماً .

وأقمت في إنجلترا نحو أربعين يوماً ، اهتممت فها أن أرى أكثر ما مكن أن أرى ، وأتعرف من أحوالم الاجبَّاعية بقدر ما أستطيع ، ولكن شيئًا واحدًا أسفت له أشد الأسف ، وهو أنى كنت حضرت محتى الذى اعترمت إلقاءه في مؤتمر المستشرقين باللغة العربية ، وقد قيل لي بعد إن لغة الإلقاء لابد أن تكون بالإنجلىرية أو الفرنسية ، فشعلت نفسى وأنا فى لندن بالاستعانة عمرجم إلى الإنجلىزية ، وبكتابة ذلك على الآلة الكاتبة ، فاستغرق منى ذلك مجهوداً كبراً وأضاع على" زمناً كان بجب أن أصرفه في معرفة الحياة الإنجلزية في نواحها المختلفة، والاستمتاع بمناظرها ومباهجها . وأخيراً سافرت إلى ليندن بهولنده حيث ينعقد المؤتمر.

رأينا ليندن وكأنها ديركبير يتعبد فيه رجال العلم ، تموج

بالعلاء والمكاتب وفيها مطبعة بريل الشهيرة الني كان لها الفضل الكبير في طبع كثير من الكتب العربية ، وكنا قد كتبنا إلى سكرتارية الموتمر محجز أمكنة لنا ، فلما رأيناها لم تعجبنا كثيراً لأنها كانت أشيه عساكن الطلبة ، ففضلنا أن نسكن فى لاهاى وننتقل كل يوم إلى ليدن . وكان يصحبني في هذه الرحلة الدكتور إبراهيم بيومي مذكور الذي آنسني بمصاحبته ، وخفف عنى بعض أعبائها ، فجزاه الله خمراً . وانعقد المؤتمر واستمتعنا فيه إلى أمحاث المستشرقين ق الإسلاميات والآدب العربى والهنديات والصيتيات وما إلى ذلك ، وجاء يوم محتى ، وكان موضوعه ﴿ نَشَاهُ المعزلة ﴾ وكان يوماً عسراً ، فلم أعتد في حياتي أن أخطب أو أحاضر باللغة الإنجليزية ، وقد كنت وجهت أكبر اهباى عند تعلمي لها إلى الإجادة في فهم ما أقرأ من كتب والترحمة منها إلى العربية ، لا فى الكتابة بالإنجلىزية ولا بانطلاق اللسان فى الحديث بها ، وكان رئيس اليوم الذي ألقيت فيه محاضرتي هو الأستاذ مرجوليوث ، وقد استأذنته في إلقاء المحاضرة باللغة العربية فألى ، وقال إن أكثر المستمعين لا يفهمون العربية إلا قليلا ، وحبر أن تلقها بالإنجلزية . قالقيُّها في حجل ، لا من الموضوع ولا مما كتبت ، ولكن لأنها أول تجربة لى من هذا النوع ، وما أن انهيت من القائها حتى بلغت ريقي وتنعست الصعداء . ورجعت من هزائده إلى فونسا وأقمت أياماً أخزى فى باريس واستقبلني فها صديق آخر(١) لم يكن عنيفاً كالصديق الأول ، بل كان رفيقاً نى ، وأرانى مائم أكن رأيت ، واستمتعت فيها بالراحة والهدوء والأحلام أكثر مما كثت استمتعت . وأخلت السفينة (٢٦ من مرسيليا إلى مصر فانكسرت في الطريق · واضطرت أن تعرُّج على إيطاليا ، واستغرق إصلاحها أباماً ، . فانتبزت هذه الفرصة لزيارة المدن الإيطالية القريبة كميلانو وجنوه فشاهدت كتائسها الضخمة وأبنيتها الفخمة ومقبرتها الحميلة وفنها البديع ، ثم عنت إلى مصر بعد أن شاهدت مطلم المدنية الحديثة ووقفت على بعض أسرار تقدم هذه الأم ، وكنت في أكثر ما أرى يشتغل ذهني في المقارنة بن الشرق والغرب – أذكر ذلك إذا رأيت الآلات والممانع وتقدمها ، والشوارع والبيوت ونظافتها ، والناس ونظامهم ، والمرأة وأهمية مركزها في الحياة الاجتماعية ، حتى لو نسب الفضل الأكر في المدنية الحديثة لكان أكثره يرجع إِلَى المرأة . فالمرأة التي ترني الآمة وهي التي تعوّد أبناءها النظام والأخلاق ، والمطر هو الذي سبئ الطبيحة ويصوغها صياغة (۱) هو آلدکتور محمد موض محمد .

⁽ ۲) كان اسم للركب فسيوليون

مظهر من مظاهر المدنية ، حتى لو قلت إن مقياس رق الأممال الأممال في أوقات خالفة في أعلم وضيط حواطفهم وهدورهم في أعلمة م وأعجبني في وطالفة فهم . وأجبحني في وطالفة فهم . وأعجبني في إيطاليا فهم . وعلم وطلمهم ، وأعجبني في إيطاليا فهم .

حيلة ويكسو الجبال الصخرية بالأشجار والنبات فيكون من ذلك منظر بديع . وعلى الحملة فالمرأة والمطر من وراءكل

الرحلة فقد اخترات مها كثيراً ، وفى كل مناصبة كتب أستخرج من هذا الفرن ما أسفيد منه مما لم يكن مخطر لى حين الرحلة على بال ، وأهم ما استفدته هو تمكنى من المقارنة بين الشرق والفرب ، فقد كانت رجيلي إلى الفرب معادلة لرحلتي إلى الشرق ، فكنت دائماً أنظر إلى هذا نظرة وإلى ذاك نظرة ، وأستخرج الحكم بعد المقارنة . وكنت قبل ذلك لا أرى إلا لوناً واحداً ، ولا أصم إلا صوباً واحداً . وأمست الاستفادة من هذه الرحلة برحلة أخرى إلى أوروبة نفسها سنة ١٩٣٨ ، فقد اخبارتي الحامنة أيضاً وفرنسا مرة أخرى ، واستعلت ذكريات ماضية ، وأردت أن أستميد جديدًا فلمجت إلى سويسرة وأقست فها أيامًا فنزلت فى مدينة لوسرن ، وركبت مجرتها واستبتعت فها يجال مناظرها الطبيعية الباهرة .

ويوماً ركبت بحيرة لوسرن مع صديقي الدكتور عبد الوهاب عزام ، فأعجبنا منظر قرية على البحدة اسمها كبرسبتن ، نزلناها وتجولنا فيها وصعدنا في مرَّقاتها إلى أعلاها فوجدنا فندقها وبيوتها ، فطفناها وتوغلنا فها ، فرأينا غابات حميلة ورأينا فى ملخل إحدى الغابات بيتأ صغراً لطيفاً زرعت أمامه أشجار التفاح ، فسألنا أصحابه : هل يقبلوننا نزلاء فيه ؟ فقبلوا ونقلناً أمنيتنا من فندق لوسرن إلى هناك ـــ وأقمنا فيه أياماً ننع بمنظر الغابات ومنظر الحبال المزروعة ، والأبقار ترعى في الحقول وكل بقرة تحمل جرماً يناسب حجمها ، فتتكون من أصوات هذه الأجراس موسيتي حيلة تأخذ بلب السامع في "هذا الفضام الواسع والسكون الشامل ، وترى بيت مَلْنُهُ الْأَبْقَارُ فَنْتُمَّى لو تيسر مثل هذه البيوث لفلاحينا في مصر : نظيفة حميلة أضيئت بالكهرباء وفرشت بألواح الخشب ، وحدد لكل بقرة منامها وبجرى ما غرج مها ، فلا ترى فى بيومها إلا نظافة وأناقة . وكتا فى أغسطس ، وكان الحو بارداً كصمم الشتاء في مصر . وعوجنا من سويسرة بعد أن امتلأنا روعد من حملفا وحمة ونشاطًا من طيب هوائها ، وأنجهنا إلى بروكسل حيث المؤتمر ، وقد تعلمت من الدرس الماضي في لندن قاليت ألا أحاضر إلا باللغة العربية ، وكان من خطلي أن أكثر المستمعن مجيلونها ، وكان موضوع عاضرتي

لا أبر حيان الدرحياس وكتابه الإمتاع والمؤاشة ، وقد تمدلت وأنا مال يلت من موضوعي ونن للتي فنجحت . وحدلت لى حادثة طويقة في بروكمل ، الصند ذهبت إلى حلاق لا يعرف كلمة إتحيادية وأنا لا أعرف كلمنة فرنسسية فكان كالم حدثه ، نافذ نسئة قلت ونالا وإذا حدثته بالإمجارية

كل حدثى بالفرنسية قلت 20 وإذا حدثته بالإنجازية قال في Dea وأنا لا ألهم ما يقول ، وهو لايضهم ما أقول ، حتى رأيت آخر الأمر رأسني وليس بها إلا شعر خفيف هما قصير جداً والدنيا برد ، وأنا مضطر عند دخولي قاهة المؤتمر أن أشلع تميتى ، قلا أجد نها شمراً يقاوم برداً ولا يخمل منظراً ، وقصصت القضة على زميل الذكتور طه حسن

به الصدر عبد والله إلى الله المادة المادة المادة الله المادة والا أجد ما شعراً يقاوم برداً ولا المحلم مثلاً على المادة والا المحلم مثلاً المادة الله المادة ا

منها.: ونظر الأستاذ في (الخرايه)

قلم بجذ في زأسه (شعراية)

ورأيت فى هذه الرخلة الناس فى بلجيكا وقرنسا وقد عراهم الذهر نما يرونه من طوالغ الحرب وكثرة الحلميث هنها وكثرة الاستعداد لها . حتى لقد أسرعنا فى العودة خوف أن تقفل الطريق أمامنا .

ولَّمْن كانت الرحَلة الأولى قد أُطلقتنى على جوانب من المدنية الغربية ، فهذه الرحَلة قد نُمْهَا وثبتْها .

(۲1)

أعود بعد الرخلات إلى وصف حياتى العامة والحاصة ، فقد رقيت في كلية الآ داب من مدرس إلى أستاذ مساعد ، قامكني بذلك أن أكون عضواً في مجلس إدارة الكلية ، أتصل فيه بالأساتلة المضرين والفرنسيين والإنجليز والبلجيكيين، وأرى فى كل جلمة كيف تعرض الأدور وكيف ينظر إلمها وكيف تدخل النزعات والأغراض في تكوين الآراء . لَقُد تعلمت أنَّ المتطلق آخر أدوات الحسكم على الأشياء ؛ وأن النزعات والأغراض والبواعث هي الَّني تتحكم في المنطق لا التي محكمها المنطق ، فليس المنطق ما عرفنا تعريفه ، من أنه آلة تنصم الذهن عن الحطأ في الحكم ، ولكن هو القدرة على تىرير البوَّاعث والنزعاث والأغراضُ لتتخذ شكلا معلولًا، وكان المحلس كبرج بابل يتكلم متكلم بالعربية وآخر بالفرنسية وثاث بالإنجلزية ، وإذا حرب الأمر ترجمت كل ثفة إلى المائد الأخرى ، وأحياناً في الأمور العامة تلعب السياسة لمعها نمن والممتور ، فالفرنسيون بثلا يرينون أن يسيطروا على القلمة ، والإنجلز يرينون أن يتلخوا فيه وأن يسيطروا على الكلية بواسطة عميدها ، وأكبر ما يتجلى هلما عند خلو كرسي من كراسي الأسائلة أو عند خلو مكان فلمسد .

وقد صاحبت التطور الذي حدث ، من تحول عدد الأساتلة المصريين من قلة إلى كثرة ، ومن قلة ما بأيدهم من توجمات إلى أن ملكوا زمام الأمور في الكلية بتعيين عميد مصرى لها ، وحاصرت الصراع الشديد بين محاولة الحكومة التدخل في شأن الحامعة أحياناً ، ومحاولة الحامعة المحافظة على استقلالها ، وأكبّر حادثة من هذا القبيل هي حادثة نقل اللهٰكتور طه حسين من كلية الآداب إلى وظيفة في وزارة المعارف من ضر أخذ رأى الكلية ولا إدارة الجامعة واستقالة الله كتور طه وإضراب الطلبة عن الدروس ، وانقسام الأساتذة إلى قسمين قسم مسالم وقسم مناهض وكنت إذ ذاك من المناهضين ، وأوذيت في ذلك كثيرًا حتى فكر في نقلي من الحامعة .

وحدث ـــ وأنا أستاذ بمساعد ـــ أن منعت من أن أكون

أستاذًا لعدم حصولى على الدكتوراه أنا وبعض زملائي ،وإن كان القانونُ يسمح أن يُروَقَّى الأستاذ المساعد في اللغة العربية يكلية الآداب والشريعة الإسلامية بكلية الحقوق إلى أستاذ من غير دكتوراه ، فواجهت المسألة بروح رياضية ،وقدُّمت طلبًا لنيل الدكتوراه بالدخول في الامتحان ، على النظام الذي يتبع مع الطلبة في الحصول علمها ، وقدمت لذلك كتاب فجر الإسلام وضحى الإسلام كرسالة للمناقشة ءواعترض إذ ذاك بأن الأسائلة بالكلية قد محابونني لأنني أحدهم ، فاقترحت أن يكون أكثر المتحنن من الأساتلة الأجانب المستشرقين، **فصم وزير المعارف إذ ذاك على رفض هذا الطلب ، وكان** هذا أيضاً تلخلا في شتون الحاسمة لاميرر له ، فلم يتم امتحاني .

وشعر بعض إخوانى من أساتلة الحامة وأعضاء لحنة التأليف بعدم عدالة هذا التصرف، فأقدوا حقلة تكرم لى، وكان ذلك سنة ١٩٧٥ ، والبهزوا فرصة مرور عشرين سنة على لحنة التأليف والترمة والنخر ورياسى لها طوال هذه الملدة، فسألهم العدول فلم يقبلوا، وسألهم أن تكون الحفلة صامنة فلم يقبلوا أيضاً ، وأقاموا بالفطل حقلة ضحفة دعوا إلها أعضاء خلت التأليف وكبار رجال المعارف وكبار رجال المناسة من خطف التحديد جيمس،

وقسموها إلى مواثد ، وعلى كل مائدة رئيس من علية القوم ، فمائدة يرأسها مدير الحامعة أحمد لطني السيد ، وأحرى المرحوم أحمد ماهر ، وثالثة المرحوم الدكتور على إبراهيم ، ورابغة المرحوم إبراهيم الهلباوى،وخاسمة المرحوم عبد العزيز فهمي ، وسادسة المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغي... الخ ، وخطب فى الحفل الشيخ محمد مصطفى المراغى، والأستاذ أحمد لطغي السيد ، والمستشرق الكبىر نالينو ، وقد افتتح خطبته بقوله (إن عند الرومانيين قولة مشهورة : أنه محق لكل إنسان أن بجن مرة ، وأريد أن أجن هذه المرة فأخطبكم باللغة العربية ، ، كما كان من الخطباء الدكتور عبد الوهاب عزام . والدكتور عبد السلام الكردانى والأستاذ محمد كرد على ، ورددت عليم آخر الأمر خجولا متواضعاً شاكراً . ومما قاله الدكتور على إبراهيم في هذه الحفلة : إنه لو استطاع أحد أن ينظم مثل هذا الاحتفال ومجمع روساء الأحزاب السياسية ، كا حموا في هذا الحفل ، ويولُّف بيهم في موضوعات الحلاف كما ألف بينهم اليوم لكان هذا نجاحاً سياسياً باهراً . وقد أثرت هذه الحفلة في نفسي أكبر الأثر ، واغتبطتها أكبر الاغتباط، وعددتها مكافأة أكبر من نجاحي في الدكتوراه .

ولكن لايصفوالزّمانحي يكنر، ولايتُحسن حتى يسىء، فعقب هذا الحفل بأيام شعرت مخمود شديد فى جسى، أصبت بالبول السكرى، وأثر مي الصوء عن الأكل الله أقل المبارة الله أقل المبارة الله الله الله عنه السير بعد ذلك على نظام في الأكل دقيق تتجب عنه الشويات والسكريات ، ومن ذلك الحمين دخل على الآن من عشر عشرة منة ، أحاوره وعاورني ، ويصادتني أحيانا ويعاديني ، وأمتنع من أجله عما أشهى ، وأتجب الحهد الشاق على هر رغبي ، وأحيانا يرسي بالأفكار الحزينة وأثوان الحياة القاقة من وأحدا الله إذ لم يكن من الشلة كما هو عند خيرى .

وانقباض في صدرى ، فيرضت نفسي على الطبيب يقرر أنى

وبعد ذلك أويد أن يمنح غيرى الأستاذية من غير دكتوراه ، وأحرم أنا لمواقق السابقة في الهانفلة على استقلال المفاصة ، فطلبت أن توالف لحنة لبحث موافقاتي ، فاختبرت فللك لحقة من الأستاذين المستشرقين اللتكور شاده والأستاذ البرجيد أسم ، فقر أن مجال ووقالا : إن عيبي البرجيد في تأليف علمين الكتابين مع وأن هناك عبوثا في بعض الوحيد في تأليف علمين الكتابين هم أن هناك عبوثا في بعض موضوعات الكتابين عرض لها بعض الأساتلة الألمان ، ولا اطلع طبها المؤليلة بلتي علمها ولم يتب نفسه في عث أساسها ؛ ولكن وزارة المهارف أخضت هنا التغرير لأنه غمالشها كانت تأمل ، فطلبت من العميد أن يطلب القرير من الوزارة ، فاطلت ، ثم يعتنه وعطلت أثره فى عجلس الحاسمة ، ولم أحصل على الأستاذية إلا بعد عناء وبعد أن هدأت النفوس وبعد أن تدست استقالتي لأنى لم أعامل معاملة زملائي .

ووقع على الاختيار لأكون ممثلا لكلية الآداب في مجلس الحامعة ، فاستمررت على ذلك نحو عشر سنين ، وقد مهد لى ذلك السبيل إلى سعة اختباري وكثرة تجارى ؛ فجلس الحامعة يتكون من عمداء الكليات وبعض كبار الأساتلة من كُل كلية ومن وكيل وزارة المالية ووكيل وزارة المعارف وبعضكبار البلد يعينون لحسرتهم العلمية ، من روَّساء الوزارة أو وزراء سابقين ، أو نحو ذلك ، فكان هذا المحلس عمثل أعقل مجلس عصر ، شاهدت فيه العقليات المصرية الكبيرة كيف تتصرف في الأمور ، وكيف تتكوَّن لدمها الآراء ، والعوامل التي تعمل في اتجاهاتها وتكوينها ، وكيف يتناقشون وكيف محتجون . والحق أنه كان يستولى على الوهم أن الرجل إذا كان ذا منصب كبىر فى الماضى أو الحاضر فلْلك عنوان عبقرية ودليل نبوغه ، وأن له من الآراء ما يفوق كل رأى، ومن الأفكار ما يتضاءل أمامها كل فكر ، فزال هذا الوهم بهذا المجلس ، ورأيت هولاء الكبراء يفكرون كما يفكر الناس وعطلون كما عطئ الناس ، وتتغلب علم الأهواء - أحياناً - كما تتغلب على سائر الناس . وكان من تجاري أن رأيت أكثر الناس يسرون مع العظاء في آرائهم وأفكارهم ولواعتقدوا بطلانها . ولكن إذا تشجع أحد ودافع عن الحق وجهر به وصم عليه تبعه هولاء وانفسوا إلى جانيه ضد العظاء ، فليس عندم من الشجاعة ما يبدأون به قول الحق، ولكن ليس عندهم أيضاً من السفالة ما يناهضون به قائل الحق،

ولقد شعرت في هذا المحلس بفضل وعاطف بركات. وما علمتيه من قول الحق ولو كان مرًّا ، والانتصار له ولو أوذيت في سبيله . وحدثت-حادثة في أول انتخابي لمحلسر الحامعة كانت محك الاختبار ، فإما سىر مع التيار حقاً كان أو باطلا، وإما النزام للحق مهما استتبعمن الضرو.، وصدق الحديث : و إنما الصر عند الصدمة الأولى ، . فقد أعلن عن كرسي لأستاذ القانون الروماني فيكلية الحقوق . فتقدم إليه يعض العلماء أفضلهم أستاذ إيطالي وأستاذ فرنسي . قرأنا المؤهلات ففضلنا الأستاذ الإيطالى٢١٧لعظم موالفاته العالمية ف الموضوع ، وقضلت وزارة المعارف أو بعبارة أدق – وزير المفارف (٣) _ الأستاذ الفرنسي لاعتبارات نجهلها ، ولم يكن

⁽¹⁾ هو الأستاذ رويير .

⁽٧) كان وزيرُ المفارقُ إِنْدُ ذَاكَ المرحومُ تُمرَادُ بِاشَا سِيدُ أَحْدَ .

معينا وزير المعارف ، ولكن كان وكيله^(١) عضواً في المحلس يتكلم برأيه ويدلفع بفصاحة وقوة عن اتجاهه . فوقفت مع اثنبن من زملائى مجانب الأستاذ الإيطالي ، وشغل الموضوع . يجلس الحامعة عدة جلسات ، كلما أقحمناهم بالحجيج أجلوا الموضوع لإهداد حجج أخرى ، وأخبراً بعث إلى وزير المعارف فقابلته وكلمني فىموضوع آخر ليس هو الغرض من الدعوة ، فلما استأذنت في الانصراف قال : إنه بلغه أني أعارض أشد المعارضة فى تعيين الأستاذ الفرنسى ، وأن هناك اعتبارات تجعله أليق وأنسب ، فقلت أظن أن معالى الوزير يسره أن يرى رجاله يدافعون عما يجتقدون أنه الحق ، وأنهم يتحدثون بما في ضائرهم وكما يتجلي الحق أمام أعيهم . وسلمت عليه وانصرفت ، وأخراً تقرر في مجلس الحامعة تعين الأستاذ الإيطالي ، فكان هذا نجاحاً باهراً شيجعي على المضيّ في هذا الطريق ، وأشهد الله أني النزمته في كل ما عرض ، وأنى اتخلت المسائل المعروضة كالقضايا التيكانت تعرض على إذكنت قاضياً ، أنظر إلها وأدرسها وأسمع حجج المتخاصيمين فيها ، وأحكم حكماً موضوعياً لاشأن فيه لعواطني ومشاعرى ما أمكنني .

⁽١) كان الوكمل هو المرحوم عبد الفتاج باشا صبري .

وقد استفدت من هذا الحلس تجربة أخرى ، وهي أن كثيراً من الناس يتضايقون من المعارض وقد عاولون إيدامه والتنكيل به ، ولكنهم إذا تيشنرا أنه إنما يدافع عما يعتقد ، وأنه إذا دافع دافع بأدب ، وفي لياقة ولياقة ، من غير أن عس شعورهم وكرامهم كان موضع الاحترام والإجلال والكرامة من مؤيديه وخصومه معاً .

من موبلدیه وخصومه مماً. وکثیراً ماکانت تعرض مسائل شانکه ، فأنف فیها ... مع بعض اخوانی ... نفس الموقف ، مجتمع الحلس ... مثلا ... فیقرر فصل طلبة الآمم مشاغیرن ، ومن حزب غیر حزب

رار حسين حب المجم مستعيون الحكوم ومن طوب عيو هوب الحكومة ، فإذا جاء حرّبم وتولى الحكم عرض على المجلس الرجاعهم والعقو عهم فرحيون، فكنت شاييد المعاوضة لهذا التصرف نما ينفضب هولاء وهولاء . ومرة أوعر إلنا تعتبر درجان ذكن اله فحد نه لعض.

التصرف نما يغضب هولاه وهؤلاه. ومرة أوعز إلينا عنع درجات ذكتوراه فخرية لبعض الأجانب الأرربين وم في الحارج ، وكان إيمازاً قوياً ، ولم أثين أنا وبعض زملائي وجه الحق في هذا المنح ،فوقفنا نعارض في منحهم هذه الدرجات ، وأخذ القرار عنحهم

نعارض فى منحهم هذه الدرجات ، وأخذ القرار عنحهم يالأغلية ، ولكنى غشب عل غضبة شديدة . وفُكّر فى إخراجى من مجلس الحاسمة بل من الحاسمة كالها ، ثم لاأدرى ماذا حدث حتى التهت المئالة بسلام . ولا أنسى مرة قرر مجلس الحاسمة إرسال خطاب فكر

(11)

اللغني بإنبا السيد عقب أن ترك مجلس الحامة ، ولكن الحكومة كانت غاضبة عليه ، فلم يرُسل الحطاب إليه ، ثم تبدلت الحكومة ، وجاءت حكومة أخرى موثيدة للطني باشا ، فأرسل الحطاب ، فوقفت فى الهلس وبدى ترتمش وصوفى يتهدج ، ألوم القائمين بالأمر على ملما التصرف ، وأستحث الأصفاء على أحترام كلمتهم والحرص على تنفيذ ترائم ، وهكلا وهكذا ، فكانت كل جلسة درساً مفيلاً وأحياناً درساً قاسياً .

وقابلني مرة الأستاذ مكى الناصرى ، المغربي المراكشي وأخيرق أن المنطقة الخليفية وعاصمها تطوان قد رأت من الحير أن ترسل بعثة إلى مصر من الطلبة المغاربة المراكشيين وأنه يريد مني الإشراف علها وأنه يُسيد المشروع كل شهر بما ينزمه فقبلت .

واستأجرنا مكاناً لبعثة الطلبة وكانوا نحو عشرين بعضهم يتطر فى كلية الآداب وبعضهم فى دار العلوم ، ويعضهم فى مدارس صناعية ورتبت لم معيشهم فى البيت ومن يشرف عليهم ، ومن يشرف على حسيهم ، وأجرت لهم نادياً للاجناع والإلقاء المحاضرات المناسبة ووبهلت المشروع بلبجنة التأليف ، فنشرت كتاكثرة على حساب بيت المغرفي هلما : مثل وأكثر أجزاء أزهار الرياض ، القاضي عياض ، وترجمة كتاب والحضارة الإسلامية المؤسناة منز وكتاب في البضة الفرية وأسمها ، وأزمعت إخراج أطلس جغرافي يشمل بلاد المغرب حميمها ، ورجوت المختصين في هذا الموضوع أن يقوموا به . ولم يمتم من إخراجه إلا قيام الحرب العالمية ، وغلاء الورق ؛ والعلم . وأخيراً حارب المشروع دولتا إسبانيا وفرنسا . فقضيا عليه . فكان هذا أيضاً مما استغد مجهوداً كبيراً من .

وفى أول أبريل سنة ١٩٣٩ كان قد خلا مركز عميد كلية الآداب بعد أن تولاه من المصريين الدكتور طه حسين والدكتور منصور فهمي والأستاذ شفيق بك غربال . ونظام الحامعة يقضى بأن مجلس الكلية يختار ثلاثة من بين الأساتذة يعيِّن أحدهم وزير المعارف ، فاختبر ثلاثة وكنت أكترهم أصواتا فعينني المرحوم محمود فهمى النقراشيباشا عميداً ، وقد عجبت أنا نفسي من هذا الاختيار ، فأنا رجل دخيل على الحامعة بحكم تربيني الأزهرية الأولى وتربيني شبه الأزهرية في مدرسة القضاء ، وأنا رجل لم أتعلم في جامعة مصرية ولا أجنبية ، وأنا رجل لم يتعلم لغة أجنبية إلا ما تعملته من اللغة الإنجلىزية بعناء وبقدر محدود ، فكيف أختار لهذا المنصب وأرأس الأساتلة الأجانب والأساتلة المصرين ممن تعلموا في الحامعات الأوروبية ونحو ذلك ؟ الحق أني أكبرت

هذا كله وشعرت بالمشواية الكبرى الملقاة على عانتي ، ولكني تذكرت قول المرحوم الشيخ محمد عبده : د إن الرجل الصغير يستعبده المنصب ، والرجل الكبير يستعبد المنصب ، أوما معناه ذلك .

ها أنذا في عمادة كلية الآداب ، قد شغل وقبي كله بأعمال إدارية أكثرها لا قيمة له ، فكل الأوراق تعرض على حتى شراء مكنسة ، وكل أعمال الطلبة والأساندة تعرض على حتى الكلمة النابية يلفظها طالب ، إلى شكاوى الطلبة وَمَا أَكْثُرُهَا 1 وترَّاحِ المدرسين والأساتلة على العلاوات والدرجات وتسوية الحالات وما أصمها ! فكان هذا يشغل وقتى ، حتى لا أستِطيع أن أفرغ للعلم إلا قليلا ، ولا أن أفرغ للنظر فى المسائل الأساسية كمناهج التعليم وطرق النوبية إلا بقدر ، وهذه عدوى من نظام الحكم في مصر حيث تتركز الأعمال كلها في يد رئيس المصلحة ، وماكان أحرى الحامعة أن تتخلى عن ذلك ، وتوزع الاختصاص ويتفرغ العميد للمسائل المهمة ، ولكن أنتَّى لنا ذلك !

مكنت على هذه الخال سنين وأنا آسف على ضياع وثى ووقوف عملى العلمى ، فلم أولف فى هذه الفرة كتاباً ، ولم أتم بحثًا ، وأنا ضيق الصدر بكثرة الطلبات والشكايات

والعلاوات والدرجات ، ولكن أحمد الله إذ لم أكن أقل شأنا من غبرى فى إدارة الكلية بشهادة غبرى . وكانت مدة العادة ثلاث سنوات حسب القانون ، ولكن حدث بعد سنتبن أن اختلفت وجهة نظرى مع وجهة نظير وزير المعارف إذ ذاك ، فتصرف في أمر هام من أمورالكلية من غبر أخذ رأني ، فاعترضت على ذلك فاعتذر ، وتكرر: هذا الأمر ثانية فكان شأنه كذلك ، ثم قرأت في الجزائب أن عدداً كبراً من مدرسي كلية الآداب وأساتنسا صدر قرار بنقلهم للى الإسكندرية من غير أن يكون لى علم بشيء من ذلك ، فقدمت استقائى من العادة وصمت عليها فَقِبُلَتُ ، وحملت الله أن تحررت منها ورجعت أستاذًا كما كنت ، ويدألت أتمم سلسلة فبجر الإسلام وضحئ الإسلام على النحو الذي رسمَت ، فأخرجت الحزء الأول من ظهر الإسلام.

وشاعت مرة شائعة بعد تغير الوزارة أنى سأعود عميداً. وسألنى صحفى عن ذلك فقلت : 1 إنى أصغر من أستاذ وأكبر من عميد 1.

وحاولت أثناء عمادتى أن أحقق ثلاث مسائل لم أنجح فهاكتراً.

الأولى تنظيم الحياة الاجهاعية في الكلية ، فقد رأيت

غير أن يكون هناك حياة اجماعية ترفه من الطلبة وتوثق الصلة بينهم وبين أساتذيهم وتقال من إضرابهم ، فانجهت إلى نادى الكلية أجهزة بمختلف الوسائل ليكون أداة صالحة لتتظيم الحياة الاجماعية ، وعهدت إلى بعض الأساتذة بمن تعلموا في جامعات أوروبة أن محاضروا الطلبة عاضرات عامة في نظر الحامعات الآلائية والفرنسية والإنجلزية ، وخاصة

أنز الحياة فيها مقتصرة على دروس تلتى ودروس تسمع من

والثانية : أنى حاولت تحسين العلاقة بين الطلبة والأساتلة من ناسية الإشراف الحلمي ، فأردت أن أخصص كل أستاذ لعدد من الطلبة يشرف عليهم إشرافاً أبوياً ، يفضون إليه يمشاكلهم المالية والتنسية والاجهاعية ، ويحاول هو علاجها ويعينهم على ذلك من الناسية المالية بمال الاتحاد .

فى نظم الحياة الاجباعية ونحو ذلك .

ويعبهم على ذلك من الناحية المائية عال الاتحاد .
والثالثة : عاوية الطريقة التي يتبعها كثير من الأساتلة من قلبم الهاضرات إلى دروس إملاء ، فهم بملون على الطلبة ما حشروا ، أو يوزعون عليم مذكرات مختصرة ، وكنت أرى في هذا إلمائية الروح العملية الحامية ، وإنحسا المهيج الصحيح إرشاد الطلبة إلى مراجع الدرس ثم إلقاء الأستاذ الحاضرة وتقييد الطلبة بأنضهم لأتضهم التقط الهامة مما فهموا واعيادهم على أنضهم في ذلك .

هذا وقد ترددت طويلا في كتابة هذه الفصول الأخبرة لأن فها لوناً من ألوان التقريظ النفسى ، وهو لون لا أحيه وقد لا يحبه القارئ ، ولكنى فضلت أن أفوله لأنه – على الأقل – يصور القارئ مقبدتى فى نفسى .

وأثناء عمادتى وقع الاختيار على لأكون عضوا بمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى صهد وزارة اللكتور محمد حسن ميكل فساحت في العماد في

وکانت مأساة العیادة أنی فقلت جا صداقة صدیق من أعز الأصدفاء وما أقل عددم . کان محینی وأحیه ، ویقدرنی وأقدره ، ویطلمنی علی أخص أمراره وأطلمه ، وأعرف حرکاته وسکنانه ویعرفها حنی ، ویشارکنی فی سروری وأحرانی وأشارکه ، وکنت هواه وکان هوای ، واستفامت من مصادقته كثيراً من معارفه وفنه ووجهات نظره ، سواء وافقته أوخالفته ، فأصبح يكوّن جزءًا من نفسي وبملأ جانبا من تفکری ومشاعری ؛ علی اختلاف ما بیننا من مزاج ، فهو أقرب إلى المثالية وأنا أقرب إلى الواقعية ، وهو فنان عجكه الفن وأنا عالم يحكمه المنطق ، وهو عب المحد رعب الدوى ، وأنا أحب الاختفاء وأحب الهدوء ، وهومغال إذا أحب أو كبره . وأنا معتدل إذا أحبيت أو كرهت ، وهو نشيط في الحكم على الأشخاص وعلى الأشياء وأنا بطيء ، وهو عنیف إذا صادق أو عادی ، وأنا هادئ إذا صادقت أو عاديت ، وهو واسع النفس أمام الأحداث ، وأنا قلق مضطرب غضوب ضيق النفس يها ، وهو ماهر في الحديث فلا أجتلب إلا القليل ، وهو في الحياة مقامر يكسب الكثير ف لعبة ونخسره فى لعبة ، وأنا تاجر إن كسبت كسبت قليلا فى بطء وإن خسرت خسرت قليلا فى بطء ، بحب السياسة لأنها ميدان المقامرة وأنا لا أحمها إذ لا أحب المغامرة ؛ ولعل هذا الحلاف بينيًا في المزاج هو الذي ألف بيننا ، فأشعره أنه يكمل بى نقيصه وأشعرني أنى أكمل به نقصى ، جاءت العادة. مفسدة لهذه الصداقة ، لأنه - يحكم طبيعته - أزاد أن يسيطر، وأنا محكم طبيعتي أردت أن أعمل ما أرى لأنى مستول مما أعمل ، ثم ولى منصبا أكبر من منصبي يستطيع منه أن يسيطر على عمل ، فأراد السيطرة وأبيتها ، وأراد أن يحتق نفسه بأن ينال من نفسي فأبيت إلا أن أحفظ بنفسي ، فكان من ذلك كله صراع أصبيت منه الصداقة ، فمعزن لما أصابها وحزنت ، وبكي علها وبكيت .

4.

ومانت أمى وأنا أستاذ بكلة الآداب سنة ۱۹۳۳ وقد ناهزّت التمانين ، وكانت من أسرة من و تلاء بالمنرفية انتقلت إلى القاهرة لأسباب لا أدرسا ، واشتغل رجلفا بالتجارة ، فكان خالاى تاجرى وعطارة ، فى الفورية

دخان خالای تاجری د عطارة ، ق الفررید .
وکانت أی طبیة القلب أقرب إلى السلاجة ، وکانت عبویة
کاکبر نساء وقیا – أمیة لائقرأ ولائکتب ، وکانت عبویة
من أمل حاربا قطیب قلبا ، وکنت شنید الحب ها
والاشفاق علیا ، لاتها تلکت کثیراً فی حیابا ، فقد مات.
تلالة من أولادها وهم فی شبایم ، وعاملها أن معاملة شدیدة
قاسیة ، سلها کل سلطها وکبت شخصیها وحرمها دائرة
نفوذها ، وطنی بضخصیته علی شخصیها ، فشاشت کسرة
القلب منتبشة الخسی ، لا عملها على البقاء فی البیت إلا حها

لأولادها ، فكانت تحتمل ذلك كله وتطيل الاحيال ، وتصبر وتطيل الصبر ، وتحن علينا ، وإذا غضب علينا أبونا احتبينا يحنوها وأنسنا يعطفها يحنوها وأنسنا يعطفها

ولهذا لما كان لى من الأمرشىء جهلت أن أربحها وأسمدها وأقضى بعض دينها ، وكم كنت أتمنى أن تعيش معى بعد وفاة أني لأطالع وجهها وأتلى دهوائها صباح مساء ، ولكن صممت أن تكون فى حها بين جرائها ، وخشيت أن ينالها أذى ولو قبل من العالماء الطبيعى بين الروجة والأم ، خجارتها على رائها وخضمت المورتها .

فقدتها وأناكبر ولى زوجة وأولاد ، ومع هذا أحسست يفقدها فراغاً لم تملأه شيء ، وبذلت جهدى في إراحها ، حتى لما هرمت كنت لا أسريح إلى سفرى إلى الإسكندرية للتصبيف إلا إذا كانت معي ، أستبشر كل يوم بروينها والحلوس إلها ، ومع هذا لا أرى أني قضيت لها يعض دينها ، وكأنت تبشرني من صغرى بأني سأكون أسعد أولادها ، لأنها رأت ليلة في منامها أني كنت بجانبها أسر معها ، فلحلنا بيتاً فتح لنا فيه كنز ، وإذا غرف مملوءة خهاً ، فأمرتنى أن أملاً حجرى منه على عجل ، فقال لما الملك الموكل بالكنز : لا تعجل فكل هذا لابنك هذا ، خفرحت بهذا الحلم واعتقدت صحته واستبشرت به ، وصارت تعيده على فكل مناسبة وفي حميع أدوار عمرى إلى أن ماتت.

سفية اليد على قلة ما تملك ، لا تعبأ بالمال إلا ما يضمن معيشها ، فلم ركنت إلى ووثقت بى تنازلت عن مالها الأولادها . لم أسمع مهما يوماً تفكراً فى تدبير مال ، ولا شكوى جال ، ولاحسناً لفى ولا اعتراضاً على قدر ، شأتها فى ذلك شأن أخوال ، فليس مهم إلا من عاش عيشة طبة وكسب كثراً ومات فقراً .

ساذجة فى تفكرها وفى حديثها وفى تصرفها وفى تصديق كل ما يقال لها .

فإن كان لى شيء من عناد وقوة إرادة وجلد على العمل وصد على الدرس وسرعة غضب وميل إلى الحزن وكثرة تفكر فى العواقب ، فللككله من ألى رحمه الله .

وإن كان فى شىء من سلابة وعدم حرص على الل وحزن على أنى وين وحسن ظن بالناس فيا يقولون ويفعلون وتدم على غضب وسرعة تحول من غضب إلى هدوء ومن مشا الدرد إلى خالة كادر أنى رحد الله هدوء ومن

صحط إلى رضا ، فذلك كله من أمى ، رحمها الله . وهل نحن إلا صور جديدة لآ بالتا ، يعيشون فينا ، وتحلون في جسومنا ونفوسنا ؟

(*1)

تركت العادة وعدت أستاذاً وخلت يدى من كل سلطة

إدارية ، وأتتوزارة لا تعدى من رجالها ، فلم يكن لى شأن فى علاوات وترقيات ، وليس لى قبول فى شفاعات . وإذ ذلك سفرت لى وجوء قبيحة من إنكار الحميل وقلة الوفاء .

هذا كان صديقي يوم كنت أستطيع نفعه ، فلما سيت من هذه القدرة تلمس الوسائل ليكون عدوى ، فإن لم بجد أسبابا اختلقها ، وإن لم بجد فرصة لإظهار هذه الخصومة تعمد إيجادها ، وهولاء الذين كانوا يهافتون على إقامة خلات تكريم لى يوم التخب عيداً ، فأرفضها وأرفضها ، لم يفكروا في إقامة حفلة وداع يوم تركت العادة .

لم يفكروا في إقافة حفاة وداع يوم تركت العادة.
وهده الطيفونات التي كانت تدى كل حدن السوال عن
صحى ، وطلب موحد لزيارتى ، لإظهار الدوق أولا ،
والاطمئنان على صحى ثانياً ، والرجاء في قضاء مسألة ثانياً ،
لم تعد تدق إلا للأعمال الضرورية التي ليس مها سوال عن
صحة ، ولا إعلان أشراق.

وهذا صندوق البريد الذي كان يمثلء بالحطابات المملومة] بالطلبات والرجاوات أصبح فارغاً إلا من خطابات عائلية أو مسائل مصلحية .

وهذه أيام الأعياد الى كان يموج فيها البيت بالزائرين من الصباح إلى المساء مهنتون بالعيد ، أصبحت كسائر الأيام، أجلس فيها على المكتب فأقرأ وأكتب ، ولا سائل ولا عجيب . معاد مصدة الناس لـ أكد حديدة ما "، فقد قـ أن مثاما

وهذه صورة للناس لم تكن جديدة على" ، فقد قرأت مثلها نى الكتب كثيراً ، وسمعت عنها فىالأحاديث كثيراً ،وشاهلسها في غبرى كثيراً ، ولكن لعل أسوأها أثراً في نفسي ما شاهدته من قلة الوفاء في بعض طلبتي ، فقد كنت أعتقد أن الرابطة العلمية فوق كل الروابط ، وأن حق الأستاذية فوق كل الحقوق . أما أن طالباً مخرج على أستاذه ومخاصمه ، ويقدح فيه بالكذب والأباطيل فشيء لم أكن رَّأيته ، فلما رأيته استعظمته ، وحرٌّ في نفسي وبلغ أثره أعماق قلبي ــــلم أعد بعد ذلك أثق بالناس كماكنت أثنى ، ولا أركن إلهم كماكنت أركن ، فكانت إذا حدثت فصول من هذا القبيل تكسرت النصال على النصال:

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأثام وعدت إلى الكتاب فهو أونى وفي وخدر صديق .

ها أنا أعود إلى كتبي ومكتبي ، وأبدًا في إعداد الجزء الأول من ظهر الإسلام ، والاشتراك في نشر كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوسيدى ، وأضع ــ مع الأستاذ زكى نجيب - خطة في وضع كتاب قصة العلمةة اليونانية ثم قصة الفلسفة الحديثة في جزأين ثم قصة الأدب في العالم في أربعة أجزاء ، وأشارك في تأليفها وإنجازها ، وأجد
بعد ذلك من الفراغ ما يمكنى من الاشتراك في الجالس
السلمية والإشراف على أعمال لحنة الثاليث والعرجة والنشر
ونحو ذلك _ خياة علمية هادته للذلية ، لا خصدمة فية
ولا رجاء فيها ولا أخد ولا رد فها . وهما هو ما يتثن
ومزاجى ، فأنا لا أحب الحاه بالقدر الذي مجملني أتحمل
متاحب المتحب الإداري وما فيسه من ضباع وقت
واضطراب بال .

قدكان مجانب عملي العلمي في البحث والتأليف والنشر أن اتجهت اتجاها أدبياً كان امتداداً لما بدأت به في الأيام الأولى من حياتي يوم اشتركت في تحرير جريدة السفور . في سنة (١٩٣٣) فكر الأستاذ أحد حسن الزيات في أن يشتر كمع بعض أصدقاته من لحنة التأليف في إخراج مجلة الرسالة ، وكنت أحدهم ، فكنتُ أكتب في كل أسبوع ــ تقريباً ــ مقالة ، وكان لَملة عملا أدبياً بلذ نفسي عبانب عنى العلمي ، فأنا كل أسبوع أفكر في موضوع مقال وأحرره ، واضطرني ذلك إلىقرامة كثير من الكتب الإنجلزية أستعرض فها ما يكتب وكيف يكتب ، وأعتمد أكثر ما أعتمد على وحى قلبي أو إعمال عقلي أو ترحمة مشاعري ، وكانت مقالاتي تتوزعها هلم العوامل الثلاثة .

وأكثر ما اتجهت في هذه المقالات إلى نوع من الأدب

تغلب عليه الصبغة الاجباعية والنزعة الإصلاحية ، فهذا أقرب أنواع الأدب إلى نفسى وأصدقها فى التعبر عنى . وخبر الأدبماكان صادقاً يعبر عما في النفس من غيرتقليد ، ويترجم عما جربه الكاتب في الحياة من غبر تلفيق . ولقد إطمأنت إلى هذا النوع من الكتابة، إذ كان يفتح عيني للملاحظة والتجربة ، ويسرِّى عن نفسى بالإفراج عما اختزنته من حرارة . فكنت أشعر بعدكتابة المقالة كما يشعر المحزون دمعت عينه أوالمسرور ضحكت سنَّه . وكنت أحسُّ كأن نحلة تطن في أذني لا تنقطع حتى أكتب ما بجيش في صدري ، فإذا استولى موضوع المقالة على ذهنى فهو تفكىرى إذا أكلت أو شربت ، وحلمي إذا نمت ؛ وعمل لا وعبي الباطن إذا شغلت . ولهذا انقلبت هذه الظاهرة إلى عادة ، ومن عادة إلى (كيف) متسلطن كما يشعر منمن النخان أومنعن الخمر.

ر فين منطقان ما يتحر منهن العدان او منهن احمر. ولى تجربة فى ملما الباب ؟, وهى أنى إذا عملت إلى إعداد يمث علمى كفصل من فصول فجر الإسلام أرضسى الإسلام فأناكل " وقت صالح بلما العمل ما لم أكن مريضاً ؟ أما في المثالات الأدبية فلست صالحا فى كل وقت ، بل لابد أن تهيج عواطنى بعض الهاج ، وتهتر تفسى بعض الاحتراز، وأسجل مع المرضوع كل الانسجام ، فإذا لم تيسر فى كل هذه المظروف كنت كن عجع من بثر أو ينحت من صفر .وأحياناً أرى القالم يجرى فى الموضوع حيى لا أستطيع أن أقفه ، وأحياناً يسر في بَطء وعلى مهل حَتِّي لا أستطيع أن أستعجله ، وأحياناً يتعتر فلا أجد بدأ منَّ الإعراض عن الكتابة . ومن الصعب تعليل ذلك ، فقد يكون سببه صلاحية المزاج وسوءه ، وقد يكون قوة الدواعي وضعفها ، وقد يكون الاستعداد للتجلي وعدمه . واعتدت منذ أول عهدى بالقلم أن أقصد إلى تجويد المعنى أكثر مما أقصد إلى تجويد اللفظ ، وإلى توليد المعانى أكثر من تزويق الألفاظ ، حَى كثيراً ما تحتل (ضائرى) فأعيد الضمر على مؤثث مذكراً وعلى مذكر مؤتثاً ، لأنى غارق في المعنى غير ملتفت إلى الألفاظ ، ولا أتدارك ذلك إلا عند التصحيح ، وقد يفوتني ذلك أيضاً . ولتقديري للمعنى أميل إلى تبسيطه ، حتى لأسرف أحياناً في إيضاحه ، لشغني بوصوله إلى القارئ بيتاً ولو ضحيت في ذلك بشيء من البلاغة .

وقد تعودت من الأدب الإنجلزى الدخول على الموضوع من غير مقدمة ، وإيضاح المعنى من غير تكلف ، والتقريب ــ ما أمكن ــ بين ما يكتبه الكاتب وما يتكلمه المتكلم ، وصدم التقدير للمقال الأجوف الذي يون كالطبل ثم لا شئ « فراء . ومن حبى للإيضاح أفضل القنظ ولو عامياً على القنظ ولو فصيحاً إذا وجدت العامي أوضح في الدلالة وأدق فى التعبر . وأقضل الأسلوب السيل ولو لم يكن جزلا إذا وجدت الأسلوب الرصين يُضفض المعنى أو يثير الاحمالات، ويذهو إلى التأويلات .

ومن أبيل هذا تشكك فيَّ بعض الأنباء : هل يعلونى أديباً أو عالماً ! ولم ألمّ لهذا الشك وزناً ، فخر لى أن أصلق مع نفسى ومع غرضى ومع ميل من أن أزوق أسلولى وأكلب على نفسى ليجمع الناس على أهي .

وا دنب على تقسيق يجيعه العامل على الدى . وقد اعتدت – عند كتابة مقال – أن أرسم الموضوع إمالا لا تفسيلا ، وإذا رسمت أحث لفسى أن أغره وأبلدك إذا جدّ جديد . وكثر من المعانى التفسيلية تأنى وأنا أكتب لا وأنا أذكر قبل أن أكتب ، ولهذا لما أصبت في حيى وبانى الأطباء عن الكتابة زمناً صعب على الإيلاء، ولم أجد من

راد وبياء من المعناية والمستحيث من المرادة و المستحيث من المستحيث من المستحيث من المستحيث ال

لم أستمر فيه ، وكان من الحير أن أستمر وأنتقل من القصص التصيرة إلى القصص الطويلة ، فإما نجحت وإما أخفقت ، ولكن فات الأوان . وبعد أن كتبت ملمه المقالات في الرسالة . والثقافة طألب

إلى أن أكتب في مجلات أخرى : الهلال والمصور وغير ذلك ففعلت ، ولمساكثرت مقالاتي حمعت بعض ماكتبت وزدت علمها وأودعتها ثمانية أجزاء سميَّها وفيض الخاطري. وعلى هامش هذا ، طلب إلى" أن أذيع أحاديث في محطة الإذاعة فأذعت ، وكانت أحاديثي أشبه ما تكون عقالاتي من حيث موضوعاتها وأسلومها ، إلا أنى تعمدت في هذه الأحاديث أن تكون أسهل موضوعًا وأبسط تعبراً ، ونزلت في ذلك إلى أن دنوت من العامية لتناسب حمهور السامعين، ولم أر في ذلك بأساً ، بل لقد همت أحيانًا أن أتحدث بالعامية لأنى أرحم الأميين وأشباههم ألا يكون لهم غذاء عقلي يستمتعون به . وأكره من الأدباء أرستقراطيتُهم ، فلا يكتبون إلا للخاصة ولا يتفننون إلا لهم . وواجب الأدباء أن يوصلوا غذاءهم إلى كل عقل ، وتتأجهم الفنى إلى كل أذن ، فإذا لم يفعلوا فقد قصروا . وقد لفت نظرى لهذا مرة أن حضر إلى مصر رجل کبیر من مسلمی الصین ، فتقابلنا مراراً وتحدثتا كثيرًا ، وفي مرة عرَّفته بالأستاذُ توفيق الحكم ، وقلت له إنه أديب كبير ، فسألنى : هل هو أديب شعبي أو أديب

أرستقر اطي ؟ فرن السوال في رأسي ، فلما قلت له هو أديب أرسطراطي ، سألني : فن من أدبائكم شعبي ؟ فحرت جوابا، وآلم نفسي ألا يكون لحمهور الشعب أديب، وكثيراً ما شغلت ذهني مشكلة العلاقة بن اللغة الفصحى واللغة العامية وأن صعوبة اللغة الفصحي ــ ولاسيا من ناحية الإعراب ــ تحول دون انتشارها في حمهور الشعب وخاصة إذا أردنا مكافحة الأمية وتعمم التعليم ، فنحن لو أردنا تعمم التعلم بين الجاهير باللغة الفصحى المعربة احتجنا إلى زمن طويل ، ولم نتمكن من إجادة ذلك كما لم نتمكن إلى اليوم من إجادة تعليم المثقفين إياها . فطلبة المدارس يقضون تسع سنين في التعليم الابتدائي والثانوى وأربع سنين في الحامعة ثم لامحسن أكثرهم الكتابة والقراءة ، وكثراً ما يلحنون في الإعراب . ومن أُجل هذا اقترحت في بعض مقالات نشرتها وفي محاضرة في المحمعأن نبحث عن وسيلة للتقريب ، واقترحت أن تكون لنا لغة شعبية ننقبها من حرافیش الكلمات (على حد تعبير ابن خلدون) ، ونلَّزم في أواخر الكلمات الوقف من غير إعراب ، وتكون هي لغة التمليم ولغة المحاطبات ولغة الكتابة العجمهور ؛ولا تكون اللغة الفصحى المعربة إلا لغة المثقفين ثقافة عالية من طلبة الحامعة وأشباههم ، وإلا الذين يريدون أن يطلعوا على الأدب القديم ويستفيدوا منه ، وسهذا تكسب اللغة العامية والفصحير

مماً ، فالفة الفصحى الآن لاتتغلى كثيراً من استمال الكيات اليوى فى الشارع وفى الميات وفى الميات في الشارع وفى البيوى فى الشارع وفى من حياتها بين الدفاتر ، وفى الأوساط الحاصة ، ويكسب اللغة العابية رقياً يقرب من الفصحى ، وهو يمكننا من نشر المثانة والتعليم بلحمهور الناس فى سرعة ، ويمكننا من تقدم غلماً أدى لقوم لايزالون عرومين منه إلى اليوم . وهو إجرام كبر كإجرام حبس المرىء وتجويع الفقير ، ولكن هلا الاقراح فى معارضة شديدة بل وتجريعاً عنيقاً.

(44)

انتئبت – وأنا أستاذ بكلية الآداب – مديراً للإدارة الثقابة بوزارة المارف وكان ذلك سنة ١٩٤٥ ووزير المارف إذ قال المدتور عبد الرزاق السهوري ، وهي إدارة ليس لما أول يعرف ولا آخر يوصف ، واختصاصها واسع سمة لاحد لها لمن شاء أن يعمل ، وضيق أشد الشيق لمن شاء ألا يعمل ، ومن اختصاصها النظر في الأسائلة الليين يندبون إلى الأعمال العربية والطلبة الشرقين حن يربلون الدخول في المدارس المصرية ، وتنظم الملاقة بين مصر والبلاد الأجنية في الشعون القافية ، وتنظم الإذامة المدرسية ،

وتنظم الحياة الاجماعية للطلبة خارج المدرسة ، واستخدام السينها في الثقافة وغير ذلك. وقد نشأت عندى فكرة لا أدرى من أين نبثت ؛ نقد لإحظت خطأ وزارة المعازف في قصرها جهودها على التعليم داخل جدران المدارس ، مع أن في عنقها تثقيف الشعب بأجمعه فى المدارس وغبر المدارس بالصور المختلفة ، وخطأً آخر وقعت فيه وهو غهمها أن نشر الثقافة لايكون إلا بواسطة تعليم القراءة والكتابة ، مع أنه بمكن نشر الثقافة بواسطة السمع ، وبواسطة عرض الأشرطة السينائية على الناس ونجو ذلك من وسائل بدون القراءة والكتابة ؛ وقد كنت قرأت نتفاً عن تعلم الكبار في المالك الأجنبية ، فعكفت ... أنا وُسَّابَانَ مَمْنَ يَعْمَلُونَ مَعَى فَي الإدارَةِ الثَّقَافِيةِ ــ عَلَى قراءة الكتب الى تصف النظم الى اتبعت في هذا السبيل ، فنحن نجتمع كل يوم عصراً في حجرة متواضعة في لحنة التأليف والنرحمة ، نقرأ ونترجم وندرس ونبحث أى هذه النظم يصلح لمصر ، وأمها لا يصلح ، ونضع تقريراً مفصلا عن هذه الفكرة التي سميناها ، ﴿ الحامعة الشَّعبية ﴾ ، والتي سميت فيا بعد و بمؤسسة الثقافة الشعبية ، ، يشتمل على نوع الطلبة والطالبات الدين تلتى عليهم المحاضرات من غير تقييد بسن على شعب الدراسة من دراسة مهنية ودراسة نظرية وبرنامج مائع لكل هذا ، بمكن تحويله حسب الظروف والمناسبات ، فإذا جدت مسألة فلسطىن مثلا ألقيت محاضر ات عن فلسطىن، وإذا جلت رغبة في تعلم الآلة الكاتبة أنشأنا لها فرعاً ، ومن حيث الإدارة فقد اقترح لها مجلس إدارة من خيار الرجال فى مصر للإشراف علمها ، ومن حيث المكان ، فمدارس وزارة المعارف والورش الصناعية والميكانيكية أمكنة للجامعة الشعبية ، ومدارس البنات أمكنة لتعلم البنات والسيدات . ومن حيث مدرسوها ومدرساتها ، فكل المدرسين والمدرسات بوزارة المعارف صالحون لأن نختار منهم أساتذة الحامعة الشعبية ، ومن حيث الزمان فهو في المساء من الحامسة للى الثامنة .

وعرض كل هذا على وزير المارف نقبله وشبح الفكرة ، ورصد لها نحو عشرة آلاف جنيه البدم بها ، وأدخلت في خطاب العرش ، وأصبحت حقيقة بعد أن كانت خيالا ، وأعلن عن الحامة الشعبية وشعها ، فكثر الإقبال علبها ونجمت نجاحاً يدل على أن حاجة الناس كانت مامة إليها ، وكلا ظهرت فيها بعض العيوب تدوركت يقدر المتطاع ، واتسعت شيئاً فشيئاً ، وزادت مزانيها شيئاً فشيئاً ، وبعد أن اقتصرت . الفكرة أول أمرها على القاهرة عمست في سائر الإقالم تقريباً ، وأصبح موظفو السيا يتقلون إلى مكان الهال ؛ وإلى الفلاحين في القرى وإلى المصانع ، يعرضون الأفلام الثقافية ، ومعهم بعض الهاضرين ، وترى فها الموظف الكبر والعامل الصغير يدرسان جنباً إلى جنب نتا جديداً ، وترى السيدة ويتها بجانها تتعالى تدبر المترل ، والطبخ والخياطة وما إلى ذلك . ولم يمض إلا قليل حتى أصبح عدد الطالبين والطالبات فها يتجاوز سيمة عشر ألقاً ، وأصبحت مزانيها نحو سيمن ألقاً . ومع هلما نرى أثنا ،

وعنيت وأنا في الإدارة الثقافية هذه بتشجيع ترحمة أمهات الكتب الغربية إلى اللغة العربية ، فكان هذا العمل نواة ترسمت فيها الوزارة فيا بعد . . . إلى غير ذلك . ولكذ لم أعد شده و احد أن ي باعد الله عبر ذلك .

الألف .

ولكنى لم أعتر بشيء عامترازى بابتنى العزيزة الحاممة الشعبية ، ولذلك لما تخليت عن الإدارة الثقافية بعد سنة تقريباً كان لى شرف الاحتفاظ برياسة مجلس إدارتها إلى اليوم .

ظا مرضت المرض الأحير ، استقلت من رياسة مجلس إدارتها وصممت على الاستفالة وتخففت من كثير من اللجان . وأرسل إلى وزير المعارف إذ ذاك الكتاب الآتى ، جاء فيه : ووقد كنتُ أود أن تحظى الموسسة بجهودكم الطبية وارائكم السديدة ولكنى اضطررت عملا بنصح أطبائكم أن أقبل استقالتكم مع الأسف الشديد .

وإنى أنهر هذه المناسبة فأشكر لعزتكم ما قدمم للتمافة عامة وموسسة الثقافة خاصة من عمل طيب وجهد مشكور راجيًا لكم حياة سعيدة وصمة كاملة موفورة و

وحدث بعد ذلك حادث غريب يعد من أعاجيب القدر، ذلك أنى في يوم من صيف سنة ١٩٤٦ ذهبت إلى دار الحكومة في و بولكلي ۽ بالإسكندرية لزيارة صديق لي هو سكرتىر مجلس الوزراء⁽¹⁾ وعند خروجي إلى فناء الدار وجدت سيارة وقفت ودعيت إلى الركوب ، فإذا فها أستاذنا أحمد لطني السيد وزير الحارجية إذ ذاك ، فدعانى أن أصبه لتشييع جنازة فشيعناها ورجعنا ، ودعاني أن أصبه للى حجرته بوزارة الحارجية فصــحيته ، وجاء وكيل الحارجية يعرض عليه أمراً لم أتبينه ، ثم التفت إلى الوزير وقال : ما رأيك في السفر إلى لندن عضواً مع ممثلي مصر في مؤتمر فلسطن ؟ فاعتذرت ، فسألني عن السبب فقلت : إنى رجل عالم أو – على الأصح – أنتسب إلى العلم ، ولم

⁽١) كان هو الأستاذ محمد كامل سليم .

أشتغل بالسياسة إلا على هامش حياتى ، وأمور السياسة تحتاج إلى درس طويل ومران كثير ، فقال : لا بأس من وجود العالم بجانب السياسى ، وصم فقبلت ، واستأذن الحيات المحتصة وأنا جالس فقبلت ، وخرجت مستغربا كيف دخلت وكيف خرجت . واستعددت للسفر :وأخلت أمحث في المكاتب عن الكتب التي ألفت عن مشكلة العرب والصهبونية في فلسطين ، وأقرأ التقارير التي كتبت وأودعت وزارة الخارجية أو الحامعة العربية ، والكتاب الأبيض وغير الأبيض . ها أنا ذا أركب الطائرة من محطة ألماظة إلى ُ لندُن لأولُ مرة من ركوبي الطائرة في حياتي ، فما أعجب ما يفعله الزمان ! لقد كنت في مبدأ حياتي لا أعرف ركوب القطار حيى بلغت السادسة عشرة ، ولما ركبته إلى طنطا حزنت وبكيت ، وها أنا ذا أركب الطائرة من مصر إلى لندن وأنا لا أحزن ولا أبكي. وأخاف أول الأمر والطائرة ترتفع وتضطرب، ودليل

وأعاف أول الأمر والطائرة ترتفع وتضطرب، ودليل الطائرة يقول: إننا على ارتفاع ألني قدم ، ثم يقول أربعة الآف ثم يقول أربعة الآف ثم يقول المثانية آلاف ، لكن بعد أن استوت الطائرة وملكت زمامها في الحق اعتناها واطمأنت نفوسنا بعض الشيء إلها ، ورأيت من مجواري فيها من كبار رجال السياسة وعمن اعتادوا ركوب الطائرات وضموا

أسير سبرتهم ، فلم تذق عيني النوم إلا إغفاءة غفوتها بين مالطة وباريس . ونزلت الطائرة لندن بعد سبع عشرة ساعة، فما أضعف الإنسان وأقواه ، وما أقدره وما أُعجزه ! . وأجد نفسى في جو سياسي لم أعتده ، بين كبار الساسة من العرب يثناقشون ويتجادلون على غبر النمط الذي ألفته فى مجالس الكليات وعجلس الحامعة ، فهمّ يراعون اعتبارات ونزعات واتجاهات لايراعها العالم ، فأسمع أكثر مما أتكلم ، ولا أشترك في المناقشة إلا بقدر ، ولا أبدى الرأى إلا في المسائل الهامة . ثم أنتقل خطوة أجرأ ، فأنا والممثلون العرب على المائدة المستديرة أمام مستر بيقن وزير الخارجية الىريطانية وأمام وزير المستعمرات والمختصن بالأمور الشرقية في إنجلترا ، نتبادل الخطب والآراء وتستمر على ذلك أياما ، ثم تشكل لحنة صغيرة من ممثلي العرب وممثلي الإنجلىز ، يضعون مشروع

اتفاق ونستشار في كل خطوة من هذا الاتفاق ، حتى إذا فرغت اللجنة عرض الاتفاق على الهيئة العامة من الإنجليز والعرب ، فإذا بنا نسع من الإنجليز أنهم عرفوا وجهة نظرتا وعرفنا وجهة نظرهم ، وسيسخون الأمر فيا بعد ،

رؤوسهم على مقاعدهم ونأموا نوماً هادئاً مطمئناً كأتهم فى غرفة نومهم ، فاطمأنت بنومهم ، ولكنى لم أستطع أن وسيخبروننا بالنتيجة ، وسيدعوننا إذا دعت الحال ، ومع السلامة .

كانت هذه الرحلة كبيرة الأثر في نفسي ، فقد استطعت أن أخلو فى لندن إلى أصدقاء لى ممن خبروا إنجلترا خبرة طويلة وأقاموا فمها زمناً طويلا قبل الحرب وأثناء الحرب وبعد الحرب ؛ فأصغيت إلى حديثهم فى شئون إنجلترا الاجباعية وتطورها وما فعلت الحرب فمها ، ورأيت كبار الإنجلىز وسمعت أقوالهم ، وأصغيت إلى تفكرهم ، فإذا هم ناس كماثر الناس ، وعقليتهم كسائر العقليات ، مزيتهم في اعهادهم على الاختصاصين الدين تخصصوا فى كل موضوع وعرفوا دقائقه ، فإذا جدَّ أمرٌ استعانوا بهؤلاء الحبراء وأصغوا إلى نتيجة خبرتهم وكونوا من ذلك آراءهم ، وأكبر ما بمتازون به علينا توزيع الاختصاص ، والنظام الدقيق ، وثقة الكبىر بالصفىر والصغىر بالكبير ، ومعالحتهم الأمور معالحة علمية منظمة ، فكل شيء مدروس ولاشيء مرتجل ، والغرض محدود وأساليبه مرسومة ، لا ارتجال ولا فوضى وُلا تفكر عفو الساعة . كما أعجبي في الشعب دممقراطيته الحقة ، فكل إنسان

كما أُصِجِي في الشعب دعقراطيته الحقة ، فكل إنسان ينظر إليه على أنه إنسان ، كبراً كان أو صغيراً ، ولا يحق للوزير أن ينال شيئاً يمتاز به عن الصانع الصغير ؛ هذا وزير

خارجية إنجلترا يلبس قيصاً بليت ياقته ، وهذا وزير المستعمرات يقول في بعض أحاديثه معنا : إنه لم يشتر بدلة جديدة منذ نشبت الحرب ، وهذا الوزير الكبىر يذهب بطيقه وسكينه وشوكته وفنجانه ليأخذ الشاى وبعض الكعك بيده كما يفعل سائر الناس ، في المحل المعد لأخذ الشاي ، وهذا وكيل وزارة يشهَّر بزوجته لأنها أخذت قنطاراً من الفحم زائداً عن سائر الناس وإن كانت في حاجة إليه لأنها تسكن بيتاً كان مهجوراً مرطوباً محتاج إلى نار أكثر لتذهب برطوبته . وهذه (الطوابر) المنظمة في كل شيء لابحق لأحد فها أن يتقدم من قبله ، والموظف الكبير يقف وراء العامل الصغىر حتى يُلِّق دوره ، وهذه الاشتراكية قد بلغت في الحياة الاجتماعية مبلغاً كيبراً : فرفع مستوى العال وطُبق العدل الاجتماعي تطبيقاً دقيقاً ،وعلا مستوى المعيشة للفقراء ، وكثرت الضرائب على الأغنياء حتى لايستطيع غنى مهما كان أن يربح في العام أكثر من خسة آلاف جنيه تقريباً ، فاستوى الحميع في الحقوق والواجبات ، وقلت الفروق بن الطبقات. حياة هادثة منظمة مرمحة ، فإن أنا نظرت إلى الشعب وأخلاقه وسلوكه سررت وأعجبت ، وإن أنا نظرت إلى السياسة الحارجية وما يفعل الاستعار الإنجلىزى في الشرق ألمت و تقزز*ت* . وخطفت رجلى بعد ذلك فلحيت مع بعض أصدقائل إلى سويسرة ، نعمنا بمناظرها الطبيعية أياما ، ومنها إلى مرسيلية ينتظر الباخرة أياما ، وغفرج كل يوم إلى ضاحية منضواحها فنتم بشمسها ودفئها ومناظرها ، ثم نعود بالباخرة إلى مصر، وقد كسينا كل شيء إلا ما يتصل بفلسطين .

وأحلت إلى المعاش بعد أن بلغت سن الستين . وكم كنت

أتمى أن أخرج من وظائف الحكومة وأنا فى من الكهولة لأعمل حراً ؛ لا تقيله اللواتح والقوانين ، ولا يطبع بطابع الموظفين، ولكن لم يكن لى من الشجاعة ما أرفض به الوظيفة ودالولد متجبئة متبخلة ، وربما كان السبب أيضاً أن وظيفة الاستاذ فى الحامة من أبعد الوظائف عن السلطة الحكومية ،

الاستاد في الحاممه من ابعد الوطائف عن السلطة الحضوبية ، وأنها تتفق مع مزاخبي إذا خلت من الصسخة الإدارية واقتصرت على الاتصال بالكتب والاتصال بالطلبة .

على كل حال بقيت فى الوظيفة إلى الستين ، وخفت من الفراغ الذى سأقابله إن خلصت من الوظيفة ففكرت ماذا أعمل : فكرت أن أكوّن هيئة لنشر الكتب القديمة ، أستغل بالعمل فيها ، ويكون لى ربحه لملادى والأدني أرخسارته ، ولكن حال دون ذلك اتصالى بلجنة التأليف والدرجة وإشراف

م ۱۱ (حیاتی)

علمها أكثر من ثلاثين عاماً ، فعمل اللجنة من جنس ما أنوى أنْ أعمل ، ولكنه مقيد عجلس إدارة قد يقيد حريبي فيما أنشر ، ويسألني عن عملي هل خسر أوربح ، وأنا أريد عملا لايسألني عنه أحد . وعرضت على زملائي في لحنة التأليف أن أستقيل فأبوا ، ولم يكن عندى من الحاسة ما بجعلى أصم على الانفصال ، وبقيت في اللجنة أشرف علمها وهي عزيزة عليٌّ، فقد صبتها منذ أول عهدى بالشباب، وصارتجزءاً من نفسي ، نمت بنموي وإن لم تشخ شيخوخي ـــ استفلت مها تجارب كثيرة فى التأليف والترحمة والطبع والنشرومي تروج الكتب ومني لا تروج ، وعلاقتنا بالعالم العربي من حيث تصريف الكتب وما إلى ذلك . وحازت اللجنة ثقة الناس بما تخرج ، إذ لا تقدم على طبع كتاب حتى يقرأه الخبرون ويقروا صلاحيته ، كما اكتسبت من زملائی فی اللجنة آراء قيمة ، إذ كانت اللجنة مجانب إنتاجها العلمي والأدبى منتدى بجمع الأصدقاء والزائرين وخاصة فيمساء الخميس من كل أسبوع ، تطرح فيه الموضوعات المختلفة حيثًا اتفق ، وتتبادل الآراء من ثاثرين ومعتدلين ومحافظين، ويتحدث المحتمعون عما طالعوا من كتب وما عرض لهم من آراء ، أو تتبادل فيه الشكوى من حالة الشرق وعيوب المجتمعات وما إلى ذلك من أحاديث بمتعة طريفة .

وقد نمت اللجنة نموآ مطرداً من حيث أهضاؤها ، إذ تجاوزوا التمانين من خبرة رجال مصر ، ومن حيث إنتاجها إذ بلغ ما أعرجته أكثر من مانتي كتاب ، ومن حيث ماليها إذ بلغ ما تملكه من كتب في عازنها ومال في مصرفها آلاف الحنبات . وكانت أول مؤسسة في الشرق التأليف والترحة والتشر ، ثم حلت هيئات كثيرة حلوها ، وأنشلت الدور المختلة في الشرق لهذا الغرض ، وفاقها بعضها من التاحية الشجارية والذالية وإن لم يفقها من الناحية العلمية .

عدلت إذن عن إنشاء مكتب للنشر ــ وفي ليلة من ليالي رمضان سنة ١٩٤٦ - وكنت أصيف في الإسكندرية -أتننى دعوة من المرحوم النقراشي باشا لأقابله في مصيفه في محطة فكتوريا برمل الإسكندرية ، فذهبت إليه فعرض على" أن أكون رئيس تحرير جريدة يريدون إنشاءها لتكون لسان حزب السعديين ، وهي جريدة والأساس ۽ ، فاعتذرت في الحال عمتجاً بأني لم أشتغل بالصحافة إلا على هامشها ، وفرق بن صيفة أدبية كالثقافة وصيفة سياسية كالأساس ، ثم هــــذا العمل يتطلب انغاساً في السياسة إلى الأعماق وقد كرهت العمل فمها من قدم ، ثم هو يتطلب الكتابة في تأييد الحرب تأييداً مطلقاً، والحضوع لآراء قادة الحزبوأفكارهم، ومهاحمة الآراء المعارضة وتوهينها والحطُّ من شأنها ، وهذا ما لم أرتضه لنفسي في حياتي ، فقد تلونت باللون العلميالذي يبحث الأمر وهو على الحياد ، ثم يرتقب النتيجة كاثنة ماكانت ، وليس هذا منهج السياسة الحزبية . وأخبراً هذا العمل يتطلب سهراً بالليل ونوماً بالنهار ، ومقابلة زيد وعمرو وتلقى الأفكارمن زيد وعمرو وهو عمل لا أرتضيه ولاتحتمله صحتى . فقال رحمه الله : إنك تسرعت فى الحكم ، وخىر أن تفكر يومن أو ثلاثة في الأمر ، فقبلت وفكرتُ ثم قابلته ورفضت . وَاكتفيت أنْ أعمل الأعمال التي لا تتطلب جهداً عنيفاً ، فأنا أعمل في لحنة التأليف وفي الحامعة الشعبية وفي دار الكتب وفي المحمم اللغوى وفي اللجان المحتلفة الى أنا عضو مها ، وإلى جانب ذلك أستمر في الكتب التي أوالفها ، والمقالات التي أنشرها ، والأحاديث التي أذبعهاً .

ولم ألبت إلا قليلا حتى عرض على أن أكون مديراً للإدارة التمانية فى الحاممة العربية ، فقبلت بكل سرور ، لأنه عمل ثقاف من جنس عمل ، وعمقق لرغبتى فى السعى التعاون العلمي بين الأقطار العربية .

فأنا وإخوانى فى الإدارة الثقافية ننشئ معهداً للمخطوطات تريد به أن نصور كل المخطوطات القدعة فى العالم على أفلام صغيرة ونشترى الآلات اللازمة لذلك ، ونصور أهم المخطوطات فى دار الكتب وفى الحاممة المصرية وفى بلدية

الإسكندرية وفى سوهاج ونبعث بعثة لتصوير المخطوطات فى الشام ولبنان ، وأخراً نبعث بعثة إلى الآستانة لتصوير جزء كبر من مخطوطاتها القديمة وهكذا ، ونضع خططاً للتعاون الثقاق عن طريق ترحمة الكتب القيمة ، وعن طريق السينا والإذاعة . . الخ . ونفتتح عملنا أيضاً بالتحضير لمؤتمر · ثقاق يبحث فى مناهج اللغة العربية والحغرافيا والتاريخ والتربية الوطنية في الأقطار العربية والقدر المشترك اللى ينبغي أن يوجد بينها والقدر الذي تستقل به كل أمة . وقد مم تحضير هذا المؤتمر وتحضير مؤتمر آخر للآثار الشرقية فىبضعة أشهر ، وعقد المؤتمر الثقاف في بيت مرى في لبنان في صيف سنة ١٩٤٧ وموتمر الآثار في دمشق عقبه مباشرة ، وقد كنت في هذين الموتمرين أغبط نفسي على نشاطي وحركتي واشتراكي الحديّ في العمل. وتحاول هذه الإدارة الثقافية أن تنشئ متحفآ للثقافة

فتتمه ، وأن تستخدم السيبا والإذاعة في التقريب بين العالم العربي ، كما تحاول أن تنشئ علاقة متينة بينها وبين اليونسكو في الشئون الثقافية وخاصة ما يتعلق منها بالعرب .

وفي هذه الآونة انتقلت من مسكني بمصر الحديدة الذي سكنته أكثر من عشرين عاما إلى مكسني في الحنزة ليكون أبنائى قريباً من الحامعة .

(11)

ويوما من الآيام ، وكل شيء يسر على طبيعته والحياة تجرى على سنها ، والآمال مقتحة كمادتها ، والعمل يتبع سبجه المألوف ، فأنا عاكف على القراءة والكتابة والدرس والتحصيل والإنتاج ، وإذا بي فجأة أرى كأن نقطة سوداء على منظارى ، فأظها أرل الأمر نقطة ماء سقطت عليه فأسحها ، ثم أضمه على عيني فأراها كما كانت . وإذا العب في العين وليس العيب في المنظار . واليوم يوم وقفة عيد الأضعى والناس حتى الأطباء في شغل بأمر العيد ، فأعث عن طبيب فلا أجده ثم أشر عليه بعد لأى .

هذا هو الطبيب يكشف على عينى وأنا واجف من النيجة خالف أترقب ، والطبيب يفحص ويطيل الفحص يأمواته ، ثم تظهر فى وجهه ملامح الكآبة وما يلبث أن يقول :

خير لى أن أصارحك أن المرض انفصال الشبكية.

هل لها من دواء یا دکتور ؟

ــ لا دواء إلا عمل عملية .

-- هل هي قاسية ؟

نعم ، إنها تحتاج إلى شهر ونصف أو شهرين مغمتى
 العينن ، متخذاً وضعاً واحداً .

أضطربت لمذا النبأ وأحسست خطورة الموقف . وأكبر ما جال في نفسي شعورى عرمانى من الفراءة والكتابة مدى طويلا ، وأنا الملى اعتاد أن تكون قراءته وكتابته مسلاته الوحينة .

ولكن كثيراً ما يحطئ الطبيب فيشخص الرض على غير حقيقه ، فلطه واهم ، ولعله أخطأ التشخيص ، وكثيراً ما محدث ، وكدراً ما نسمع الأحاديث عن أطباء شخصوا فأخطأوا التشخيص وعالحوا فأساءوا العلاج ، فلأذهب إلى طبيب ثان وثالث من كبار الأطباء حتى أستيقن المرض ، ومكلاً فعلت ، ولكن – مع الأسف - كلهم أحموا على التشخيص وطريق العلاج .

التضعيص وطريق العلاج.

بدأ الطبيب المعالج بياشر علاجه ، فها أنا فى المستشق والطبيب يعصب عين قبل العملية بأسبوع ، وها أنا فا فى فلام حالك ايل نهار ، دنياى كلها ليل ، بل أكثر من ليل ، نا للملسة عرمة ، والتقلب على الحوالب عمرم ، كأنى قد شددت على السرير شداً ، بل أصعب من الشد ، لأن لمارتي شداً ، بل أصعب من الشد ، لأن لمارتي هم أنا فكر أن فكر الدنيا وهوانها وسمانة الناس الذنيا وشعبهم بالتافه

من أمورها ، ويتحاربون ويتشاجرون على الحقير من متمها ، وهى عرضة فى كل وقت الزوال ، ولو عقلوا لما تخاصموا ، ولا تحاربوا وكانوا إخوانا متحايين متعاونين ، يأخلون الأمور جوادة وحكة وحسن تقدير وتفكير فى العواقب . العواقب .

حاولت أن يكون ظلامي مضيئاً ، فلأن حرمت النور من العينىن فليستتر قلبي ، ولأن حرمت نور البصر فلتضيء بصرتى ، ولكن كنت أنجح في هذا حينًا وأخفق أحيانًا ، فقد اختلف الإلف والعادة وكنت أشعر دائمًا أن العينىن هما الكوتان اللتان تطل منهما نفس الإنسان على الدنيا ، كإذا عدم النظر فقد أغلقت الكوتان ، وحبست نفس الإنسان ؛ وأحيانا كنت أتردد بن الأمل في عودتي إلى ما كنت عليه وأن تجرى الأمور في المستقبل القريب كما جرت في الماضي، فأشعر بالطمأنينة والراحة ، وبن اليأس والحوف من الظلام الدائم ، فيستولى على الفزع والهلم ؛ وأرهب ما يكون إذا تقدم الليل وانقطع الزوار وانصرف الأهل ، ونام الناس، واعتراني القلق ، وشعرت بالوحدة ، واستولت على الأفكار المظلمة ، فاجتمع على ۖ ظلام الليل وظلام النفس . أستجدى النوم فلا يجدى ، وأفزع إلى الأفكار المطمئنة فلا تسعف، وأعد ساعة الحامعة بالقرب منتي ربعاً فربعاً ، وتنفو عيني غفوة فأظن أن الليل انقضي ببوسه وشقائه ، ثم أتسمُّع إلى حركة الشارع لعل أتبين منها قرب النهار ، فأسمع حركة عربات وسيارات ومارة ، فأتساءل : هل الناس عائدون من آخر سهراتهم أو هم مستقبلون لبدء بهارهم ؟ وهل هذه الحركة حركة متأخرة ، أوحركة مبكرة ؟ وأظل في هذا الشك زمناً بين رجاء أن يكون الصبح وخوف أن يكون الليل ، وإذا بالساعة تدق الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، فأجزع من أنى مقبل على ليل ليس له آخر ، وأنشد مع الشاعر :

يا ليل بل يا أبدُ أغاثب عنك غدُ ؟

وأعزى التفس بأن حولى فى الحجر المجاورة فى المستشقى مرضى يتألون ولا أقائم ، ويستينون ولا أستنيث ، وأن مهم جروحاً ولاجروح في ، ولكن سرعان ما تلعب هله التعزية لأن الآلام متنوعة ، وقد يكون ألم النفس أشد وقعاً من ألم الحسم .

لم يكن لى من العزاء أحسن من الإعان ، فهو الركن الذي يستند إليه المرء فى هذا الوقت الرهيب ، وبدونه يشعر كأن الهاوية تحت قدميه . لو أدرك الناس هذا ما ألحدوا ، فالإلحاد جفاف موثم ، وفراغ مفزع ، ومحاربة للطبيعة الإنسانية الى فطرب على الشعور بإله ، والارتكان عليه والأمل فيه ، وإلا كانت الحياة جافة فارغة مفزعة منافية للطبيعة . وكان من المصادفة الحسنة أن حضم إلى أحد أبنائي الأوفياء وأحب أن يسلم. بالقراءة لى بعض الوقت ، فكان مما اختاره لى كتاب واعترافات تولستوى ، فوقع في نفسي موقعاً حيلا ، إذ رأيته يصور حياته وقد ركن أول أمره إلى العقل وحده . ولِل العقل الواقعي لا غبر ، فأسلمه الاعتباد على المقدمات المنطقية المادية وحدها إلى الإلحاد ، وعد ّ الدين خرافة من الحرافات ، ولكنه شعر بعد حين بأن الحياة لا قيمة لها وأنها فارغة من المعانى .

إن هذه الحياة المادية التي تركن إلى العقل الحاف وحده لا تسطيع أن تجيب عن الأصانة الآتية : ما قيمة الحياة ؟ ما الله المادي يربط بين الحياة المادية المصلودة وبين الأبدية ؟ وما الذي يربط بين حياة الإنسان الحزية والإنسانية الكلية ؟ إلى مثل هذه الأسئلة ... فكان لا يجد في قضايا العقل وحدها جواباً ، وساعت نضعه وأظلم تفكيره ، وأهرك أن الحياة على هذا الوضع نكتة شيفة ، وأنها لا تستحق البقاء ، وحال الانتحار مراداً ، وفي كا ذلك كان جزاً بالدين ،

ولا بريد أن يتجه إلى الفكر فيه ، وأعمراً بعد النقاء الطويل والعلب الآلم انجه إلى الدين لينظر كيف عل هلمه الأسئلة ، فرأى أنه وحده الذي يفسر معنى الحياة ، ويربط الحياة الحزفية بالكلية ، والنفس الفردية بالإنسانية ، فاطمأت نفسه وانقلب متديناً

فكان في هذا الكتاب عزاء لضي وجال لبعض تفكري ، وقارت بن موقف تولستري وموقف الغزالي ، فقد كنت قرآت له كتاب و المقذ من الفيلال ، ، وكان المحاليد الدينية ، واستعرض الملامب المختلفة في كل وأحب أن يركن لمل الفلسفة وحدها الم تسعف ، ولمل تعالم الماطنية ظر يطمن إلها ، واستريل عليه الشلك حي غره ، ووقع في أزمة نفسية حادة ، واحتمر سافات الناس في التخاصم على المال والحاده والمنصب فغير من كل ذلك .

وأخيراً بعد أن استحك أزمنة الفسية وأخلت منه كل مأخل مرض مرضماً شديداً ، ولا أشك أن مرضه الحسمي كان تنيجة لمرضه الفسي ، ثم أفاق قليلا قليلا وإذا هو غرج من هذه الأزمة كما خرج منها تولستوى متنبياً بالقلب لابالمثلق ، وبالشعور الفسي العريزى لابالمقدمات الفلسفية ، وإن كان الفرق بينهما أن تولستوى آمن بعد إلحاد ، والغزالي آمن إعان كشف بعد إعان تقليد بينهما فترة شك . ويأتى الطبيب بعد خسة عشر يوماً من العملية فيذكر لي أنه سيكشف عن قاع العين غداً ، فأسأله : ما هي الاحمالات المنتظرة ؟ فيقول : هناك احيالان ، إما أن تكون أعصاب العمن لم تقو على الالتحام ، وإذ ذاك تكون العملية قدأخفقت ، وإما أن تبدأ في الالتحام فيكون هناك الأمل في النجاح. أربع وحشرون ساعة تساوى أربعة وعشرين شهرآ أو تزيد . انتظار للخيبة أو الرجاء ، وتردد بين اليأس والأمل ، ثم لاينفع بعد ذلك أيضاً إلا الإعان . أحياناً أقول للنفس : ما هذا الحزع ؟ وما أنت والعالم وما عينك في الدنيا ؟ هلا قلت كما جاء في الحديث : هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت إن الذي يوقعك في هذا التفكر المحزن هو انطواوك على نفسك وتقوعك لها قيمة أكبر ثما تستحق ، وهل أنت إلا ذرة صغيرة على هذه الأرض ماضها وحاضرها ومستقبلها ؟ وهل الأرض كلها إلا هَنَّة من هنات العالم ، فلتتسع نفسك وليتسع تفكىرك ولتقدر نفسك قدرها ولتفكر في خارجك أكثر ثما تفكّر في داخلك ؛ فإذا أنا استغرقت في مثل هذا التفكير هدأت واطمأننت؛ ولكن سرعان ما تلهب هذه الصورة كما يذهب المنظر في فيلم السينا ، وتحمل علمها صورة كثية حزية جزعة ، ولا تزال الصور تتعلقب ، وكل صورة تطرد أختها ، والصور مخطقة الألوان عنطقة الأشكال، بين هادئة وعنيفة ، وباسمه وباكية . ونحت عندى حاسة السبع لتعوض ما أصاب أختها حاسة

البصر ، فكنت أعرف كل إنسان من صوته ومن أول كلمة ينطق بها ، فلا أحتاج إلى تعريف ، حتى لأذكر أن صديقاً قديماً انقطعت بيني وبينه الأسباب منذ نحو خمسة عشر عاما ، لم أره ولم يرنى ، زارتى فا نطق بالسلام حتى عرفت من هو ومضت باسمه .

وتكاثر الزوار وكانوا موضم الملاحظة والتقد والتقدير:
ملا ازار محدثال الحديث فهو بلسم هموم ، وموضع الماء من
ذى الغــلة الصادى ، فيوسل ويسليك ، ويقول ما محسن
أن يقال ، وماما زائر قد عام اللوق ، فهو يرانى فى هاه
الحال ويطلب إلى إذا زارفي صديق فلان أن أرجوه فى أن
عنحه الدرجة الرابعة ، ويشكو إلى تأخره عن زملائه ووقوع
النظيم عليه ، م هلما زائر كرم قد أنساه ما أنا فيه ما بيننا من
خصومات عارضة فداس هلمه الخصومات بقديه ، وكان
القدم من الصداقة ، وزائر عز المنظر فى نفسه فتكاد

دموعه تسيل على خديه لولا أنه مجاهدها ، وآخر يتجلد ويتصنع الثبات فإذا خرج سمت نشيجه ، إلى ما لامحمى من مسموعات ، وكل هسلما يُخرَّرَه في النفس طول الهار وتستعيده الذاكرة طول الليار .

وأستعرض أحياناً أحوال من فقد بصره فأتأسى سا ، ` وأقول إن المسألة ليست مسألة بصر ، مقدار ما هي مسألة نفس تتلق الحادث . هذان مثلان بارزان : بشار بن برد وأبو العلاء المعرى ؛ فأما بشار فقد واجه فقد بصره في ثبات ، وعاش كما يعيش ذوو الإبصار ، بمزح ويضمحك ويقول إنه إذا عدم العشق بالنظر فيعشق بالأذن ، ويستمتع بالحياة المسادية ويستغرق في الشهوات كأقصى ما يفعله بصد ، وهو قوى جبار لابمسه أحد بسوء إلا نكل به وانتقم منه ، وهو عنيد فاجر ، لايأنف أن يصف في شعره كلُّ الصور الى لا يستطيع وصفها إلا البصير ، من غبار النقع وحمال العنن ولطف القوام ، فلا تكاد ترى في شعره أثراً من حزن على عن ، أوبكاء على حرمان منظر . وأما أبو العلاء فأصابته نفس الكارثة فحزن واسترسل

والله ابو اللعلاء فاصابته للصن المحارثة فحفزن واسترسل في الحزن ، فأعرض عن لذات الحياة الدنيا . وبكى نفسه وبكى الناس ويكي كلُّ ما حوله وتحوَّلَ علما الحزن إلى منط على الناس من الأصناف والألوان ، من أمراء وقادة ورجال دين ونساء ووعاظ ومنجين ، فلم يسره شيء في الديت الدنيا لأنه فقد السرور بالعين ، وحبس نفسه في الديت إذ لم ير نفسه في الديت با أضاف إليه عبداً آخر وسمي نفسه رهين افهيسين : عبسه بفقد نظره وعبسه في بيته ؛ ومع ذلك كله ملأ الدنيا بأثره ، فقد انطوى على نفسه يستخرج مها كنوزاً من معارفه وتأملاته وتفكراته ، فاستضامت بمسرته بأكثم عالين من ونظره ، وتألم هو ظلا الناس ، وقال اليصر فيصر التأمر عاليات واتعام والتفكر الحر الطاليق فالعملم والتأليف والتعلم والتقليم والتعلم والتقليل والتعلم والتعليل والتعلق والتعلق والتعليل والتعلق والتعلق والتعليل والتعلق والتعليل والتعليل والتعلق والتعليل والت

واتشكر الحر الطليق لها ثم بستطعه بصبر .
وأنا أو أصبت في عيى – لا قدار الله – لكانت طبيعى .
أشه بطبيعة أبي العلام لا بطبيعة بشار ، على بعد الفرق بيني .
الشد ، ولعل فقد البصر في الصبا أحن وقعاً من فقده .
الكبر ، فالمعين مرّن ، فقد كأعضائه ، سرعان ما تشكل .
الكبر ، فالمعين مرّن ، فقد كأعضائه ، سرعان ما تشكل .
حسب الوطيقة وحسب الظروف ، والكبر فقسه كمظام .
يين فقر عاش فقراً طول حياته وفقير أصابه الفقر بعد أن

أحاطونى بأنواع من المتع : فهذا الواديو بجانبي ولكمى

لا أستسيغ الغناء كما كنت أستسينه قبلا ، ولا تهم نفسى بالمحاضرات كما كانت تهم ها ، إنما هو شىء واحد كنت أستمتع به فى الراديو وهو دلالته على الصباح فى أول إذاعته وساع القرآن بدئ الأعصاب فيمث الطمأنينة .

هذا هو الطبيب بعد طول انتظار يفحص هيي لبرى تليجة المدلة وما عميته الغد وليقول كلمته الحاسمة ، ثم يقول بعد طول الفحص : إن العمن قد بدأ التحامها والحمد لله ، ولكن الأيام الآتية أيام دقيقة تحتاج إلى شدة عتابة وقلة حركة والترام المنزم على جانبواحد ، إذ أقل مخافقة تفسد ما تم" فأهرى على الطبيب أقبله ، ثم لا ألبث أن أستصحب الأوامر الحديدة وافتتاح درس فى الصبر جديد بعد طول الصبر القدم ، فإلى الله أشكر وأشرع .

هده هى الأيام تمر ، وتبدأ الضر، تفقد كثيراً من قرتها ، فهى تتأثر بما لم تكن تتأثر به ، وتجزع بما لم تكن تجزع منه : هذا ابن يصاب بالزكام ظم أصيب ؟ وهذا ابن دخل الدور التانى فى الامتحان فاذا تكون الشبعة ؟ وهذا ابن تخرج من مدرسته ولا بجد عملا ظم لم يوظف ؟ وهذا ابن تأخر عن موعد حضوره ظم تأخر ؟ وأصبحت الدنيا أوهام وتأثرات مفتعلة ، وإذا دنيا الإنسان ليست إلا مجموعة أعصاب ، إن سلمت وقويت ابهج بالحياة ولم يتأثر كثيراً بأحداثها ، وإن تلفت مهدم كيانه وخار بنيانه .

ها هو العليب يرفع الرباط عن العين السليمة بعد نحو أربعين يوماً وهي فى ظلام حالك ، وبيق الرباط على العين المريضة ، فحتى هذه العين السليمة لاتكاد ترى إلا بصيصاً ، من طول ما حرمت من أداء وظيفها فلا تميز الباب من الشباك ، فا بال العين المريضة حين يرفع عنها الرباط ؟ وأشكر ذلك إلى الطبيب يقول : إن هذا طبيعي فالعين تسترد وظيفها شبياً فشياً وظيلا قليلا قللا

وأضين ذرعاً بالستشنى وحياته الرئية ، فما يجرى فى يوم يجرى كل يوم ، والأصوات هى الأصوات والطعام هو الطعام ، والأنين حولى من كل جاب ، والأجراس تضرب من حين لمل حين ، والحركات لا تقطع ليلا ولا نهاراً.

وفى المستشفيات نقص لا يكفت إليه . فالأطباء بعنون عقياس حوارة الحسم وتحليل ما يريدون منه ، كما يعنون ينوع الفناء الذي يلائم المريض أو لا يلائمه ، ولكن يغوتهم شيء هام جنا ربما كان أهم من ذلك كله ، وهو معالحة الناس . فإذا لايكون في المستشن عمرضات النفس كمرضات الحسم ، يؤسى المريض بأحاديين أو يقرأن له ويكون لمن من الثقافة ومن حسن ما يكون بلسيا للتفوس وشفاء لما ينتاجا من ضيق وكتابة . وذكرت ذلك لمدير المستشى فأقرف على ملاحظتى واستصحب تنفيذها لأسباب ذكرها .

لللك سألت الطبيب أن ينقلني من المستشفى في أقرب وقت ممكن ، مع كل ما كان محمد فيه من نظافة ورعاية ودقة وإتقان . وصرح لى الطبيب أن أخرج على شرط أن محاط الحروج بكل عناية ، فلا حركة عنيفة ، ولا الهتزازا يرج الحسم ، حتى إذا وصات إلى البيت حملت في محفة إلى أن وضعت على السرير وضعاً ، وكنت إذا تحركت فحركة خفيفة فى أناة وهوادة ، ثم بدأت أتعلم المشى كما يتعلمه الطفل ؛ فلا أكاد أخطو حتى يعتريني الدوار فأعود إلى السرير ثم أعاود المشي . وفي يومين أو ثلاثة استطعت أن أمشى مترين أو ثلاثة ، ولا يسمح لى بالخروج من الغرفة .

ثم يسمح لى بالانتقال إلى غرفة مجاورة ، ثم يسمح لى أثر أسم في سمح لى أن أمشى فى مستح لى أن أمشى فى مستح لى أن أمشى فى مستوى واحد ، فلا أنزل سلماً ولا أطلع سلما ، وأننى من هذا الدور كله وتشىء الدن تدريجاً ويشقى الحسم تدريجاً ، ولكنى أجد نشى مستمصة على الشفاء ، فهى متدمة من كل شىء مقبضة أشد الانتباض ، فاستدعى طبيب الحسم مرة ومرتزن وثلاثاً فيفحص ويطيل الفحص ثم يقول

أسباب ذلك فأرجعها إلى أمرين : أولمها أن طول الرقدة مع الظلام قد هد أعصابي ، وثانهما أن طبيب العيون لايزال بمنعني من القرامة والكتابة وكانت-ياتي كلها قراءة وكتابة ، فلما حرمتهما أحاطني فراغ رهيب غيف ، والفراغ أدهىما يمي به الإنسان . فايس في الحياة سعادة إلا إذا ملثت بأي نوع من أنواع الامتلاء ، جد أو هزل ، وعمل أياكان نوعه . فإذا طال الفراغ فالوبال كل الوبال . إن فارغى العقل معذورون في أن بملأوا فراغهم بدرد وشطرنج أو أي حديث ولوكان تافهاً لأنهم يشعرون بثقل الفراغ ، والحياة لاتلذ إلا بنسيانها ، وخبر لذة ما نسى الإنسان فها نفسه واستغرق فمها حيىنسي التلذذ مها ؛ فلو فكر لاعب النرد والشطرنج في أنه يتلذذ سما لفقد لذته ، وخدر أنواع اللذائذ العقلية ما استغرق فيها الإنسان بتأمله وتفكيره حيى مرعليه الوقت الطويل دون أن يشعر، ففراغي هو أهم أسباب ضيق ، وأهم أسباب أزمني النفسية .

إن الحسم سلم ، ففيغط الدم جيد والصدر جيد والاعضاء كلها على أحسن حال ، ولكن المسألة مسألة نفسك أنت وأنت القادر على مداواتها . غير أنى لا أجد لها دواء . وأحلا

ولقد اعتلت أن أعتمد على الكتب أتخر مولفها ، وأصفى إلى حديثهم ، وأستلهم ما يقولون ، وأفكر فيا واحتجت إلى دعامة أخرى أستند علها . وتلمستها فيمن يقرأ لى ويكتب لى ، ولكن لابد من زمن حتى آئس مهلا الاعتباد الحديد ، ثم هلما كله لا يننى غناء الاعباد على النفس ، فقد أحتاج إلى قارئ فى وقت فأقسه فلا أجده ، وقد يكون القارئ الكاتب ولا رضة لى فى قرامة ولا كتابة ، وقد أحتاج إلى قارئ من نوع معن ولا أجده ؛ على كل حال ارتبكت النفس وطال اضطرابها .

وأدخل المكتبة للذكرى الماضى فيزيد ألمى . فغاء شمى وجوع مفرط ، وقد حيل بن الجامع وغاله . وأتسامل : مل يعرب المجامع وغاله . وأتسامل : مل يعرب نظرى كما كان فأستفيد ما كما كنت أستفيد ؟ وهده الآلات من الكب آلاف من الأصدقاء ، لكل صدين طعمه ولونه وطرافة حديثه ، وقد كان كل مملنى بالحديث الذي يحسن حين أشير إليسه ، فاليوم أواهم ولا أسمع مديثهم ، وعلمون إلى أيديهم ولا أستطيع أن أمد

ثم إنى أشعر شعوراً غريباً عب الفعوء وكراهية الظلام ، فأحب الهار وأكره الليل ، وأحب من الألفاظ كل ما يدل على الضوء ، وأكره مهاكل ما ينل على الظلام ، وأحب الهار تطلع شمسه ، وأكره السحاب ينشى الشمس ، ومن أجل ذلك وضعت بجانب سريرى زرآكليا شعرت بالظلام ضغطت عليه فأضاءت الحجرة . وأهم ما لاحظته اختلال ماكان عندى من قم لشئون

الحياة ، فأستعرض كثيراً مماكنت أقومه فلا أجد له قيمة ، وتعرض على متع الحيَّاة المختلفة فلا أجد لها وزنا ، وتعرض

على أحبار الناس يسلكون في الحياة سبلا نختلفة ، فأهزأ بكلُّ ثم لما فقدت قبم الأشياء التي اعتدتها لا أزال حائراً في

وضع أسس جديدة لقم جديدة ولما أستقر بعد على رأى. لقد أفادتني هذه التجربة المرة أن خبر هبة بهها الله

للإنسان مزاج هادئ مطمئن ، لايعباً كشراً بالكوارث ، ويتقبلها في ثبات ومخلد إلى أن الدنيا ألم وسرور ، ووجدان وفقدان ، وموت وحياة ، فهو يتناولها كما هي على حقيقها من غير جزع ، ثم صبر حيل على الشدائد يستقبل به الأحداث في جأش ثابت ، فن وهب هاتين الهبتين فقد منح أكبر أسباب السعادة . وأخرآ لم أستفق مما أصابتي من تدهور حالتي النفسية إلا بعد سنة تقريباً . أما عيناى فالعنى منهما قد استردت

(TT)

قدرتها كما كانت وهي السليمة التي لم تجر فها عملية ، وأما

الطبيب إن عملية الشبكية قد نجحت ، ولكن بمنعها من الإبصار أن مها مرضاً آخر وهو الماء الأبيض أو مَّا يسمونه والكاتاراكت ، وأنه لايصح عمل عملية فيها إلا بعد أن يتجمد هذا الماء ، وتجمده ليس له زمان محدود ، وهو نختلف باختلاف الأشخاص ، وأن العن سنزيد ظلاماً كلما تحرك الماء نحوإنسان العنن ، وفعلا قد مضى الآن على العملية نحو سنتين وزادت العين ظلاماً حتى كادت لاترى ، والطبيب مخترتي أنها قاربت التجمد وبعدها مجرى العملية . وقد عرضت عيني على طبيب آخر مشهور فقال إن العملية لم تنجح أوعلي أحسن تقدير إن الشبكة التأمت أولا ثم انفصلت ولا أمل في العين والعوض على الله .

من أجل ذلك ضعفت قدرتى على القراءة والكتابة سم الحراق الله ضعفت قدرتى على القراءة والكتابة سم الرغبة الشديدة فيها ، واضطررت أن أستمن بعض الشيء من يقرأ لى ويكتب ، وقد اعتلت الإملاء بعض الشيء لا أعتد إلا عمل نفسى فيها، وذخنى يدرك بالعين ما لايدوك بالسمع ، وأفكارى ترد على قلمي أكثر ما ترد على قلم فيرى ، وذخنى كتر الشرود عندا أسمع وقراءة السرة على مقراءة السرة المراد عندا أسمع وقراءة السرة المسكن القلم تقدره ، وفكرى بطره إذا أملى . وكنت إذا أسسكت القلم تواردت على الماردت على الماردت على الماردة عل

في ســـنة ١٩٤٨ قرر مجلس كلية الآداب ومجلس جامعة فواد الأول منحى الدكتوراه الفخرية فلقبت : الدكتور أحمد أمن ، ومنحت جائزة فؤاد الأول ، وهي إحدى الحوائز الى تقسدر بألف جنيه مصرى وتمنح لمن ينتج أحسن عمل أو إنتاج في الآداب والعلوم والقانون ؛ وقد أقم حفـــل كالمعتاد في يوم ٢٨ فىراير ١٩٤٨ في قاعة الاحتفالات الكنرى للجامعة سلمت فيه الحائزة ، وكان نص الىراءة الملكية مايأتى و من فاروق ملك مصر بعناية الله تعالى إلى حضرةصاحب العزة الدكتور أحمد أمين إبراهم بك العضو مجمع فوَّاد الأول للغة العربية : بناء على ما أقرته اللجنة الدائمة لحوائز فؤاد الأول وفاروق الأول من استحقاقكم جائزة فؤاد الأول للآ داب عن سنة ١٩٤٨ لما امتاز به مؤلفكم وظهر الإسلام، من دقة البحث ، قد أمرنا بإصداربراءتنا الملكية هذه من ديواننا بمنحكم تلك الحائزة . وفقكم الله لحلمة العلم والوطن ؛ تحريراً بقصر القبة الملكي بالقاهرة في اليوم التاسع عشر من شهر حمادى الثانية لسنة ألف وثلاثمائة وسبع

وستين من هجرة خاتم المرسلين وفى السنة الثانية عشرة من حكمنا _ع . كما سلمت فياليوم نفسه براءة الدكتوراه الفخرية⁽¹⁾

وكان الطبيعي أن أبيج بهاتين المنحن العظيمة وجهودى
منحنا لى فى يوم واحد تتوبجاً لجهودى فى الحاصة وجهودى
فى الإنتاج الأدنى ، ولكن جاءتا عقب العملية الحراصية فى
هي وما أصابي من ذلك فى نفسى ، فلم جز لحا قلبى كما
ينبغى ولا أبيجت لما نفسى كما يجب ، يضاف إلى ذلك
حاتى النفسية وهي أن تستجب لداعى الحزن ، ولوصفيراً ،
ولا تستجب لداعى السرور ولوكبيراً إلا يقدر.

وفى هذه السنة أيضاً أنشئ فى الحامعة نظام و الأستاذ غير المتفرغ ، وهو نظام ⁽⁷⁾ وأى واضعوه أن كثيراً من الممتازين

⁽۱) وقد أَجِلُّ منع إبلاته في السنة الأولى فلما أنت السنة الثانية كان لين الهيئة ألنا جها التن الأحشاء على منع إمناني الجالاتين للأحماد عمل المنشاء واعتقادا في الجائزة الثانية بيش وبين الدكترو عمد حسين حميكل واشته الفزاع بين الرأيش ولم يسلد أحد الشريفين من رأيه ، ثم تقررت ألف الأسقة ومنست الفلاثة "لاف أول ما منست للأحشاة عامى عمود المنشاد والله كثور ميكل واحد أمين على التساوى ، كل منع الكا

 ⁽٢) هو نظام وضعه الدكتور عبد الرزاق السهودى أيام كان وزيراً
 المعارف .

فى القانون والآداب والعلوم يشغلون مناصب كبيرة فىالدولة، وليس من السهل إخراجهم من مناصهم ونخصيصهم بأستاذية الحامعة ، فمن الممكن تعييمهم أساتلة غير متفرغين مع بقائهم في مناصبهم الأخرى ، فلما ووفق على هذا المشروع عيثت أستاذًا غير متفرغ مع من عين في كلية الآداب ، وعين معي في كلية الآداب الأستاذ محمد شفيق غربال وكيل وزارة المعارف والأستاذ مصطنى عامر مدير جامعة فاروق إذ ذاك، ولم تحل إحالتي على المعاش دون ذلك ، فعدت أستاذاً كما كنت أحضَّر محاضرتي وألقمها ، وأنا في هذا العام عام ١٩٤٩ أَلْتَى مُحاضِرَتِينَ : إحداهما في النقد الأدبي وموضوعها كيف ينبغي أن يدرس الأدب ، والثانية دراسة لكتاب الوساطة. بين المتنبي وخصومه .

(77)

ونی ه پولیو سنة ۱۹۵۰ ذهبت لیل الإسکندریة لأصطاف ونزلت بیتی فی سیدی بشر وأخلت آستربح ونمت نوماً هادفاً لم أشعر فیه بشیء وقمت من نومی صباحا کالعادة وأفطرت علی عادتی بکوب من اللبن وقطعة من الجین وفنجلازمن القهوة وذهبت أغسل يدى فوقعت فظننت أن رجلي عثرت بشيء فعاودت المشي ثانية فسقطت . ثم أحسست أن الحانب الشهالى كله من يد ورجل قد فقد حركته تماماً واستدعيت الطبيب فقال إنها جلطة خفيفة وأنه يلزم السكون تمامآ فسألته عن السبب ؛ قال إن الحلطة تحدث في المن فإذا تحرك الحسم تحركت فعاثت الحلطة فى المنع وسببت مضاعفات. لا قد ر الله ـــ فوجب أن تبنى فى مكانها حتى تصبر كالإسفنج. وكان ذلك على أثر غلطات عملتها فقد أخذت حقنة من الأنسولين من سنتيين والحسم لايحتمل إلا سنتيآ واحدآ وقمت بعد ساعتن من النوم وقد أحترق السكر من دمى وطلبت ما عندهم من أكل فأكلت أكلا حمًّا وكان يكفي لهذه الحالة كوب من ماء بسكر ، وغلطت غلطة ثالثة فنمت فوراً بعد هذا الأكل فتحولت حركة الدم إلى المعدة لتهضيم فحضت بضع ثوان لم تتغذ فها بعض خلايا المخ فماتت وقام مقامها خلايا أخرى لتحل محلها وهي تحتاج إلى ستة أسابيع أو ثلاثة أشهر على الأقل ليتم نموها . وهكذا مكثت أربعة آيام أشعر بنصني الأيسر كأنه وعاء فارغ ثم شعرت بأنه نمتليء رملا ثم شعرت بالقوة تدب فيه وكانت رجلي أسبق إلى الحركة من يدى . ولما تقلمت في الصحة وزال من المرض نحو ٩٥٪ في نحو سة أسابيع بعلو الشفاء فى الأيام الأعدرة حى أحاج لمل شهر آخر ، لأن العمل على بناء الخلايا كان من عمل الشرايين ثم صار من عمل الشعرات وهى بطبيعة الحال أبطأ عملا وهكذا شاء القدر . وعلى كل حال فقد استقلت من هذا المرض تجارب كثيرة إذ علمت أن حركة اليد والرجل عبارة عن عملة ميكانيكية مركية لايمكن أن تحسن إلا بسلامة أعضاء كثيرة ، ولم أكن أستطيع إساك علية السجاير ولا علية الكديت ولا أن أشعل عوداً من الكديت وهكذا .

(TV)

هذه أهم الأحداث الى مرت على من صباى لك شيخوعي فائرت في تأثيراً دائياً متواصلاً حي صبرتني كما أنا اليوم ، وكان عكن أن تكون غير ذلك فأكون غير ذلك ، ولكن شاء الله أن تجرى على كما جرت فتصوغ منى ما صاغت .

لقد كتيت مرة مقالا في وصف صديق وكنت أستمل وصف هذا الصديق من نفسي ، إذ عنّيَت به شخصي ، وقد جاء فيه : ٩ لى صديق اصطلحت عليه الأصداد ، والتلفت فيه المتناقضات سواء في ذلك خلقه وعلمه .

حيٌّ خجول يغشى المجلس فيتعثّر فى مشيته ، ويضطرب

فى حركته ، ويصادف أول مقعد قبرى بخسه فيه ، وبجلس وقد لف الحياء رأسه ، وغفى الحجل طرفه ، وتقدم له القهرة فترتمش يده وترتجف أعصابه ، وقد يدارى ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة ولا به إليها حاجة ، وقد يشمل لفافته. فيحمله حجله أن ينفضها كل حين ، وهى لاتحرق جلها القدر كل حين . وقد جرب من هلا كله فيتحدث إلى جليسه ليدى نفسه وخجله ، ولكن سرعان ما تعاوده الفكرة فيعاوده الهرب ، حتى عين موعد الانصراف فيخرج كا دخل ، وبنفس الصحاء بعد أن أدركه الإهياء .

من أجل هذا أكرهُ شيء عنده أن يشترك فى عزاء أوهناء أو ينحى إلى وليمة أو ينحو إليا إلا أن يكون مع الحاصة من أصدقائه . . عب العزلة لا كرهاً للناس ولكن هروباً بنضه .

ثم هو مع هذا جرىء إلى الوقاحة ، يخطب فلا بهاب ،
ويتكلم فى مسألة علمية فلا ينضب ماوه ولا يندى جيينه ،
ويعرض عليه الأمر فى جمع حافل فيدلى برأيه فى غير هيبة
ولا وجل ، وقد تبلغ به الجرأة أن يجرح حسهم ، وينال
من شعودهم، ويرسل نفسه على مهيها فلا يتحفظ ولا يتحرز.
عكم من يراه فى حالته الأولى أنه أشد حياء من عندرة ،

ومن يراه فهما أنه شجاع القلب ، جيان الوجه .
وهو طموح قدوع ، نابه خامل ، تنزع نفسه إلى أسى
المراتب فيوفر على ذلك همه ، ومجمع له نفسه ، ويتحمل
فيه أشتر العناء وأكبر البسلاء ، وبينا هو في جلده وكلم

ومن يراه في الثانية أنه أجرأ من أسد وأصلب من صخر،

وحزمه وعزمه إذ طاف به طائف من التصوف ، فاحتقر الدنيا وشتونها ، فهزئ الدنيا وشتونها ، والنمم والبوس ، والفقاء والهناء ، فهزئ به وضح منه واستوطأ مهاد الحمول ، ورضى من زمانه عاقسم له ؛ ويينا يأمل أن يكون أشهر من قر ، ومن نار على علم ، إذا به نخجل يوم ينشر اسمه في صيفة ، ويلوب حين يشار إليه في حفل ، ويردد مع الصوفية قولم و ادفن وجودك في أرض الحمول فا نبت نما لم يدفن لايم تناجه ٢ ؛ يعجب من يعرفه ، إذ يراه معرفة نكرة ، عبا الشهرة يومجب من يعرفه ، إذ يراه معرفة نكرة ، عبا الشهرة

والحمول معا . وأغرب ما فيه أنه متكبر يتجاوز قدره ويعدو طوره ، ومتراضع ينخفض جناحه وتتضامل نفسه ، يتكبر حيث يصغر الكبراء ، ويتصاغر حيث يكبر الصغراء . يتبه عل العظاء ويجلس إلى الفقراء يؤاكلهم ويستذل لهم ، لا تلزن

اللهاء ويبعدن إلى الفطراء يوا اللهم ويستدن ثم " د للري تمناته لكبير ، وغزم أنفه للصغير. يحب الناس حملة ويكرهم حملة ، يدعوه الحب أن يندمج

فهم ويدعوه الكره أن يفر مهم . حار فى أمره ، وامترج حبه بكرهه ، فاسهان بهم فى غبر احتقار . صحيح الحسم مريضه ، ليس فيه موضع ضعف ، ولكن

كلك ليس فيه موضع قوة . . كلك ليس فيه موضع قوة . .

ورأسه كأنه عزن مهرّش أو دكان مبعثر وضع فيه الثوب الحلق بجانب الحجر الكريم . يتلاق فيه ملعب أهل السنة بمذهب النشوء والارتقاء ، ومذهب الحير بمذهب

الاختيار ، وتجتمع فى مكتبته كتب خطية قديمة فىموضوعات قديمة ، قد أكتابها الأرضكة ونسج الزمان علمها خيوطاً ، وأحدث الكتب الأروبية فكراً وطبعاً وتجليداً . ولكن من

هلمين ظل فى عقله وأثر فى رأسه. إن طاف طائف الإلحاد بفكره لم تطاوعه طبيعته ، وإن شك حيناً عقله آمن دائماً قلبه ، ومن أصدقائه السكير

والزاهد ، والفاجر والعابد ، وكلهم عن اختلاف مذاهبم؛ يصفه بأنه يجيد الإصغاء كما يجيد البليغ الكلام ، وأزيد على ذلك أنى غضوب حليم ، وكل من يرانى يصفد بالمدمد والاتران والما والا كريم بران .

 وللك أنفل الحوادث أكثر بما يضل لما صبي ، فقد أكون جليداً لبض الأصدقاء ، فيأتينا خبر موت صديق أو كارثة ترك بمن نعرف ، فالاحظ أن أكثر مم انفعالا وأشدم باثراً . ثم قد ورثت من أنى و حل المرة والحوف من العواقب ، والحياة قلما تمان م " – هم الأولاد ودراسهم ، والمعيشة ، وتكاليفها ، والرظائف ومناجها ونحو ذلك ، والناس حولي تعربهم هذه المعرم وأكثر نها فلا يأجون بها كما آبه ، ولا يفزعون مها كما أفرع ، ويضحكون وسط همومهم على عشر حوادث تسع مها تستوجب السرور ، وواحدة على عشر حوادث تسع مها تستوجب السرور ، وواحدة

شدید الحساسیة للكلمة تمسی أو الفعل مجرحی ، وقد لا أنام الليل لكلمة نابیة سمحها أوصدرت عی فی حق صدیق لی ، ولكن كما أنی شدید الثائر شدید التسامع ، أغضب ممن یسیء المل ، ثم سرحان ما یصفر له قلمی ویتسع له صدری.

تستوجب الهم لغلبت الواحدة التسع .

شديد الحوف على سمقى الحلقية ، فأتألم أشد الألم من كلمة تنشر إذا مست خلقى ، ولكنى واسع الصدر جداً فيا يمس آرائى وأفكارى . فليس مجزنى نقد كتبى ولا نقد آرائی ، بل أرتاح له وأغنبط به إذا اقتصر على حدود الرأى والفكر ، ولم يتعده إلى حدود الحلق .

نع يسرنى كل السرور أن يقدر الناس كتبى وأفكارى ، ولكن إذا تقدوها فى أدب عددت ذلك ضرباً من ضروب تقدير ها والاهمام مها .

تقديرها والاهتمام بها .

لدى الشجاعة فى قول الحق والترام الصدق واحيال الحرمان من مال أو جاه ، ولكن ليس لدى الشجاعة فى احيال شوكة تصيب أولادى أو شىء بمس شرق.

لست كثير الثقة ينفسي ، ولا بما يصدر عني ، فالكتاب أولفه أوالمقال أكتبه لا أثق محكمي عليه بأنه جيد أوردىء حيى يقرأه الناس فيحكموا بجودته أو تفاهته ، قد ألمح فيه الحودة أو التفاهة ، ولكنى لا أثق محكم نفسى على نفسى حتى يؤيد الناس ظنى أو يكذبوه . وأذكر مرة أنى أعددت يوما ــ وأنا مدرس بمدرسة القضاء ــ محاضرة موضوعها و دقة الملاحظة) وكان من عادتنا أن نعرض ما نكتب على عاطف بك بركات ناظر المدرسة فيجزه أو لا يجزه ، وقلَّ أن تملو محاضرة يقرؤها من ملاحظات علمها يُقيدها بالقلم الأحمر ، فبعد يوم ردُّ إلى المحاضرة ، وليست علما أية إشارة ، فأيقنت أنها لم تعجبه حملة ، ولم يرض عن شيء فها ، وأسفت لذلك أسفاً شدیداً ، وجعلت أبرر حكمه علما ، وأتول ماذا تحتوى هذه

المحاضرة من أفكار . فكرة كذا تافهة ، وفكرة كذا مسبوقة، وفكم ة كذا ليستبذاك ، وهكذا حيى استسخفت كل ما فها، وبوم الثلاثاء وهو موعد المحاضرة استدعاني صباحا وسألني : لم كم أعلن عن محاضرتي ؟ فقلت : إنك استسخفتها . فقال: من قال لك ذلك ؟ قلت كل الدلائل ، فلم تحدثني بشأنها ، ولم تؤشر علمها وأرسلتها إلى مع الساعي ، ونحو ذلك . فقال : إنى وجدتها كاملة لپس لى انتقاد عليها فلم أوْشر على أى شيء فيها ، وسألت عنك فقيل لى إنك في الدرس فأرسلتها مع الساعي ، والمحاضرة قيمة جدا . فأخذت أستعيد في ذهني تقطها وأقول إن فها فكرة كلما وهي جيدة ، وفكرة كذا وهى جديدة ، وفكرة كذا وهى قيمة ، وألقيَّها فاستحسنت فعددتها حسنة .

وهذا عيب في لم أدر كيف نشأ ، فخير الإنسان أن يثق بنفسه من غير غلو ، ويقدر إنتاجه على حقيقته من غير إفراط أو تفريط

أحب النظام حباً شديداً ، فكل شىء فى موضعه وكل عمل فى وقته ، كما أحب البت السريع فى الأمور من غير تردد طويل ، وأفضل سرعة البت ولو أتنج الخطأ على طول النردد ولو تبعه الصواب .

أما حياتى اليومية فإنها تكاد تكون حياة رتيبة كأنى قطار

وإذا كان لدى عمل خرجت إليه ، وإلا ذهبت إلى مكتبني أو حديقتي أقرأ وأكتب إلى ما بعد الظهر ، وهذا خبر الأوقات عندى فائدة وأكثرها إنتاجاً ، فإذا تغديت نمت بعد الغداء ، وهي نومة تكاد تكون مقدسة ، إذا لم أنمها تعكر على ساثر يومى . وكثراً ماكانت هذه النومة سبباً لمتاعب كثيرة ، فأنا لا أنام إلَّا في هدوء تام ، وأي صوت ينهني ، وأي حركة تقلقيى، فإذا بكى طفل أو حدثت حركة في البيت ذهب عني النسوم ، وغضيت وأغضيت ، وكثيراً ما ثرت فالمت ، ويكفيني في هذا النوم نصف ساعة أوما دونه ، فإذا صحوت شربت قهوتي ، وإذا لم بكن ثمة داع إلى الخروج عدت إلى مكتبتي لأقرأ لا لأكتب ، فقلم ألفت في المساء لأني إذا كتبت هاج مخى ، فإذا ما نمت بعد الكتابة لم أنم نوماً هادئاً ، وظل عقلی محلم وبحلم ، ویبدی ویعید فیاکنت اکتب؛ وليس الحال كذلك إذا اقتصرت على القراءة . ولذلك اعتدت أن أفكر وأقرأ مساء ثم أكتب صباحًا غالباً . ولا أستطيع الكتابة إلا في هدوء تام فأى صوت يزعجني،

لا ينحرف عن السير على قضبانه، فلا منامرات ولا مفاجات أصحر قبل الشمس دائماً مهما تأخرت فى النوم ، وتلك عادة اعتنسا مذكان ألى يوقظى فى طفولتى لأعمل معه الفجر ـــ فإذا طلمت الشمس أفطرت فطوراً خفيفاً طالباً عاده اللن، وكم تمنيت أن يكون للأذن غطاء خاضع لإرادة الإنسان كما هو الشأن فى العين .

وقد أستريح يوم الحمدة فأخرج إلى حلوان أو الأهرام أو التفاطر الحبرية أو نحو ذلك لأسمى القراءة والكتابة ؛ وأصيف في الإسكندرية أو رأس البر ، فأهل أهم كنبي من وأشتال بها كما أشتال في أيام عمل ، فلا أستمتع إلا عمد الحمو والسير أحيانا على شاطئ البحر ، ولم أعتد حوث الحدد - كيفاً من الكيوف إلا الدخان أدخته ولا أبتله ، كما أعتد أن أضح وفي في الحلوس إلى مقهى إلى المنابة في عمل ، فإن ملت إلى اجتاع بالناس في أصدقائي في لحنة في على التأليف ، كالم أعتد ضياع وقت في لعن في لحنة التأليف ، كالم أعتد ضياع وقت في لعن رد أو شطرنج .

وكنت فى بدء حياتى العلمية كثير الفراغ ، أصرفه فى الفراءة والكتابة ، فألفت فجر الإسلام وضحاه ، ثم قل الفراءة والكتابة ، فأنا عضو فى الهجدات ، فأنا عضو فى الهجدات المجدات المجدات المجدات المجدات المجدات المجدات المجدات المجدات المجدات في المجدات المجدات المجدات المجدات المجدات المجدات المجدات المجدات ، ويشرت زمى، ووزحت جهدى ، مع قلة فالدبا فيا أعتقد . ولو استغبلت من أمرى ما استغبرت لرفضت كل هذه الأجور

ونحوها وفرغت لإتمام سلسلة فجر الإسلام وضحاه وظهره وعصره ، فقد كان ذلك أجدى وألفع وأخلد ، ولكن للظروف أحكام .

دون أن أخلو فيه إلى نفسى ، بعيداً عن أهل وولدى . وأستمر في القراءة إلى نحو الحادية عشرة فأنام ، وقد

وضعت مصباحا كهريائياً مجانب سريرى أقرأ عليه حق يغشاق النوم ، ولما أصبحت في عيني منعى الأطباء من القراءة ليلا فاستعنت على ماء وفتى عن يقرأ لى .

ليلا فاستخت على ملء وقتى بمن يقرأ لى . ليلا فاستخت على ملء وقتى بمن يقرأ لى . وإذا علقت فكرة بلمنى كانت شغلى الشاغل – أقرأ الكثير مها وأفكر فها والحلم بها ، وقد يخطر لى فها خاطر ...

الكثير عها وأفكر فها وأحلم بها ، وقد مخطر لى فها خاطر إذا صوت أثناء الليل ، فأذهب إلى مكتبى وأشيها وأستحضر الكتاب الذى أظنه يمالحها ، وأفروه لتحقيق الفكرة والوصول فها لمل ننى أواثبات ثم أهود إلى فراشى .

فيها لمل نني أواثبات ثم أهود إلى فراشي .
وإذا حدث حادث سياسي أو اجياعي – تومجأو إنساني –
تأثرت به تأثراً ينطى على تفكري العلمي . ومأنذا في
هذه الأيام مرتاع لما أصاب البلاد العربية من أحداث
فلسطن ، يفلقني جيد العيهونين وهزل العرب ، واجياع
كلمة الأولن وتفرق الآخرين ووقوف الأولن على أساليب

للأوضاع ، واستغلالهم الفرص السائحة ، وجرى الآخرين على سياسة الارتجال ، وجهلهم بما مجرى خلف الستار ، وتقصيرهم في جمع كلمهم وتوحيد خططهم ، ويفزعني ما أحرزه الصهيونيون من نجاح لم يكن يتوقعه حتى أكثرهم تفاؤلا وأوسعهم أملا ، وأكرر السؤال على نفسى : ماذاً سيكون المصىر لواستمر الصهيونيون فى جدهم واستعدادهم وتكاتفهم ، واستمر العرب في هزلم وتخاذلم ؟ وكثيراً ما أحاول الكتابة في موضوع علمي أو أدبي ثم أصرف عنه جذا الحزن وهذا الجزع ، وأقول إنى كنت أعجب من ضياع الأندلس بمن يد المسلمين وسائر الأقطار لاتحرك ساكنا للإغاثة ولا تمد يداً للمعونة ، واليوم بعد قرون طويلة تتجدد المأساة فتضيع فلسطين من يد المسلمين ولاعبرة من الأحداث ولااستفادة من التاريخ، ويغيثالمسلمون شكل إغاثة لاحقيقة إغاثة ، ويعاونون معاونة كان خبراً منها عدمها ، فيالله للمسلمن .

مُ لى نزعة صوفية غامضة ، فأشعر فى بعض اللحظات بعاطفة دنينة تمكّ نفسى وجهّز لها قلبى ، وأكبر ما يتجل هذا عند شهود المناظر الطبيعية الرائعة ، كالمزارع الواسعة ، والأشجار اليانعة ، والنجوم الملائعة ، وطلوع الشمس وغروبها ، والبحار وأمواجها ، والطيور وتغريدها ، فأشعر ـــ إذ ذلك ـــ بميل إلى احتضابها ، وأود لو ركزت فى كأس فأشربها ، وأحس بنشوة إذ أراها وأرى الله فها ، ولكنى ـــ مع ذلك ـــ أشعر بأسف على أنى لم أثم هذه النزعة كما بجب ، ولم أشعهدها وأراعها كما كان ينبغى .

ومزاجى فلسني أكثر منه أدبياً ؛ حتى في الأدب ، أكثر ما يعجبني منه ما غزر معناه ودق مرماه ، فيعجبني الحاحظ وأبو حيان التوحيدى وابن خلدون أكثر مما يعجبني الحريرى والقاضي الفاضل والصاحب بن عباد وطريقته ، والعاد الأصفهانى ومدرسته ، ويعجبني المتنبى لولا إغرابه أحيانا وتكلفه ، والمعرى لولا تعالمه ، وأفضلهما على أنى تمام وتقعره ، ولا يعجبني من البحثرى إلا قصائد معدودة ، ولا سَرَّر قلى لأكثر شعر الطبيعة في الأدب العربي ، لبنائه على الاستعارة والتشبيه لا على حرارة العاطفة ؛ ولهذا كان لى ذوق خاص في تقدير الأدب ، فضلت اتباعه مجهداً ولو كنت مخطئاً - على تقليد غيرى فى تقديره ولو كان مصيباً .

لو استعرضت حياتى من أولها إلى آخرها لكانت و شريطاً ۽

فيه شيء من الغرابة وفيه كثير من خطوط متعرجة ، فما أبعد أوله عن آخره ، وما أكثر ما فيه من مفارقات ، وتغير في الاتجاهات ، ومخالفة للاحبّالات ، فمن كان يرانى وأنا فى مدرسة أم عباس الابتدائية يظن أنى سأكل دراسي الابتدائية والثانوية ، وقد أكمل الدراسة العالية وأشغل الوظيفة التي تتفق ونوع الشهادة : معلماً أوقاضياً أومهندساً أونحو ذلك . تُم تغير هذا الاتجاه فجأة إلى الأزهر، فمن كان يراني فيالأزهر يظن أنى إما أن أنقطع عن الدراسة فأكون إماماً في مسجد ، أومدرساً في مدرسة أهلية أو نحو ذلك ، أو أتممها فأكون عالماً في الأزهر ، له كرسي مجانب عمود من عمده مجلس عليه بعمته الكبيرة وجبته الواسعة ، يشرح المآن والشرح والحاشية. ثم تغير هذا الاتجاه أيضاً فجأة إلى مدرسة القضاء ، فكان أكبر الظن أن أكون كزملائى قاضياً شرعياً يتنقل فيمناصب القضاء حيى يكون رئيس المحكمة الشرعية العليا أوقريباً منه ، ولكن تِغير أيضاً هذا الاتجاه فاتصلت بالحامعة ، وكنت أستاذاً بكلية الآداب وعميداً لها .

وتنبرت عقليى تبعاً لهذا التغير ، فلم تعد عقليمى تنسجم مع العقلية الأزهرية ؛ بل ولامع زملائى من مدرسة القضاء . ومنذ قليل قابلت صديقاً كان من أحب الأصدقاء إلى في مدرسة القضاء وأقربهم إلى عقلى ، فحادثته وأطلت الحديث معه ، فإذا أنا فى واد وهو فى واد .

وكم من الفروق بين معيشى الأولى ومعيشى الأحدة 1 وإن الفرق بيهما –كما قال الحاحظ –كالفرق بين امرئ القيس إذ يقول :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً

عقرت بعدى يا امرأ القيس فانزل

وقول على بن الحهم : فبتنا حميعاً لو تراق زجاجـــة

من الحمـــر فيا بيننا لم تَسَرَّبِ

كنت فى البيت كالذى وصفته ــ أولا ــ فى منهى السذاجة والبساطة ، لا ماء فى المواسعر ، ولا آلة من آلات المدنية الحديثة ، فأصبحت أسكن فى بيت فيه الحديقة ، وفيه أثاث المدنية الحديثة . وفيه الراديو والتليفون وما إلى ذلك .

ولم أركب القطار في حياق الأولى إلا وأنا في السادسة عشرة من عمرى ، ركبته إلى طنطا فحزنت وبكيت ، وفي آخر حياتي ركبت الطيارة من القاهرة إلى لندن وأنا مسرور مبسج وكنت أمشى على رجلى من يبنى في المنشية إلى الأزهر ، وأعود من الأزهر ومعى منديل كبير فيه (الحراية) أنقله بين يدى اليمني ويدى اليسرى ، ومن كتني اليمني إلى كتني اليسرى فأصبحت أنتقل حيى المسافات القصيرة في سيارة . وكان أبي يعلمني في كتاب كالذي ذكرت، فأصبحت أعلم أولادي في رياض الأطفال وما إلها ، ولايعجهم أن ينتقلوا في الدرجة الأولى فىالترام والأمنيبوس ، ويتطلبون سيارة يتنقلون بها ، وكنت أضرب على الشيء التافه الصغىر فأحتمل ، ولا أثور ولا أغضب، فضار أينائى يغضبون من الكلمة الخفيفة والعتاب المؤدب . وكنت لا أوْاخذ أبى على حرمانى من الضروريات، فصار أبنـــائى يواخلونني على حرمانهم من الإسراف في الكماليات . وكنت وصرت ، وكنت وصرت مما يطول شرحه ، فما أكثر ما يفعل الزمان .

لقد بدأت في شياني أرسم حياتي المستقبلة من خيالي ، وأرسم المثل العليا لى ف خطبي ومسلكي وإصلاحي ، ثم اصطلعت هذه المثل بالواقع ، وبالبيئة الى حولي ، وبالقباب التي صادفتني ، وبكتبر من الناس أخلوا ظنى ، كل هذا وأمثاله كان يأكل من البيان بنيته ، المثل الأعمل اللدى وضعته لقد حاولت أن أقعت أمام هذه التيارات ولكني لم أستطع ، أن أثبت في مركزي ، فجرفي معه ظيلا أوكتبراً ، ومن أجل هذا كنت في شيابي خبراً من في شيخوختي ، وفي أول بالمبدأ وإن ضرفى ، وانستقلت من عمل يلد على الربع لأنى رأيته بمس كرامتى ، وبنيت آمالا واسعة على ما أستطيعه من إصلاح وما أحقق من أعمال ، ثم رأيت كثيراً من هذه الآمال يتبخر ، وما أثرى من أعمال يتمثر ، وما أثلا في شيخوختى قد أثليل ما كنت أرفضى ، وقد أثنازل من بعض المبادئ التي كنت ألذم ، فالوسط وأحاديث الناس وكثرة الأولاد وتوالى المقبات وضعف الإرادة بطول الزمان قد تضطر الإنسان إلى التنازل عن بعض عله العلما ، ويعجبي قول من قال :

عهدى أكثر تفاولا مي في آخر عهدى . لكم تمسكت في شباني

صمیت هوی نفسی صغراً وعندما رمانی زمانی بالمثیب وبالسکتر أطمت الهوی ، حکس القضیة ، لیتی

ولدت كبراً ثم عدت إلى الصغر ومع ملما فإنى أحمد الله إذ من على بالتوفيق في أكمر ما زاولت من أعمال : فيا ألفت من كتب _ في عمل بلجية التأليف _ في الحاممة المصرية _ في الحاممة للصرية _ في خاممة العربية _ في عمادة كلية الأداب ؛ كلمك كان الشأن في حياتي العلمية والأدبية والمالية : نعر من الله

لا أستطيم أن أقوم بالشكر علما .

وهى ظاهرة يصنب تعليلها الفقل ، أو تفسيرها بالتحليل الاجياعى والتفسى د فكم رأيس من أناس كانوا أذكى مى وأمن خلقاً وأقوى عزيمة ، وكانت كل الدلائل تدل على أتهم سينجحون فى أحملتم إذا مارسوها ، ثم باسوا بالخية ومنوا بالإخفاق ، ولا تعليل لها إلا أن دقك فضل الله يؤتيه

من يشاء والله ذو الفضل العظم ، ٦

من مؤلفات أحد أمين

(٢) ضمى الإسلام (٣ أجزاء) (٣) ظهر الإسلام (٤ أجزاء) (٤) فيض الخاطر (١٠ أجزاء) (١) وزعاء الإصلاح ١١) فجر الإسلام . . .

(٦) الشرق والغرب

(٧) يوم الإسلام(٨) مبادئ الفلسفة (الناشر مومسة الخانجي) (٩) الأخسلاق

(١٠) التقد الأدبي (جزءان) } (١١) قمة الناسفة اليونانية (١٧) قمةالفلسفةالحديث(جرءان)

قالوا . . .

لقد أهدى أحد أمن إلى العالم الحديث بتأليف و فجر
 الإسلام وضحاه وظهره، كنزأ من أقوم الكنوز
 واعظمها حظاً من النبئ وأقدرها على البقاء ومعالولة
 الزمان والأصراح.

و څه حسيز

من ألف فجر الإسلام وضعى الإسلام وظهر الإسلام
 أبق على الأيام من أن يدركه الموت .

.

إن سلسلة فجر الإسلام وضحاه وظهره من أقوم وأروع
 ما وضع عن الحياة العقلة والفكرية للإسلام .

و عيد الرزاق السبورى ۽

لقد أسس أحد أمين مدرسة في الفكر الإسلامي الأعرف
 أن معاصراً قام بعمل بدائيه وستبق هذه المدرسة

راسخة الأصـــل باذخة الفروع ، وسيظل هو إمامها وزعيمها الفكرى الكبر ي

وعيد الرزاق السبودى ۽

لقد أخرج أخد أمن من ذخرته الغنية تاريخا جامعا
 دقيقاً للتفكر الإسسلامي في عصوره المنطقة ، ولعل
 أكبر أثر خالد له هو سلسلة فجر الإسسلام وضحى
 الإسلام وظهر الإسلام ه

وعبد الواحد خلاف ۽

إفرأ كتابه فجر الإسلام وصنويه الضحى والظهر تلمح
 خلف مظاهر البحث والدرس لوامع الروح الأصلية
 التي تميط الفبار عن معالم الفكر العربي وتريك الضوء
 من مصابحه >

و محبود تيا

 إن السلمة الرائعة من تاريخ الأدب العربي التي تبدأ بفجر الإسلام وتنتقل إلى ضحى الإسلام فإلى ظهر الإسلام ، كتوز من المعرفة كتيت بأسهل لسان ، وتفت من أصح مصادر واشتملت على أدق الإراء العلمية ،

و الأمير مصطفى الشهابي ۽

حَسْبُ أحمد أمن أنه حال الحياة العقلية العرب والمسلمين في كنيه: فجر الإسلام وضحاه وظهره ، تحليلا لم يتها مئه لأحمد من قبله . وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذى لم يكل ، والعقل الذى لم يضل ، والبصيرة التي نفلت إلى الحق من حجب صفيقة والبصيرة التي نفلت إلى الحق من حجب صفيقة والعدرة إلى في سالك مشعة .

ر أحد حسن الزيات ۽

لم يظفر كتاب من الديوع والانتشار والثائير بمثل
 ما ظفرت به مجموعة الكتب التي أصدرها أحمد أمين
 حين أصدر فجر الإسلام وتبعها بضحى الإسلام ثم
 ظهر الإسلام .

وأحد فؤاد الأهراق

أصبح الفجر والفحى والظهر مرجع كل طالب ،
 ومرشد كل باحث ، والمنارة التي سندى بها الناظر في
 التاريخ إلإسلامي وحضارته .

وأحمد فثراد الأهواق ۽

حين صور أحمد أمين الحياة العقلية في ضبر الإسلام وفي
 ضحاه وظهره أخرج للعالم كله مرجعا من أجمل المراجع
 وأحسنها نسقا وتوثيقا

ورداد السكاكيزي

 Ahmad Amin, who rose to a leading role in Egypt's cultural life, is well known by his works tracing the story of Islam, from what he called its Dawn to High Noon.

> (The Middle East Journal. Vol. 9, No. 1, London 1955)

The recent death of Dr. Ahmad Amin deprived the world of letters in the Middle East of an honored and influential leader.

> (Then and Now in Egypt by Kenneth Cragg)

The book, "Hayati" written by Ahmad Amin, the distinguished Cairo scholar and educator, is imprissive in its simplicity and sincerity. (Middle Eastern Affairs Vol. V.

(Miaaie Eastern Affairs Vol. V No. 1, January, 1954)



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن يؤكد أن جيالاً كامالاً من شباب مصر نشا على إسدارات هذه الكتبة التي قدمت خلال الأعوام المناضية لا خائر الإيداع والعرفة المسريية والعربيية والإنسانية التادوة وقتمة من عامها المحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإيداع والشكر زدا معرفياً الأسرة المسرية وعلامة فارقة في مسيرتها الحضارية.



السعر ۳۰۰ قرش